روجي كواندرو

ترجمة محمد حمود

قراصنة سلا



نشر بمساهمة المعهد الجامعي للبحث العلمي

جامعة محمد الخامس

روجي كواندرو

قراصنة سلا

ترجمة محمد حمود

نشر بمساهمة المعهد الجامعي للبحث العلمي
جامعة محمد الخامس

رقم الايداع القانوني 112/ 1991

تـقــديـم

إن اقتحام شواطىء المغرب صعب للغاية، فمهما كانت الفجوات متاحة عبر أربعة أودية رئيسية من طنجة إلى أكادير، فولوج هذه الشواطىء يبقى مع ذلك وعرا على وجه اليقين، لذا وخلال قرون عديدة، لم نشاهد على الشاطىء المغربي إلا ظهور وكالات صغرى. ولم تتمكن الحواضر التجارية الكبرى كقرطاجنة وصنور، ومرسيليا من التمركز على شواطىء المغرب، أو على منحدر إحدى الأجراف المتعددة، التي تقف سدا منيعا ضد كل عدوان. ثم إن الأودية الأربعة الرئيسية لا تتسع حتى لاستعمال أصغر السفن، غير أن مداخلها تعد بحق من أحسن المخابىء، بالنسبة لعارفيها، .وبخاصة مصبات نهري سبو وأبي رقراق.

فلا عجب إذن من وجود مدينتين بحريتين على ضفافهما، وهما مهدية وسلا التي ذاع صيتها وطارت سمعتها في الآفاق.

وقد اشتهرت سلا والحق يقال ـــ بين مدن العالم البحري، بما كان لها من باع طويل، في مجالي الصناعة، والتجارة، فكانت عاصمة القراصنة. وبالرغم من انقراض السلاوي منذ ما يزيد على قرنين من الزمن فهو لا يزال يتمتع بشهرة عالمية وصيت ذائع.

تلك الشهرة التي حصل عليها من خلال صنائعه الباهرة في الميدان العسكري والتي اتخذت فيما بعد شكل الأسطورة الشعبية. ولا يوجد نمط مثير للإعجاب أكثر من شخصية القرصان المغامر الذي تلتصق به وبكل سهولة أغرب القصص، والحكايات، فالقرصان يبعث على خلق الخيال وينمي الابتكار، ويطعم الأسطورة بشتى أنواع الخرافات. فهي شخصية ملحمية، تخلق الحدث وتطعم القصة. ومن أكبر مميزاتها أنها تصبح بسهولة مقلدة، تقفز من الشكل إلى الصورة، وتستميل الخيال مع طابعها الهين وتغرى الفكر بها وتتبع حركاتها وتجعله في ترقب مستمر إنها تحبس الأنفاس بأكبر مثير للذكريات هو اسم القرصان الذي ألصق به عادة وعن خطا

ذلك النعت المثير هو اللص المغامر، ومهما يكن من أمر فالفكر يتقبل من شراسة هذا الشخص ومغامراته أعجب ما عنده من خشونة وطيبوبة في آن واحد وإن كان الدم والبارود يلازمان شخصيته المجبولة على ذلك. فحينما يذكر القرصان يتخيل المرء صورة المكر والدهاء الحاد، لكن له مميزاته التي لا تفارقه من عمامة وسيف وشارب متميز ونظرة جامحة وأخيرا حمله لقرط كبير في الأذن، كما أنه مراوغ كبير يتميز بالخشونة والعنف — ومع كل ذلك فهو ذو مزاج مضحك ولا يتورع عن مطالبة أسيره ببستنة حديقته الصغيرة المحيطة بالمنزل أو ما يسمى بالرياض في العرف المغربي.

تذكروا حكاية دانييل دي فوا Daniel de Foï : «حينما كنا في طريقنا إلى جزر الكناري أو على الأصح بين الجزر الواقعة على الشاطيء الإفريقي، فوجئنا ذات صباح باكر بهجوم قرصان تركي علينا من سلا بشراعياته. ومن جهتنا قمنا بنشر قلاعنا، إلا أننا حينما رأيناه يقترب منا وأنه سيأسرنا خلال ثلاث ساعات استعددنا للمعركة، لقد كان لنا على سطح السفينة إثنا عشر مدفعا، بينما كان لخصمنا ثمانية عشر مدفعا. وحوالي الساعة الثالثة بعد الزوال وعلى مقربة منا طفق القرصان في خوض المعركة باحتقار لنا وسخرية منا، لأنه بدلا من أن يرشقنا بمدافعه من الخلف كما كان مخططه أطلق علينا رشقة من الجانب، وما كان منا إلا أن رشقناه بمدافعنا الثمانية ما جعل القرصان يتقهقر متراجعا إلى الوراء دون أن يغفل استعمال مدفعيته وسلاح رجال البنادق الذين بلغ عددهم مائتي رجل. إلا أن بحارتنا كانوا مسيطرين على الموقف فلم يصب أي واحد منهم بجراح أو سوء. وبعد برهة وجيزة أعاد القرصان الكرة واستعددنا نحن كذلك لخوض المعركة من جديد. وفي أقل من لمحة بصر انطلق ستون قرصانا وصعدوا لتوهم لسطح سفينتنا وأخذوا يلوحون بفؤوسهم ويمزقون الحبال ويكسرون الصواري. وقد واجهناهم بكل صرامة وشراسة باستعمال طلقات البنادق ورشات المتفجرات وغيرهما من الأسلحة. ولمرتين طردناهم من ظهر السفينة ولمرتين عادوا إلينا وأخيرا ودون التأكيد على هذه الفترة من تاريخنا، اضطربت سفينتنا وقتل ثلاثة من رجالنا وجرح ثمانية آخرون واضطررنا للاستسلام حيث اقتادنا الغالبون إلى مرفإ سلا الذي يملكه المسلمون».

ولا ريب أن قصص دانييل دي فوا تمثل النموذج الفريد والأصيل لأسطول القرصان، إنها تتوفر على جميع عناصر الرواية ولكنها تقص القصص باقتضاب وإيجاز، فيضيف دانييل قائلا : «إن المعاملة التي تعرضنا لها من جراء هذا الأسر لم تكن

بالصورة التي نخشاها من قبل.. فقد صاحبني سيدي الجديد إلى داره وحينما كان يسافر بالبحر يتركني بها للعناية بحديقته الصغيرة أو رياضه..» فإذا أضفنا لهذه التفصيلات تلك الملهاة القصصية نجد أنفسنا أمام جميع العناصر التي تكون القصة المثلى للقرصان ولم تخل كذلك من عنصر الاحتقار الذي له دلالته بوصف القرصان السلاوي بالتركي، لأن مصطلحات التركي والمغربي والبرباريسكي تعني كلها، حسب اللسان الدارج الانتماء لنفس الأمة ونفس الأسرة أسرة مغامري البحار.

وبالنسبة للدول الأوروبية فإن الشاطىء الافريقي الممتد من سلا إلى تونس كان يعتبر وطنا موحدا للقراصنة. حقا إذا كان الوطن مخيفا ومرعبا فقد كان في نفس الوقت يكون عنصرا ملائما للأسطورة الجذابة في عمقها والمغرية بصورها.

وحتى على ضوء التاريخ فلم يلبث هذا الوطن أقل جاذبية وغرابة من الماضي بل أصبح بصورة طبيعية أقل بساطة مما كان يتصور. ومن خصوصياته أن القراصنة الذين كانوا يقطنونه غير متشابهين فيما بينهم فإذا كانت مهنتهم المشتركة تخولهم ملامح مشتركة فهناك كثير من القسمات والأسارير المختلفة والمتنوعة التي كانت تميز بين فئة وأخرى منهم، فمثلا هناك فروق المحتد والبحر التي تعتبر كافية لبيان الفروق الأخرى بين قرصان وآخر، فكل قرصان له طابعه الخاص المتميز، وهكذا فالقرصان السلاوي لا يشبه تمام الشبه زميله في تونس رغم انتمائهما لعالم القرصنة الذي يعتبر قاسما مشتركا بينهما.

وقد كان قرصان سلا يتميز بميزة فريدة، ذلك أن قراصنة الجزائر وتونس وطرابلس كانوا يمخرون عباب مياه واحدة هي مياه البحر الأبيض المتوسط بينما كان قراصنة سلا هم المسلمون الوحيدون الذين تعاطوا للقرصنة في محيط جد خطير وشاسع هو المحيط الأطلسي. فقد كانوا في واجهة وثغور الاسلام في الجناح الغربي منه وكانت سفنهم الخفيفة تتجه مندفعة لغزو شواطئه حتى مصطبات الأرض الجديدة طيلة القرن السابع عشر.

تلك هي الأحداث الرئيسية التي تغيب عن أذهاننا بصورة عامة والتي تميز قراصنة سلا وتجعل من ظاهرة القرصنة السلاوية ظاهرة تتميز بالجرأة النادرة وتعطيها طابعا طريفا أكثر مما يعرفه الناس عنها بعامة.

ومن البديهي أن مؤلف القبطان روجي كوندرو يلخص لنا تاريخ الظاهرة

ويعطينا صورة قرصان جديد وصورة جديدة لسلا. ومما لا ريب فيه أن هذا الموضوع قد عولج وبحث من طرف كثير من المؤرخين لكنهم وحسب علمنا، لم يتعرضوا في بحوثهم تلك إلى دراسة الملامح المتميزة لنظام القراصنة المغاربيين ذلك التنظيم الذي أعدته وساهمت في إثرائه وضعية جغرافية استثنائية لأرض الاسلام كانت المنبع لكثير من الظواهر.

وقد انبثق عن هذه الوضعية الخاصة خلق حالة من التأطير والتجهيز ومجال عمل وتكتيك بل انبثق عنها كذلك خلق أعراف وتقاليد مهنية خاصة لم تكن تشبه أعراف. أية مؤسسة أخرى. وقد كان من الضروري أن تعالج الظاهرة وبخاصة من جانبها التقني من طرف بحار وهكذا كان الأمر بالنسبة لمؤلف كتاب «قراصنة سلا» الذي هو بحار نفسه وضابط في البحرية الفرنسية آنذاك مما أهله لأن يدرس الموضوع عن دراية وبينة كاملتين.

وقد بين المؤلف باختصار وإيجاز الأصول الأساسية لظاهرة القرصنة السلاوية : أنه برأيه طرد المورسيكيين والأندلسيين من وطنهم الذي كان وراء سير هذه المؤسسة وتنظيمها وتأطيرها وتمويلها، أنها خقا صفحات رائعة من التاريخ سطرت بلغة سهلة ميسورة كما ورسمت أحداثها المتتابعة بدقة ووضوح متناهيين. لكن القسط الأوفر من المؤلف خصص لدراسة الأسطول (من بواخر ومعدات واطقمة وخدمات بحرية، وقيادة وعمليات وآلات بحرية وتكتيك) إضافة إلى ماقامت وكانت تقوم به البحريات الأوروبية من ردود فعل زجرية ومواجهة تحديات القرصنة المغاربية وهذه النقطة التي لم تمكن دراستها إلا من طرف مختص في الملاحة البحرية لم تكن النقطة الأقل جاذبية من نقط الكتاب الأخرى سواء فيما يتعلق بمنهجية بحث الظاهرة موضوع المؤلف أو مايتصل بوضوح العرض للمادة البحرية حيث استغلت كل الوسائل لارضاء واشباع الحاسة التاريخية لكن هذه المزايا الوثيقة الصلة بشكل المؤلف لم تكن لمفردها كفيلة لتجعل من قراءة الكتاب ممتعة إلى هذا الحد لولا مارافقها من رهافة حس بحري وذوق للسفينة وشغف بين بالموضوع عملت كلها مجتمعة وبالتأكيد على بلورة الموضوع وشفافيته حتى صار في متناول القارىء العادي والمختص مغريا لهما بقراءته شكلا ومضمونا ونلاحظ ذلك بخاصة حينما يستلهم الكتاب بعض ملامح القراصنة سواء كانوا مسلمين أصلا أو منشقين، فيرسمها بأسلوب جذاب واستشهادات رائعة مايأخذ بتلابيب القارى ويملك عليه أنفاسه.

ومما لاريب فيه ان هؤلاء القراصنة الحق لايقلبون في انفسنا واذهاننا الصورة الأسطورة للقرصان فقط بل يتجاوزونها إلى اعطائنا نمنمة حقيقية ومشعة للقرصان في حلته التاريخية. إنها بحق معجزة وأية معجزة خارقة للعادة انبثقت عن ممارسة نشاط بحري بصورة غير معتادة ولا مالوفة كما وأنهاغير خاضعة للرقابة. وبالرغم من أن المؤلف لم يترك نفسه تنساق لرسم صور خيالية للقراصنة استجابة لصرامة التاريخ فقد قدم لنا مع ذلك عدة نماذج لشخصيات خارقة للعادة، وإنها بالنسبة لفن القصة تكون بحق نماذج لأروع القصص الخيالية. ولانظن أن هذا يسيء إليها أو يضيرها في شيء. حقا أن هناك مواقع وأزمنة وأمكنة لايفترق فيها القصصي عما هو تاريخي لأن هذه الأمكنة وهذه الحقب المتلاحقة والأناس الذين عاشوها تظهر نفسها بالرغم عنا خارج الزمن والمجال التاريخيين لتضع نفسها رهن زمن وطبيعة اسطوريتين.

هنري بوسكو*

* يعتبر هنري بوسكو من رواد الأدب الفرنسي في الثلاثينات والأربعينات وما بعدهما. وقد استقر بمدينة الرباط ـــ سنة 1931 كأستاذ للآداب الكلاسيكية بثانوية كورو، والتي تحمل الآن إسم صاحب الجلالة الحسن الثاني. وقد عمل بوسكو بهذه المؤسسة ربع قرن من الزمن تقريبا. وخلال هذه الفترة أبدع كثيرا من المقالات والأشعار والقصص بما له دلالة على عمق تفكيره وصفاء سيرته وإسهامه في بلورة ثقافتين وحضارتين تختلفان من حيث الشكل وتتعايشان من حيث الجوهر والمضمون وكذلك من حيث القواسم المشتركة التي لا يمكننا أن نتصور واحدة منهما دون الالتجاء إلى تصور الأخرى وبصفة عامة فالحضارة المتوسطية لمدة قرون عديدة كانت هي المهيمنة على سائر الحضارات، إذ توفرت لهذه الحضارة من عناصر المزج والتساكن والتسامح ما لم يتوفر لغيرها.

وفي سنة 1936 أسس بوسكو مجلة «أكدال»، الت تعني باللهجة البربرية : (الحديقة الصغيرة) وأشرف على إصدارها طيلة ثماني سنوات ـــ وقد كانت ـــ والحق يقال ـــ صلة وصل بين الثقافتين المغربية والفرنسية، كما وأنها استقطبت عدداً هاما من الكتاب المرموقين في فرنسا والمغرب والمعروفين آنذاك بقدراتهم الابداعية.

هذا وقد أقامت جمعية صداقة هنري بوسكور في ربيع 1988، أياماً دراسية بتعاون مع كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بمدينة الرباط وذلك احتفاء بمرور مائة سنة على ميلاد هذا الكاتب الذي استوحى معظم إنتاجاته من خلال مقامه بالمملكة المغربية.

ـــ المترجم ـــ

مــدخــل

إن القرصنة قديمة قدم الملاحة، ففي العصور الأولى غادر الناس القارة ليغامروا في البحر. ولم يكن هناك أي سبب يدعوهم لتغيير سلوكهم فوق البحر وعما تعارفوا عليه في اليابسة. فهنا كذلك كان يهاجم الأقوياء الضعفاء، وعلى الفور لم تكن طرق البحر أكثر سلامة من طرق اليابسة، ولم يكن هناك أي تمييز يفرق بين الملاح والقرصان.

فالقرصنة أو لصوصية البحار، المعتبرة في القانون الحديث كجريمة بنظر القانون الدولي، كانت تظهر في عيون القدماء كتعبير طبيعي للنشاط البحري. وهكذا نجدها مرتبطة ارتباطا وثيقا ببداية التجارة البحرية.

فقد كتب هنري كابل Henry Kappel، الذي كان يعتبر أكبر مطارد لقراصنة الشرق : «إذا كان صحيحا أن الرتيلات تكثر في الزوايا المخبأة والثقوب فإن القراصنة كانوا يتواجدون في الأمكنة التي تكثر فيها الجزر التي تتوفر على خلجان صغيرة وصخور ناتئة وباختصار على التسهيلات الملائمة لترصد الفرص وعناصر المباغتة والهجوم والفرار».

وقبل كل شيء عاشت القرصنة بصورة طبيعية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد ازدهرت فيه بصورة خاصة إلى بداية العصر المسيحي. وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية أدت حالة الفوضى السياسية والاجتماعية التي عمت العالم إلى خلق العناصر المواتية لنمو اللصوصية سواء في البحر أو البر. وهكذا أصبح الشر عاما وعالميا. فالقراصنة أغاروا على البحار وشواطىء أوروبا والمغاربة على الجنوب والنورمنديون في الشمال والفكينك يقرصنون في بحر المانش وبحر الشمال.

وحتى القرن الرابع عشر كان خطر القرصنة في البحر يمثل أعظم شر تتعرض له الملاحة. فلم تكن هناك أي شرطة لامن البحار، ولم يكن أمام مجهزي السفن والتجار إلا الالتجاء لحماية أنفسهم بأنفسهم، فمجهزوا السفن كانوا يسلحون

البحارة وهكذا انتقلت السفن إلى بوارج حربية كما أن الرغبة في الثأر والانتقام ساهمت بصورة واسعة في نمو القرصنة واستمراريتها.

ولم يكن من السهل الحصول على إصلاح الاضرار من طرف الحكومات إما لكونها تخاف من القراصنة وإما لكونها كانت مضطرة لخدماتهم. فنظرا لانعدام أساطيل منظمة كانت الدول مضطرة للنداء على رجال البحر لاغراض حرب بحرية. وهكذا وضع رجال لايشك في كونهم قراصنة على رأس سفن مسلحة لخدمة أمير أو لخدمة دولة ذات سيادة. فالأخبار القديمة لانكلترا تتحدث عن «قراصنة الملك» حيث كان الملك كيوم الثاني يعهد إليهم بحراسة المياه الاقليمية.

وفي القرن الرابع عشر ظهرت أولى العناصر المنظمة لحرب البحار وذلك بإنشاء رسائل الانتقام ورسائل الثأر للنفس.

وكانت رسائل الانتقام تخول لصاحب السفينة أو التاجر المغبون أن يسترد القيمة المماثلة لمبلغ الخسارة التي تعرض لها من أي سفينة تنتمي لنفس جنسية السارق.

أما رسالة الثأر للنفس فكانت تسلم لصاحب سفينة خصوصي أو قرصان وبمقتضاها تخول له «مهاجمة أعداء الدولة» بدون متابعات قانونية وكانت مصداقية الاذن غير محددة كميا وإنما كانت محددة زمنيا فقط (من 3 أشهر إلى سنة) فاذا استمر المخولة له الرسالة في العمل بالبحر خارج الأجل المحدد كان يعتبر قرصانا ويعاقب بالعقوبة المخصصة لقراصنة البحر : وهي الشنق على الدوقل.

وهكذا كان يظهر الفرق الأساسي بين قرصان وآخر فهناك القرصان الذي يجوب البحار لحسابه الخاص دون أن يكون مأذونا له بذلك من أي دولة ولهذا فهو لص مسلح لاغير. وبالعكس كان هناك قرصان يعتبر محاربا منتظما. وهكذا تكون تحركاته مشروعة مادامت هجماته مطابقة لقوانين الحرب، على السفن التي تعتبر عدوة للأمة التي يحصل منها على عمولة منتظمة لمهاجمة هذه السفن.

ولاضفاء مزيد من الشرعية على القرصنة عمد كثير من الملوك خلال القرن الخامس عشر وبواسطة معاهدات دولية، الى فرض التزام على القرصان بمقتضاه يؤدي هذا الأخير إلى إمارة البحر كفالة مالية كضمانة للأضرار التي يحتمل أن يرتكبها والمخالفات التي يمكن أن يقع فيها، شريطة أن يحمل بيرق الدولة المتعاهد معها.

غير أن هذا التمييز بين قرصان وآخر والذي استقر التعارف عليه طيلة القرن الخامس عشر بقي دائما هشا. وقد صرح نائب لاسورس أمام الجمعية التشريعية الفرنسية في فاتح يونيه 1792 بهذه المقولة : «قريبا سيصبح قاطع الطريق عظيما حينما يصير السارق ملزما بالضريبة».

المؤلف

الفصل الأول
القرصنة البربريسكية

القرصنة المتوسطية منذ القدم ــ بداية القرصنة البربريسكية ــ تطور القرصنة ــ طرد الموريسكيين من اسبانيا ــ المسلمون والبحر ــ بارباروس اخوان ــ تكوين الدول البربريسكية ــ دراكو ــ على علوش ــ مراد ــ المميزات العامة للقرصنة البربريسكية.

لقد كان قدر البحر الأبيض المتوسط مهد الملاحة، أن يمهد للملاحين مجال عمل ملائم بصورة خاصة وفعلا مارست كل الشعوب المتوسطية القرصنة. فالاغريق بحكم موقعهم الجغرافي الممتاز وطبيعة شواطيء بلدهم كانوا مؤهلين بصورة عجيبة لقطع الطرق التجارية بشرق البحر الأبيض المتوسط ـــ وقد أكد مونتيسكيو في كتابه روح الشرائع[1] «بأن الاغريق الأوائل كانوا كلهم قراصنة». وقد كان أعداؤهم الطبيعيون هم الفينيقيون الذين كانوا أول الملاحين المحتكرين لتجارة هذا البحر. ويذكر كوس فليب في كتابه Ph.GOSSE «تاريخ القرصنة» كيف أن الفينيقيين توصلوا إلى تهدئة انتقامهم : «أنهم كانوا يدخلون أحد الموانىء الاغريقية بصفتهم تجارا عاديين فيعرضون بضاعتهم في الميناء ويستدعون الاغريق لرؤية بضاعتهم وشرائها ويكون الزبناء بصورة طبيعية هم النساء. وحينما يجتمع منهم عدد كاف يصبحن هن البضاعة لا الزبناء» وهكذا كانت تجارة الرقيق إحدى السمات البارزة للقرصنة المتوسطية.

وقد أعطت المنافسة على البحر بين الاغريق والفينيقيين أول مثال للصراع بين دول تاجرة وقراصنة منظمين. ويمكن النظر لفترة الحروب القرطاجية الطويلة من هذه الزاوية. «ففي إطار السلب والنهب والعنف بين شعب وآخر وفي غياب كلي لأي نوع من القانون الدولي، يمكن إيجاد منبع الصراع الكبير بين روما وقرطاج وحينما صارت المواجهة مفتوحة عوضت القرصنة بحالة الحرب» كما أكد ذلك جنيل[2].

وبعد التحطيم الكلي لقرطاج من طرف الرومان عرفت القرصنة ازدهارا كبيرا. ثم صار المغلوبون ينتقمون ويتمردون على الغالبين وهكذا أصبحت المواصلات البحرية للجمهورية الرومانية المتعالية غير آمنة مما كان يهدد هذه الجمهورية بالجوع. فالسلب في البحر كان عامّا. فقراصنة سيلسيا cilicie كانوا يسيطرون على خليج الذهب ببحر إيجى. وصار بحر الادرياتي مجالا لقرصنة الاليريين. وأصبحت بذلك حركة الملاحة في المتوسط خاضعة لقانون «نهابي البحار العالية».

---

(1) روح الشرائع I X X 7.

(2) جنيل، القرصنة، أطروحة في القانون باريس 1903 ص 23.

وإلى حين تدخل بومبي Pompée الذي استحق لقب قاهر القراصنة لم يعمل أي شيء للقضاء على انتشار القرصنة المريع. وقد عرفت هذه حدتها في عهد القرصان الكبير سلنسيوس Salencus وحينما صار ميتريدات، Mithidate ملك بون «حامي القراصنة» وصارت القرصنة كما عبر عن ذلك بلوتارك Plutarque بأنها مهنة شريفة تداعب الطموح. وأخيرا في سنة 67 قبل الميلاد وضع بومبي لبضع سنوات، حدا لعمليات القراصنة حيث شتت شمل أساطيلهم خلال غزوة مظفرة وسريعة. ومن سخرية القدر أن ابنه سكستوس Sextus بعد بضع سنوات، هو الذي يحيي القرصنة من جديد. ولم تنته الفترة الأولى للقرصنة المتوسطية الا بعد انتصار نولوك سنة 35 قبل الميلاد حيث انتصر أوكتاف على سكستوس.

ولم تنطفىء قط جذوة القرصنة المتوسطية، فقد عرفت تطورا ملحوظا خلال الغارات الكبرى للامبراطور قسطنطين وأتباعه رغم الجهود المبذولة لوضع حد لها.

وعمل ازدهار التجارة في فترة الحروب الصليبية أيضا على نمو القرصنة المتوسطية، ففرسان مالطا ورثة المحاربين الصليبيين كانوا يساعدون الدول المتوسطية لمحاربة الأعمال التي كان يقوم بها القراصنة البربريون والذين كانوا ينطلقون من بلاد البربر الممتدة من مضيق جبل طارق إلى حدود مصر.

وقد أكد بول دان P. Dan في كتابه «تاريخ بلاد البربر وقراصنتها» أنه منذ سنة 1390 كان القراصنة البربر يعكرون صفو التجارة البحرية وأمن المسيحية.

واستمرت هذه القرصنة من القرون الوسطى حتى القرن الرابع عشر وكانت هذه أعظم الفترات للقرصنة الحديثة وهكذا، ازدهرت بصورة استثنائية في بداية القرن الخامس عشر بتأثير الأحداث التاريخية التي كانت اسبانيا مسرحا لها خلال حكم ملوك مسيحيين، فرديناند الخامس ملك أركون وايزابيلا ملك قشتالة. وقد انتهت امبراطورية المورسكيين عمليا سنة 1492 بالاستيلاء على مملكة غرناطة. ومنذ 12 يناير 1502 اتخذ أول مرسوم لطرد آلاف المسلمين من إسبانيا. وكانت لهذا العمل عواقب وخيمة لايمكن عدها في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إن الموريسكيين الذين طردوا من القارة الأوروبية بعد أن أقاموا بها قرابة 8 قرون حملوا معهم حقدا شرسا تجاه الاسبانيين. كما حملوا معهم إلى منفاهم رغبة عنيفة للانتقام وفي نفس الوقت لاسترداد قيمة أموالهم الضائعة بطريقة أو بأخرى. وقد كان

مرسوم الطرد قد عين لهم تركيا كمكان للاقامة مانعا إياهم من الدخول إلى افريقيا تحت طائلة الحكم بالاعدام. إلا أن كثيرا منهم رغم ذلك لم يتأخروا عن الالتجاء إلى افريقيا الشمالية وخاصة طرابلس وتونس والجزائر والمغرب.

ولم يفتأ المهاجرون الجدد المتميزون بالشجاعة والاقدام والتفتح على الاكتشافات الحديثة والعازمون قبل كل شيء على مواصلة معركتهم العريقة في القدم ضد الفاتحين الاسبان، لم يفتأوا أن مدوا يد المساعدة للقرصنة المتوسطية بكل حماس. وإذا كانت هجرة الموريسكيين من اسبانيا نحو افريقيا قد ساهمت في نمو القرصنة في وسط البحر الأبيض المتوسط وبالتالي في المحيط الاطلسي فلا يستنتج من ذلك بأن أغلبية القراصنة البربر كانوا مسلمين. فالقرصنة البربرية ذات الذاكرة المحزنة، كانت بالعكس تمارس على العموم من طرف أوربيين من أصل مسيحي. فالبعض منهم وهم الكثيرون، كانوا مجرد مغامرين مرتدين عن دينهم والبعض الآخر من قدماء الاساري الذين اعتقلوا وهم أطفال واعتنقوا الاسلام وقليل منهم بقي على ديانته المسيحية. وتحت لقب الاتراك كان يتستر كثير من الأغريق والبرتغاليين والاسبان والالمانيين الذين تركوا عبادة دينهم الحقيقي للتضحية من أجل الشيطان.

وفي الحقيقة ليس هناك ما يدعو للمفاجأة، فباستثناء عرب آسيا وخاصة سكان اليمن الذين كانوا يجوبون البحر الأحمر والخليج العربي والبحر الهندي والذين كانوا يقومون بدور المحرك للتجارة البحرية بين آسيا وأوروبا، فإن المسلمين على العموم لم يكن يستهويهم البحر.

وبالنسبة للقبائل البربرية والتكتلات العربية المنشأة في غرب الامبراطورية الاسلامية فقد بقي البحر عنصرا لايؤنس اليه. وكان المحيط الاطلسي على الخصوص بقوته القاهرة وأمواجه العنيفة يوحي لسكان المغرب برعب ورائي. ويمكن قراءة ماورد في مقدمة ابن خلدون[3] في هذا الموضوع : «حينما استولت الجيوش الاسلامية على مصر كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى واليه عمرو بن العاص يسأله عن كنه البحر. فأجابه عمرو بهذه الكلمات : «إنه كائن عظيم يحمل على ظهره كائنات ضعيفة وديدانا مزدحمة على قطع من الخشب». ونظرا لتأثر عمر بهذا الوصف فقد

(3) مقدمة ابن خلدون. ترجمة M. de Slanc المجلد 2 ص 39.

منع على المسلمين أن يخاطروا بأنفسهم في البحر. واستمر هذا المنع حتى مجييء الخليفة معاوية الأموي حيث أذن للمسلمين بركوب البحر بغية الجهاد في سبيل الله.

ولم يكن الكتاب العرب يتحدثون عن البحر إلا بكونه مصدرا للعجائب الخارقة للعادة والأخطار التي لاتحصى. وفي هذا الصدد يقول مثل بربري : «الذي يذهب إلى البحر يعتبر مفقودا والذي يعود يعتبر كمن ولد ثانية»[4].

وبما أن السكان المسلمين لم يكن من طبعهم حب البحر فلم يكن بامكانهم خوض غماره لو لم يكونوا يتلقون مساعدة هامة من الخارج.

وبالفعل فالبعض منهم توصل إلى مهام الرايس، أو قبطان باخرة لكن أغلبيتهم لم تلعب في القرصنة البربرية سوى مهام ثانوية، ويحكى كوس سنة 1588 من الجزائر أنه من بين 35 شراعا صغيرا كان يقود 24 منها مرتدون من أصل مسيحي بينما 11 الأخرى كان يقودها أتراك.

إلا أنه من المؤكد أن القرصنة عرفت تطورا مفاجئا بعد وصول الموريسكيين الاسبان إلى إفريقيا، فقد عوضت السفن الكبيرة والسريعة في وقت قصير السفن الحربية الصغيرة. وقد شاع استعمال الشراع، إضافة إلى السفن التي تعتمد على التجديف، مما وسع من مجال عمل القراصنة الذين أصبحوا أكثر جرأة وإقداما.

وقد توصل القراصنة الجدد بذكاء إلى أن يشركوا معهم رؤساء المدن الساحلية في غنائمهم عن طريق أداء ضريبة على هذه الغنائم مقابل حمايتهم والسماح لهم ببيع بضاعتهم. وهكذا أصبحت القرصنة فرعا من التجارة أكثر منها ملاحة مغامرة.

وكانت النجاحات الأولى باهرة، فأسر سفينتين بالويتين سنة 1504 في عرض جزيرة إلب مثّل حدثا تاريخيا في سماء المسيحية نزل عليها كالصاعقة. وقد أعطى هذا العمل الرائع شهرة كبيرة لمدبره الذي هو عروج باربروس الذي يعتبر بحق في رأس قائمة القراصنة البربر يسكيين.

فعروج باربروس هذا (1473 ــ 1518) كان الولد البكر لصانع فخار اغريقي مسيحي. وقد اعتنق الاسلام وتعاطى قبل كل شيء للقرصنة لحساب سلطان

---

(4) برينوا Brunot في كتابه «البحر فن التقاليد والصناعات الأهلية للرباط وسلا» باريس 921 ص 241.

قسطنطينية — ثم أصبح قرصانا مستقلا واختار تونس كنقطة دعم وهذا القرصان ذو الشعر واللحية الحمراوين، أخذ يهدد بأعماله الجسورة فرديناند الخامس ملك أركون أعظم دولة بحرية في العالم — وقد شدد الحصار على الجزائر وبجاية ووهران التي كانت أهم ملاجيء القرصنة — مما اضطر الجزائر إلى عقد سلام هش مع اسبانيا — وقد تعاظم نفوذ باربروس بعد موت فرديناندو صار هذا القرصان الخارق للعادة والذي يحتمي بحصنه في تونس، يتحدى عظمة شارلكان. ففي سنة 1516 صار سيد الجزائر. وبعد سنتين توفى خلال حرب وجهت ضده من طرف الماركيز دي كومار de Comares الحاكم الاسباني لمدينة وهران.

وقد خلفه أخوه خير الدين باربروس (1476 — 1546) الذي كان عبقريا حقيقيا في القرصنة «فبالاضافة إلى جرأة وعلم البحر لأخيه عروج كان يتصف بحذر رئيس دولة مما جعله ينتقل من رئيس قراصنة إلى أعلى منصب في الاسلام كما يشير إلى ذلك كوس. وقد أهدى مقاطعة الجزائر إلى ملك قسطنطينية واعتبر نفسه تابعا للامبراطورية العثمانية وسمي حاكما للجزائر. وبدعم الاتراك القوى ومساندتهم استأنف خير الدين بحرارة جديدة هجومات أخيه على الملاحة والمدن المسيحية بالبحر الأبيض المتوسط. وقد جمع حوله مجموعة من أكبر القراصنة في العالم وصار رئيسهم بدون منازع. ونذكر من بينهم سيف الاسلام سنان وعيدان الذي اشتهر تحت إسم «هلع الاسبانيين» بعد أن أسر سبع سفن حربية وتسع ناقلات للجنود الاسبانيين سنة 1529 وحسن الذي اختطف من جزيرة ساردنيا من طرف القراصنة وهو لايزال طفلا، ودافع عن مدينة الجزائر بانتصار كبير ضد الاسبانيين سنة 1541.

وبعد أن سمي خير الدين من طرف السلطان سليمان الاميرال الكبير لجميع الاساطيل العثمانية، استحق لقب «كارثة المسيحية» وصارت انتصاراته غير قابلة للاحصاء — وأغربها تمثل في هجومه على الاسطول الاسباني في عمق البحر الادرياتي وخلال هذا الهجوم غنم غنيمة عظيمة تمثلت في أربعة آلاف قطعة ذهبية وألف فتاة يافعة وألف وخمسمائة فتى من أشرف عائلات مدينة البندقية. وطيلة سنتين أفشل خير الدين أسطول الاميرال أنوريادوريا المكلف من طرف شارلكان بقبضه حيا.

وبجمعه تحت امرته 150 سفينة من بينها واحدة وستون بحرية، مبنية وفق تصاميم من اكتشافه حقق على الاميرال الشهير الاسباني انتصار برفترا (25 شتنبر 1538) والذي صار بعده أسطول السلطان سليمان سيد مجموع البحر الأبيض

المتوسط. وبعد أن ابتعد عن أشهر القراصنة البربر فقد أنهى حياته بالقسطنطينية سنة 1546 بعد أن عين سفيرا للسلطان سليمان في مرسيليا لدى ملك فرنسا فرانسوا الأول. وبعد سنوات عديدة من وفاة خير الدين لم تكن تغادر أي سفينة تركية ميناء قرن الذهب، دون أن تصلي وتؤدي التحية لأكبر البحارة الأتراك وأعظم قراصنة البحر المتوسط.

وهكذا عرفت القرصنة غاية أوجها عن طريق الأخوين باربوروس وعن طريقهما أصبحت تنظيمات القرصنة تتحدى كل سلطة. وليس هذا أقل مايوصف به خير الدين بل عن طريق تنظيماته المحكمة انتقلت القرصنة إلى تأسيس دول نظامية. فولاية الجزائر خير مثال على ذلك فهي ولاية ارتبطت بالامبراطورية العثمانية وقوى نفوذها مما جعل كثيرا من الدول تعقد معها معاهدات ومحالفات ونجد على رأس قائمة هذه الدول انكلترا وهولاندا وفرنسا وذلك خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وإذا كان خلفاء باربروس قد سجلوا انتصارات محكمة فلم يكن لهم بالرغم عن ذلك تألق أساتذتهم وبريقهم.

ومن بين هؤلاء دراكو الذي ولد في أناتوليا من أبوين مسيحيين ففي سنة 1540 بينما كان يقود مجموعة سفن عددها 12 أسر من طرف شخص قريب لدوريا وقضى أربع سنوات مقيدا في مقاعد سفينته الخاصة ــ وبعد أن افتداه خير الدين لقاء مبلغ ثلاثة آلاف كرونة اتخذ مقرا لاعماله جزيرة جربة بتونس ــ ملك عائلة دوريا ــ وحصنها لدرجة لايمكن معها الدخول إليها وأسس بعد ذلك ولاية طرابلس إلا أن السلطان سليمان لم يبقه عاملا عليها ــ وقتل في مالطا الى جانب المرتد بيالي باشا أحد معتنقي الاسلام.

وقد خلف دراكو أحد ملازميه علوش على الذي عين حاكما على الجزائر خلفا لولد خير الدين حسن ــ الذي قاطع التقليد البحري للعائلة ولم يحالف النجاح علوش على ــ وهكذا في 7 أكتوبر 1570 سحقت البحرية العثمانية على يد الأسطول المسيحي تحت قيادة ولد شارلوكان دون جوان للنمسا في ليبانطا Lépante.

وقد أثرت معركة ليبانطا في مسيرة القرصنة البربرية المنظمة ــ وازدهرت بعد ذلك القرصنة الخالصة. وأخذ رؤساء السفن يتحررون شيئا فشيئا من السلطة المركزية. ورضوا على الأكثر أن يدفعوا لحكام الجزائر 10% من غنائمهم.

وكان مراد من أكبر وأوائل القراصنة المستقلين وقد ولد بدوره مسيحيا من أبوين ألبانيين ـــ وأسر في سن الثانية عشرة من طرف قرصان جزائري ـــ وقد تعلم مهنة الملاحة من طرف خاطفه الذي أولاه عطفه ومحبته حيث وجد فيه عبقرية فذة وإقداما كبيرا إذ يتولى قيادة سفينة وهو مايزال شابا حيث كان يظهر كفاءة تفوق بكثير سنه.

وفي أنباء القرصنة البربرية استحق مراد مكانة بارزة حيث استطاع سنة 1585 أن يعبر مضيق جبل طارق ويغامر في عرض المحيط الأطلسي. وبهذه الصفة يمثل مراد حلقة وصل بين القراصنة الجزائريين الذين كانوا يجوبون عرض البحر الأبيض المتوسط وبين الطائفة الجديدة من قراصنة المحيط الذين اكتسبوا عبر القرون المقبلة تلك الشهرة المرعبة تحت اسم قراصنة سلا.

وتابعت القرصنة البربريسكية عيثها في البحر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وصارت بذلك المسالك البحرية خطيرة مثل الطرق الموحشة والتي تفصل بين إيطاليا وألبانيا. وكانت التجارة في حالة يرثى لها وأخذت المجاعة تنتشر بالمدن والعائلات تتشرد إما لكونها تفككت بصورة نهائية أو لكون ماليتها خربت بسبب الفديات التي كان عليها أداؤها لكي تفتدي واحدا أو عدة أفراد من أعضائها المختطفين وتنقذهم من رعب وعنت الاسترقاق. كانت هذه هي الصورة القاتمة التي يعطيها «فليب كوس» لدول البحر الأبيض المتوسط في أزهى أيام فترة القرصنة وأوجها.

وقد حطمت تجارة الرقيق رقمها القياسي في بداية القرن التاسع عشر بالرغم من جميع المعاهدات والمناورات البحرية للدول الغربية. وكانت الارسالية الفرنسية بقيادة الأميرال دوبرى والاستيلاء على مدينة الجزائر (4 يوليوز 1830) حاسمة لأنهاء العصر الممتد والطويل للقرصنة البربرية.

ومهما يكن الاقرار بالحقيقة شاقا وصعبا فإن بعض الملاحظات تفرض نفسها لاتمام دراسة الخطوط العامة للقرصنة المتوسطية ـ فمن الخطأ الاعتقاد بأن لصوصية البحر كانت وقفا على البربريسكيين وفي هذا الصدد يقول ماس لاترى Mas-Latrie : «إن أغلبية المؤلفين متفقون على أن القرصنة كانت تنمو بصورة متوازية عند المسيحيين والمسلمين فقد كانت معروفة ومحددة من قبل المسيحيين

والعرب ـ وكانت الآفة الدائمة التي لاعلاج لها في القرون الوسطى ـــ ولهذا يجب رفض الأحكام المسبقة التاريخية التي تضع على كاهل العرب وحدهم أعمال النهب لقراصنة البحر الأبيض المتوسط فقد كان الشر عالميا».

«ونعتقد أنه لو كان يمكن القيام بإحصائيات للجرائم التي كان مسرحا لها البحر المتوسط مابين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر لو ضعت على عاتق المسيحيين حصة ثقيلة من أعمال النهب والسلب البحريين والتي كنا بسهولة نضعها في حساب قرصنة البرابر. فإذا كان المسيحيون تضرروا أكثر من قرصنة المسلمين فذلك لأن تجارة المسيحيين كانت أكثر أهمية وشواطئهم سهلة النفاذ ولأن تاريخهم العام كان معروفا أكثر من تاريخ العرب. وتظهر شهادات أنفسهم الشر المنسوب إلى القراصنة من أصل مسيحي» وادان نفسه لايغتاظ من هذه الممارسات البغيضة قائلا بأنه لايجب أن نلوم أعمال القرصنة التي قام بها المسيحيون ضد أعداء ديانتهم».

«ولاشك أن القرصنة كانت تتستر بقناع الحرب المقدسة، فبصرخة حرب الموريسكيين كان الاسبان يقودون حربهم الصليبية ضد مسلمي إفريقيا الاعداء العريقين للديانة والوطن. وبصورة متبادلة كان كل مسيحي يعتبر عدوا للمسلمين ـ غير أنه يجب الاعتراف بأن القراصنة من جميع الأجناس والأقطار كانوا يسعون من أعمالهم إلى تحقيق مكاسب مادية. فروح الكسب وطعم الربح التي غذاها الأسر وتجارة الرقيق كانت في الحقيقة هي الحوافز الكبرى للقرصنة. وقد ذهب كاسترى إلى حد التأكيد بأنه «لولا الربح المحقق والناتج عن فدية أو تبادل الأساري لما كان هناك قراصنة على شواطىء المغرب».

إذن لم يكن للمسلمين قط احتكار هذه التجارة الشائنة فالجنويون شوهوا تجارتهم بتهريب المسيحيين والمسلمين معا والتجارة في الرقيق الأبيض لتزويد حريم مصر والمغرب ـ فخلال القرن السابع عشر كان يرى في جنوة مجهزو سفن أغنياء يستخدمون عبيدا بربر.

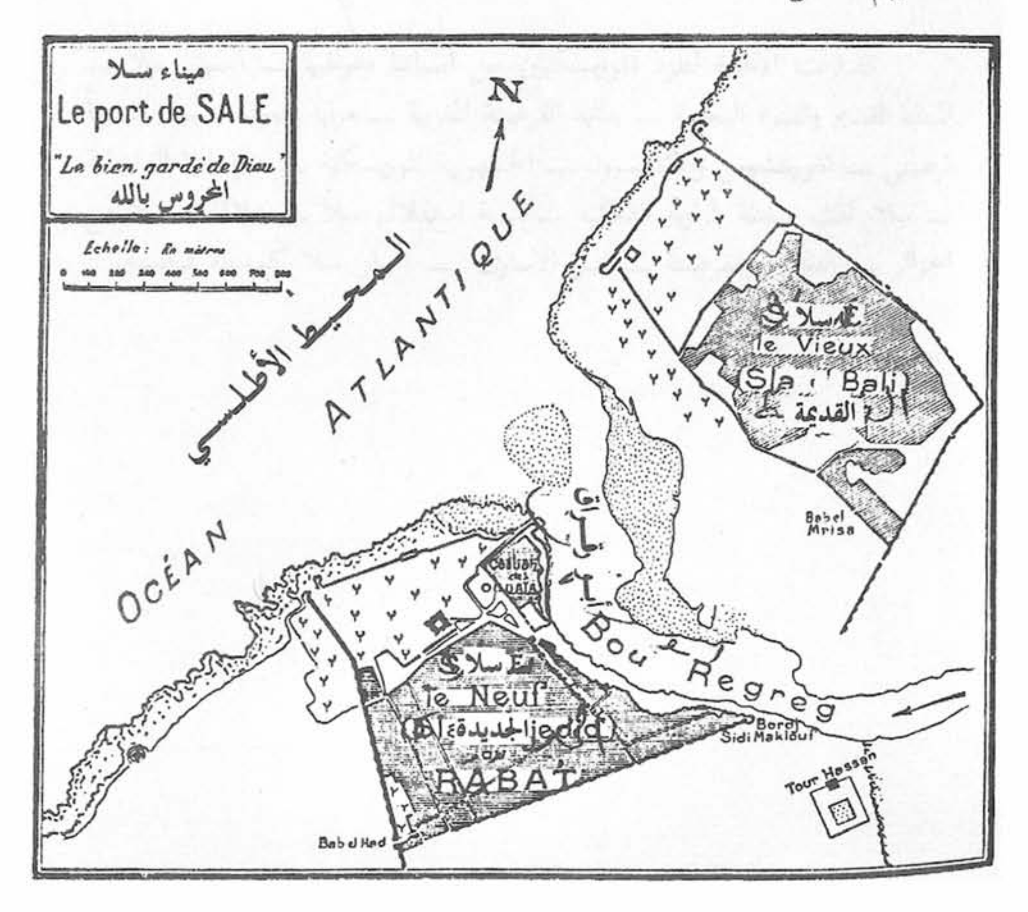
ويحكى مويط أنه في نفس الفترة كان أحد المغاربة من تلمسان عبدا لكاردينال أركون ـ وإذا صدقنا ما قاله كوس، فإن فرسان القديس جان كانوا يعيشون سنين عديدة من نهب أعداء لديانتهم.

لكن غنائم المسيحيين كانت أقل بكثير من غنائم المسلمين ولعل السبب في

ذلك أن الرقيق من المسحيين كان مصدره آتيا من السفن التجارية بينما الأقلية من . رقيق المسلمين التي كان يتوصل المسيحيون لأسرها، باستثناء بعض الحجاج القاصدين مكة عن طريق البحر، كان مصدرها آتيا من بواخر القراصنة.

وتظهر الحاجة بالكاد إلى بيان وملاحظة أنه في حالة القرصنة البربرية لايمكن وضع حد فاصل بين القرصنة بكامل معناها التي ترادف النهب في البحر وبين القرصنة كعمل مشروع للحرب البحرية ـ ولم يكن المسلمون قط يضعون تمييزا في هذا الموضوع.

فمصطلحات قراصنة أو قراصنة بربريسكيين كانت تستعمل غالبا بلا تمييز. وعلى الأكثر يمكن إطلاق مصطلح «قراصنة بمعناه الدقيق على المغاربة الذين يجوبون عرض البحار حينما كانت ولايات الجزائر وتونس وطرابلس تابعة للامبراطورية العثمانية والتي كانت تعطى صورة دول منتظمة ـ لكن منذ نهاية القرن السادس عشر وخاصة بعد هزيمة «ليبانت» لم يعد القراصنة الافارقة ومما لا ريب فيه سوى مغامرين يعملون لحسابهم الخاص.



الفصل الثاني

سلا مدينة قرصنة

القرارات الأخيرة لطرد الموريسكيين من اسبانيا وعواقبها ــ أصول سلا ــ الميناء القديم والفتوة البحرية ــ بداية القرصنة المغربية ــ مزايا ومعوقات سلا كمرفأ قرصني ــ الهورنتشوس والاندلسيون ــ الجمهورية الموريسكية ــ صراعاتها الداخلية ــ سلا تحت سلطة الزاوية الدلائية ــ نهاية استقلال سلا ــ علاقات سلا مع الجزائر ــ التجارة والقرصنة ــ قدر الاسارى ــ انهيار سلا كمدينة قرصنية.

لقد تتابعت هجرة الموريسكيين المطرودين من اسبانيا نحو افريقيا خلال كل القرن السادس عشر حتى نهاية السنة 1609. حيث اقر الملك فيليب الثالث توصية بالطرد النهائي لجميع المسلمين الذين لازالوا يسكنون فوق التراب الاسباني. فأوامر الأبعاد التي همت الموريسكيين من مختلف المناطق تتابعت من 22 شتنبر 1609 إلى 18 يناير 1610، وكان هذا المرسوم الأخير يكتسي صبغة عامة وحاسمة حيث الزم جميع المسلمين منشقين وغيرهم وجميع المسيحيين الذين اسلموا عن طيب خاطر أو بقوة بالمغادرة السريعة للبلاد. وكان لهذا المقرر الذي اعتبره البعض الغاء لمنشور نانت، اسوأ العواقب على اسبانيا نفسها وعلى جميع العالم المسيحي.

وقد كانت حملات الطرد الاولى منذ قرن مضى قد حددت بقوة مصير القرصنة المتوسطية : فالتدبير الصارم لسنة 1610 كان عاملا بصورة مقلقة على انعدام الأمن بالبحر وعلى ميلاد القرصنة السلاوية التي ظلت طيلة قرنين من الزمن من بين الفروع الأكثر نشاطا للقرصنة البربريسكية.

وقد التحق البعض من الموريسكيين المنفيين بشراسة بفرنسا، لكن الأغلبية منهم التحقت بافريقيا الشمالية وبصفة خاصة تونس إلا أن المغرب استقبل بضعة آلاف وخاصة في تطوان وفاس وسلا، ففي سلا وميناء ابي رقراق كانت قد تأسست خلال السنوات الأخيرة جالية صغيرة من الموريسكيين الذين هاجروا من اسبانيا وبصفة طوعية تقريبا ولم يكن هؤلاء يكفون عن الاتصال باخوانهم في الدين الذين بقوا مستقرين بشبه الجزيرة الايبيرية. وكان وجودهم بسلا عاملا على جذب عدد كبير من المنفيين، بقرار 1610، إلى المغامرة في البحر سيما ذوي الكفاءات والخبرة في هذا الميدان. وكان انضمام الفوج الجديد من الموريسكيين إلى المهاجرين القدامى والأسى الذي يحملونه في قلوبهم ذا تأثير كبير على مصير المدينة ومستقبلها.

فمصب وادي أب رقراق على الشاطىء الأطلسي للمغرب والذي يوجد على بعد 140 ميلا من «رأس سبارتيل» كان محتلا منذ القرون القديمة فالقرطاجيون كانوا قد أسسوا هنا مركزا تجاريا في مكان لم يمكن تحديده بعد ولعله شالة التي تقع على بعد كيلومترين من البحر بالضفة اليسرى للواد والتي اكتشفت بها بقايا آثار رومانية — وقد كتب كودار Godard في كتابه «وصف وتاريخ المغرب» المطبوع في باريس سنة 1860 : «إن كل احتلال يحلوله مصب أبي رقراق كأحسن موقع بالشاطىء».

وبينما صارت شالة القديمة في بداية القرن الحادي عشر عاصمة للقبيلة البربرية بني إيفرن فقد أسست مدينة سلا سنة 1006 على الضفة اليمنى للوادي من طرف عشارا، قائد بني أمية.[1] وبعد ذلك بقرن ونصف أسس السلطان الموحدي عبد المومن على صخرة بالضفة اليسرى مشرفة على المصب، حصنا أسماه رباط سلا الذي صار فيما بعد رباط الفتح والذي هو اليوم قصبة الوداية. وقد عمد حفيده يعقوب المنصور إلى رسم تصميم طموح فبنى مدينة حول الحصن كدليل ساطع على قوته وإيمانه وأحاط مساحة شاسعة بالأسوار كانت القصبة تكون الزاوية الشمالية الغربية منها. كما شرع في بناء مسجد عظيم لما يتم بناؤه. ولاتزال الصومعة العظيمة لهذا المسجد، صومعة حسان ماثلة للعيان حتى ولو لم يكن بامكان المستقبل القريب أن يستجيب لآمال مؤسس مدينة الرباط. فحرم المدينة المدار بالأسوار العظيمة، بقي مخيما عسكريا ليس إلا، وغالبا مايكون فارغا، ويكون من حين لآخر مجمعا للمجاهدين الموحدين حيث يجتمعون فيه من أجل الجهاد.

أما سلا فكان حظها أحسن حيث أقبل المرينيون على توسيعها وتجميلها حتى صارت شيئا فشيئا مركزا نشيطا للتجارة والاعمال. ويشير مارمول في هذا الصدد : «إن مدينة سلا منذ القرن الثالث عشر كانت الميناء الأكثر غنى ويسرا لمملكة فاس، فتجار مدن بيزوجنوة والبندقية كانوا يشترون من مدينة سلا الأصواف والجلود والثياب والزرابي والعاج والشمع وعسل مكناس وبالمقابل يبيعون القماش والأشياء المصنوعة». ولم يخل هذا الازدهار من إثارة الأطماع نحو المدينة فقد تنازع الاستيلاء عليها المرينيون والمسيحيون. ففي سنة 1260 استولى عليها الاسبان وخربوها وسبوا نسائها. واستولى عليها السلطان أبو يوسف بدوره بعد أن حاصرها أربعة عشر يوما. ولشكر النعمة الالاهية عليه كان يعمل بيديه لسد الثغرة المفتوحة في السور الغربي والتي سمحت للعدو بالدخول إلى ساحة المدينة. وقد بنى بعد ذلك ورشة سفن حربية وكان مدخلها هو الباب الأثري المفتوح في الواجهة الشرقية للمدينة المسمى «باب المريسة»[2] والذي يعرف اليوم بباب الملاح.

وكان التقليد المحلي يقتضي أن يدخل البحر إلى داخل المدينة. وإذا لم يكن

---

(1) الربائد البربرية المجلد 1 ص 255 مذكرة 1.

(2) هنري تيراس، أبواب ترسانة سلا، هسبريس 1922. الصفحتان 357 و 371.

البحر أو النهر يعوم على قدم أسوار المدينة فيمكن الافتراض على الأقل بأن الماء كان يصل إلى تجهيزات الميناء الداخلي بواسطة ممر مائي. وعلى كل حال فقد اعطى تيراس وصفا لايتطرق إليه الشك للباب البحري «باب لمريسة» المتميز بعظمة الأقواس والاتجاه المنحرف لكوة رمي القذائف، هذا الاتجاه الذي سببته ضرورة حصر القناة التي كان عليها أن تربط مرة ثانية الواد بالميناء الداخلي.

وقد اصيبت الضفة اليمنى للواد تبعا لمسلسل طبيعي وخلال عدة قرون بالترمل ماجعل من الصعب ولو على السفن الصغيرة الدخول إلى الميناء الداخلي لسلا. واصبحت ظاهرة الترمل امرا واقعا في القرن الثامن عشر، الفترة التي أسس فيها الحي اليهودي الملاح، في المكان الذي كانت فيه الترسانة.

وفي هذا الصدد كتب شوني في نهاية القرن الثامن عشر بكتابه المنشور في باريس سنة 1787 تحت عنوان : «بحوث تاريخية حول الموريسكيين» مايلي : «أن وادي سلا يكون في الماضي ميناء عظيما حيث كانت تدخله البواخر الكبرى، لكن الوادي والجرف الرملي المحيط به ترملا بقوة مما جعل من الصعوبة بمكان على البواخر التي تزن 200 طنة، الدخول إليه إلا بعد تخفيفها من مدفيعتها وصوابيرها».

وقد ذكر تيراس بأنه من باب لمريسة كان المرينيون يعلنون الجهاد. وفي سنة 1279، اعطى أبو يعقوب ابن أبي يوسف أوامره، بقصد الاغارة على الخزيرات، بتجهيز سفن سلا وسفن المدن الشاطئية الأخرى وجمعها في سبتة وطنجة وسلا — وقد جهزت سبتة بمفردها حسب ماذكره ابن خلدون خمسة واربعين سفينة [3] بينما لم يمكن لمدن طنجة وأكادير وسلا وانفا والدار البيضاء ان تجهز بمجموعها سوى خمسة عشر. وحسب نفس المصدر أنه في سنة 1285 كانت مساهمة سلا وحدها في الأسطول تتمثل في ست وثلاثين سفينة حربية، تحت أوامر أبي يعقوب.

ولم تكن سلا مسرحا لأي حادث مهم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فعلاقاتها التجارية مع أوروبا كانت تنمو بصورة ضعيفة نظرا للحالة الشاذة للميناء البعيد في الجنوب بالمقارنة مع إمكانيات الملاحة المتداولة في هذه الفترة، لكنها صارت منتظمة تقريبا ابتداء من القرن السادس عشر. إلا أن هذه المبادلات التجارية

---

(3) ابن خلدون ، تاريخ البربر المجلد الرابع، الصفحة 101.

العادية لم تكن تمنع من ممارسة القرصنة. وعلى كل حال لم تكن سلا حتى بداية القرن السابع عشر معقلا خطيرا جدا للقراصنة. وقد تحدث «بول دان» عن بعض السفن الصغيرة للقرصنة التي كانت تملكها سلا وَقلّل من شأنها.

غير أن الشواطيء المغربية كانت فضاءً يتردد عليها القراصنة من جميع الجنسيات، فالمعمورة التي تبعد بعشرين ميلا **شمال سلا** على مصب واد سبو «المهدية حاليا» كانت على الخصوص معقلا للقراصنة النشيطين والذين كان المسيحيون فيهم أكثر من الأتراك. وكانت جزيرة الصويرة وأسفي وانفا، بدورها تؤوي مغامري البحار العالية حيث كانوا يعترضون ممر السفن الشراعية الكبرى المحملة بالسلع والعائدة من امريكا أو الهند. وكانت اطقم السفن الماسورة توهب أو تباع للولاة الذين تكيفوا مع القرصنة الممارسة على شواطئهم.

وهكذا ففي الوقت الذي كان الموريسكيون يتوافدون على المغرب من اسبانيا كانت القرصنة في بداية تنظيمها وفي سلا على الأقل يمكن القول بأنها لم تكن تمارس الا بصورة جد محدودة.

وكان ميناء سلا الذي كانت تفصله عن مضيق جبل طارق مسافة ضعيفة نسبيا والذي يعتبر مرفأ طبيعيا لطرق المواصلات البحرية الكبرى يتمتع من هذه الناحية بوضعية جغرافية جد ممتازة. وهكذا كانت لقراصنته دوما وسيلة الترصد لمواجهة السفن المارة من الغرب إلى الشرق أو من المحيط الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط.

وبالمقابل كان هذا الميناء المترمل صعب الدخول إليه، فقد كان الجرف الرملي يعوق مصب الواد. وكانت الأمواج العالية تتكسر بقوة على هذا الحاجز الطبيعي مكونة بذلك سدا لايقهر. فمداخل الميناء القابلة للملاحة والمنعطفات ذات الاتجاهات المتحولة باستمرار كانت ضعيفة العمق بحيث لايتعدى في حالة الجزر قدما ونصف وفي حالة المد احد عشر أو اثنا عشر قدما. وكل المؤلفين العرب أو الاوروبيين اكدوا على خطورة هذا المرسى والمخاطر التي يتعرض إليها الداخل إليه أو الخارج منه.

وقد ذكر الادريسي في وصف افريقيا واسبانيا : «إن السفن التي ترسو بسلا لاتلقي بمرساتها قط بالمرسى، لأنها كانت مكشوفة جدا، بل أنها تدخل للواد دائما مع مرشد، نظرا للصخور التي تعوق المصب واللفات التي يكونها «وخلال فصل

الشتاء كثيرا ما يكون الميناء مسدودا. وذكر شنيي Chénier في هذا الصدد : «لايمكن استعمال ميناء سلا إلا في الفصول الجميلة والتي تبتدىء من أبريل وتنتهي في آخر شتنبر. أما في فصل الشتاء حيث يبدأ الجرف الرملي في التحول من مكان لآخر فيصبح الاتصال بالمدينة بالغ الصعوبة».

إلا أن هذه العوائق كانت ذات فوائد بالنسبة للقراصنة ويعرض بول دان P.Dan هذه الفوائد بوضوح وجلاء : «أن العمق الضعيف لهذا الميناء كان يحتم على قراصنة سلا استعمال السفن الخفيفة الحمولة مثل الأشرعة المربعة. فإذا كانوا يخسرون من جانب حيث كانوا لا يملكون السفن الكبرى مثل التي كانت للجزائر وتونس فإنهم يغنمون من جانب آخر عن طريق سرعة سفنهم وخفتها الحصول على قنص كثير».

ومن جهة اخرى فصعوبات الدخول للميناء والغواطس المصغرة للسفن كانت مفيدة جدا للقراصنة فهؤلاء حينما كانوا يجتازون الجرف الرملي فإنهم يتحررون من كل خوف وقلق من سفن العدو التي تسعى لملاحقتهم.

ومن الملاحظ في هذا الباب ان أهم موانىء القراصنة بالمغرب كسلا كانت موانىء ذات جرف أو تقع على مصب نهر، مايجعل استعمالها خطيرا بصورة دائمة، وهكذا كان الحال بالنسبة للمعمورة (المهدية) المحمية بالجرف الخطير لواد سبو والعرائش على مصب اللكوس وتطوان على ريو مارتين. فجوابوا البحار كانوا يبحثون بصورة عامة على موانىء صعبة المراس كملاجىء توفر لهم عنصرا ثمينا لامنهم.

وبينما كانت أصيلا والعرائش والمعمورة تحت سلطة المسيحيين فقد بقيت سلا النقطة الوحيدة على الشاطىء الأطلسي في مامن من سيطرة البرتغاليين والاسبان وهكذا كانت الميناء المؤهل كليا ليصبح «مهدا لقراصنة المغاربة» وكان توافد الموريسكيين من اسبانيا قدرا **لازبا** ليقرروا مصيره.

وفي بداية القرن السابع عشر، استمرت المدينة الواقعة على الضفة اليمنى للواد وسكانها الورعون إلى حد التزمت المتطرف، تواجه المسيحيين، ونظرا لوقوعها تحت نفوذ الأولياء، فقد كانت تعيش في حالة من الاستقلال النسبي تجاه السلطان. إلا أن التجارة فيها كانت مزدهرة وقد ذكر مويط MOUETTE بهذا الصدد : «ففي هذه المدينة كان يقطن التجار الأكثر غنىً من اليهود والموريسكيين.»

وعلى الضفة اليسرى كانت مدينة يعقوب المنصور حسب ماذكره P.Dan :
«في حالة يرثى لها، قليلة السكان من الموريسكيين والعرب فلم يكن يرى داخل أسوارها سوى الحدائق وحقول البقول والشعير التي كانت تعيش خمسمائة نسمة. وكانت قصبة عبد المومن التي تشبه في سعتها مدينة صغيرة تستعمل كإقامة لحامية قليلة العدد وقائد لايتوفر على سلطة ولا على أبهة» وكان سيدي محمد العياشي الذي بزغ نجمه في سماء مدينة سلا يتمتع في جميع أنحاء المنطقة بنفوذ واسع وراجح على العموم في مواجهة نفوذ السلطان.

وكان الموريسكيون الذين استقروا بمدينة سلا منذ بداية القرن السابع عشر من أصل **الهورنتشوس الوافدين من مدينة استرامادور**.

ولاخلاصهم للديانة الاسلامية كانوا يفضلون التكلم باللغة العربية، وكان البعض منهم يجهل اللغة القشتالية. وبما أنهم سبقوا قرارات الطرد فقد أمكنهم أن يحملوا أموالهم وأمتعتهم لمقرهم الجديد. وكان **الهورنتشوس** يكونون عشيرة ذات امتيازات خاصة باسبانيا حيث كان لهم حق حمل السلاح باعتراف من فيليب الثاني مقابل أداء ثلاثين ألف دوقة. وبما أنهم محاربون متعاطون للسلب ومزيفو نقود، فقد حملوا معهم إلى مقامهم الجديد غريزتهم في السيطرة وحب الاستقلال، يعينهم في ذلك الغياب الكلي لأي إلتزام بأحكام القانون أو الضمير. ولذلك كان عليهم أن يلعبوا الدور الرئيسي في المدينة التي تبنوها.

وقد أظهر السلطان عبد الملك، الذي كان يقتبل المسيحيين الوافدين على مملكته بكل طيبوبة، ارتياحه الكامل لاستيطان المهاجرين الأولين حيث خولهم **حق الاستيطان** بمدينة سلا بنفس الرعاية والامتيازات التي كان يحظى بها رعايا البلاد.

وقد قر عزم **الهورنتشوس** لاختيار سكناهم على الضفة اليسرى إذ فكروا أنهم سيكونون مرتاحين داخل المخيم العسكري أكثر من بقائهم إلى جانب الورعين المتعلمين والبورجوازيين الهادئين لمدينة سلا الواقعة على الضفة اليمنى للواد. وأخذوا في إصلاح الدور الأقل خرابا واستقروا بها مع عائلاتهم. وبعد ذلك استخدمهم السلطان مولاي زيدان (1608) لبناء أسوار المدينة، وخولهم تنظيما عسكريا وأعطاهم موقعا بالضفة تحت القيادة المرنة لقائد شريفي.

بيد أنه في سنة 1610 أخذ ضحايا قرارات الطرد يتوافدون على مدينة سلا

وكانوا يعرفون بالموريسكيين في إسبانيا وبالأندلسيين في المغرب أو بالغرناطيين أو غير ذلك حسب المدينة التي ينتمون إليها. وبصفة أساسية كانوا يفدون من سان لوكار وقادس والبعض منهم قد احتفظ بإسلامه والبعض الآخر كان قد حمل على اعتناق الديانة الكاتوليكية عن طريق القوة. وكان هؤلاء كثيرا مايعودون للاسلام. وكان البابوات مضطرين لمسامحة المنشقين عن المسيحية ذوي الأصل الاسلامي (نشرة 12 دجنبر 1530). والحقيقة أن الايمان الضعيف لهؤلاء وأولئك لم يكن يوحي بالثقة فيهم من طرف المسلمين الخلص لمدينة سلا. وقد كان هؤلاء ينعتونهم جميعاوباحتقار «بمسيحي قشتالة».

وكان الموريكسيون يتكلمون عادة اللغة الاسبانية، وكثير منهم كان قد نسي لغته الأصلية العربية. وهكذا كانوا يتميزون عن الهورنتشوس الذي كانوا يعتبرونهم في درجة دنيا. وقد اضطر الموريسكيون بمقتضى مراسم الملك فيليب الثالث الى التخلي عن جميع ممتلكاتهم بإسبانيا — وقد حطوا رحالهم بإفريقيا معدمين من أي مورد، شديدي التطلع للانتقام من الاسبانيين وإعادة تكوين ثروتهم الضائعة. وكان الموريسكيون المسيحيون محميين بصورة خاصة من النفي الذي تعرضوا له والذي كانوا يشجبونه بشدة وبدون جدوى مدعين أنهم كانوا مسيحيين يعيشون في إطار قانون الكنيسة ولا يمكن مع ذلك إبعادهم إلى افريقيا.

وقد رحب مولاي زيدان بالوافدين الجدد وكان يعمل على استقبالهم من طرف القائد الحاكم لموقع القصر. وقد استقر الأندلسيون بجوار مواطنيهم تحت أقدام القصبة التي سبق أن سكنها الكثير من الهورنتشوس.

وهكذا تكونت على الضفة اليسرى لأبي رقراق جالية أجنبية ارتبطت رغم الفروق العميقة التي تميز أفرادها، بتقاليد مشتركة عاشتها في اسبانيا وبنوع متساو من عدم الاهتبال بالأهالي المغاربة. ولغيرتها على استقلالها فقد تم اندماجها برعايا البلاد بصورة بطيئة.

وقد كان من بين النتائج الأولى لهجرة الموريسكيين من إسبانيا والذين يمكن تقدير عددهم من ثلاثة إلى أربعة آلاف مهاجر، إنهم بعثوا الحياة في مدينة يعقوب المنصور. رباط الفتح، أو سلا الجديدة مقابلة مع سلا القديمة التي كانت تنعت بها المدينة على الضفة اليمنى. وقد أنجزت أشغال مهمة بالحرم القديم للموحدين.

وهكذا سد الموريسكيون الواجهة الجنوبية ببناء سور ينطلق من باب الحد إلى النهر وفي نهاية الشمال الشرقي شيدوا برج سيدي مخلوف.

لكن منفيي فليب الثالث لم يكن بإمكانهم الارتياح لأعمال هادئة بل كان عليهم أن يجدوا وسيلة لارضاء طموحاتهم وشهواتهم الجامحة وذلك لتهدئة ضغينتهم نحو الاسبانيين. فكان سلاحهم القريب هو اللجوء للقرصنة.

فثروات الهورنتشوس وروح المقاولة لديهم، والحماس والثبات العنيد للأندلسيين والاستعمال الحصيف للمنشقين وتشغيل الاساري المسيحيين بدون رحمة لمساعدة الأهالي المغاربة في حمل السلاح. كل ذلك سمح لهؤلاء الذين جمعهم التاريخ تحت إسم السلاويين أن ينجزوا تنظيما حقيقيا للقرصنة مالبثت أن كانت نتائجه مدوية. وكانت الضحايا الأولى هي السفن الاسبانية وتلتها فيما بعد السفن المسيحية والتي صارت فريسة سهلة أمام قراصنة سلا الأشداء.

ولنلاحظ منذ الان أن المغامرين المشهورين بالسلاويين او قراصنة سلا كانوا يقطنون داخل المدينة الحالية للرباط ــ لا في مدينة سلا. وهؤلاء نسميهم ليومنا بدقة بقراصنة الرباط ــ وكان اختيار استقرار القراصنة بالضفة اليسرى لأبي رقراق تفرضه ظروف وعوامل جغرافية محضة فالاعماق الطبيعية كانت تحاذي الشاطىء الصخرى بجانب الرباط بينما شعب واسع في نمو مستمر يفصل الواد عن الميناء المريني القديم لمدينة سلا.

وهكذا كان يتمركز النشاط البحري بصورة حتمية على الضفة اليسرى وفي هذا الصدد يعطى شنيي تدقيقات مفيدة : «أحسن رسو لهذا المرسى هو في جنوب ا لواد من جانب الرباط ــ بحيث تكون السفينة واقعةبين منارة مسجد القصر ومنارة حسان واضعة هذه الأخيرة في شمالها. ويجب الاحتياط من الحبال لأنه كانت توجد في عمق هذا الشاطىء كمية كبيرة من مراسي مهملة».

اذن ففي الميناء الحالي للرباط كانت ترسو سفن قراصنة القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وقد قويت القرصنة السلاوية بمدد ثمين تمثل في وصول قراصنة المعمورة التي سقطت بأيدي الاسبان سنة 1614. وقد اقتبل القراصنة المختلفوا الجنسيات

والمطرودون من مخابئهم بمصب وادي سبو بحفاوة كبيرة من طرف إخوانهم الأندلسيين. وهكذا استقر القراصنة الجدد عند أقدام القصبة قابلين بكل امتنان سيطرة وحكم الهورنتشوس.

ولكي يقوى هؤلاء من نفوذهم وسلطتهم أمام أعين الأهالي فقد نادوا على جميع الموريسكيين اللاجئين بمختف أنحاء المغرب للالتحاق بهم. ومن جهة أخرى فالمنشقون من جميع الجهات الذين استهواهم حب الأغارات وطعم الربح اتوا شيئا فشيئا للالتحاق بلاجئي اسبانيا وهكذا امتلا «معسكر النصر» بأفراد مشبوه في اخلاقيتهم بعيدين عما كان يطمح إليه يعقوب المنصور لبنائه من ازدهار واشعاع.

وحينئذ اخذت سلا الجديدة الطابع الرائع لمدينة قرصنية بسكانها المبرقشين اللغطين والمكونين من مغامرين أشداء غير عابئين بمنطق الاخلاق ويتحدثون برطانة تختلط فيها جميع لغات المسلمين والمسيحيين من عربية واسبانية وغيرها. وكانت ضوضاء الخصومات تدوى ليلا ونهارا في المخازن والمقاهي المغربية الكثيرة العدد والمفتوحة من طرف متاجرين ماهرين». والفخر كل الفخر لمن له القدرة من القراصنة على شراء أكثر مايمكن من الثياب الفاخرة ولمن هو اعرف بمخالطة الحانات وأماكن اللهو الأخرى. أما هوايتهم المفضلة فهي انفاق المال. في أرضاء شهوات بطونهم «كما أشار إلى ذلك بول دان (P.Dan) وحول عالم التهريب هذا كان الهورنتشوس يمارسون سلطة تزداد شراسة يوما عن يوم، معنفين بدون مداراة ومرهبين للتجار اليهود والأقلية البورجوازية من الأهالي التائهين في زقاق المدينة الصاخبة.

وفيما كانت تتأكد قوة الهورنتشوس كانوا يتحملون بعناء طاعتهم للسلطان رغم أنها كانت ضعيفة. وكانت الضريبة، الممثلة في 10 بالمائة من غنائمهم، والمؤداة إليه ممقوتة لديهم بصورة خاصة. وعلاوة على ماتمثله هذه الضريبة من تقليص لارباحهم فقد كانت ترمز إلى نوع من الوصاية التي كان الهورنتشوس يعملون بفارغ صبر للتحرر منها.

وفي سبيل هذه الغاية فقد تقربوا من الولي سيدي العياشي، وبمساندة هذا الولي الذي يعتبر عدوا لدود اللامبراطور فقد شعزوا بقوتهم واعلنوا ثورة مفتوحة ضد السلطة الشريفة. ففي سنة 1627 استولوا بالقوة على القصبة وسدوا أبواب المدينة في وجه السلطان.

وبما أن الهورنتشوس اصبحوا أسياد المدينة وبدون منازع فقد أسسوا حكومة مستقلة على طريقة الهورنتشوس وهي نوع من جمهورية أوليكـارشية يسيرها ديوان مكون من اثنى عشر عضوا يجتمعون بالقصر. وكان الرئيس يحمل لقب «الاميرال الكبير» وخلال شهر ماي من كل سنة كان ينتخب قائدان احدهما للقصر والآخر لسلا القديمة. وكانت الخزينة تستقي أموالها من مداخيل الجمرك وضرائب الميناء ومن رسوم الصيد التي لم تكن بالطبع تؤدي للسلطان. وكان كل ما يقدمه حكام جمهورية سلا للشريف كل سنة يتمثل في رقيق متنوع واجمل البضائع التي يستولون عليها في البحر كقراصنة.

إلا أن الهورنتشوس لم يكونوا يهملون السهر على آمنهم وبصفة خاصة قووا القصر مركز اقامتهم وعزموا على عدم السماح لأي كان باخلائهم منه.

ومن خلال وصف سلا لجان أرمان مصطفى Jean Armand Mustapha «يوجد برج قوي لحماية مدخل الميناء الذي بناه الأندلسيون وأحاطوه بقطع من حديد مركز كانوا قد حصلوا عليه من الهولنديين» وعلاوة على ذلك فالقصر متماسك باسس قوية وجدد تحصينه بخنادق تحيط به. وقد وصف مويت (Mouette) من جهته تحصينات قلعة القراصنة، «تتوفر المدينة التي تقع بالشاطىء الجنوبي على قصرين محاذيين للبحر وواقعين على جبل صغير والقديم منهما يقع على ضفة الوادي والجديد الذي شيد من طرف مولاي عرشي لايبعد عن القديم إلا قليلا ويتصلان بينهما بسور كبير يتوفر على اثنين وثلاثين مدفعا منصوبة في غير انتظام. ويوجد تحت القصر القديم حصين صغير يقع على مصب الوادي، وتوجد به خمسة مدافع (ثلاثة من حديد واثنان من نحاس تتراوح قوتها مابين 6 و7 كيلوات من الكور) وكانت مهمة هذا الحصين تسهيل فرار القرصنة حينما يتابعون من طرف المسيحيين».

وفي السنوات الأولى التي تلت تأسيس جمهورية القراصنة كان **الهورنتشوس** يكونون بمفردهم أعضاء الديوان. وفي هذا الصدد يقول بول دان (P. Dan) «ان مدينة (سلا) مأهولة بمورسيكيين واتراك حقيقيين و **منشقين**، دون أن تكون لهؤلاء وأولائك أية مهمة سواء داخل الديوان أو في المدينة خوفا من أن يصبحوا أقوياء بصفة تجعلهم ينحون الاندلسيين إلى درجة أن كل ماكان يمكن أن يطمحوا إليه هو الحصول على لقب رئيس أو قبطان بإحدى سفن القرصنة».

إلا أن الأندلسيين الذين كان عددهم يتزايد يوما عن يوم كانوا يتحملون على مضض سيطرة واستبداد مواطنيهم. وكانوا يتألمون من جراء أبعادهم عن الحكومة وبخاصة الاحباط الذي يشعرون به من حرمانهم من الأرباح التي تجنيها المدينة من مختلف الجبايات. وقد طالبوا بإلحاح بأخذ نصيبهم في الادارة والاستفادة من مداخيل الجمرك، لكن **الهورنتشوس** رفضوا طلبهم مدعين ان موارد المدينة المغربية كانت مخصصة لاصلاح وصيانة القصبة والاسوار اللازمة للأمن المشترك. ولم يكن هذا التبرير كافيا لتهدئة النفوس. فالاضطرابات استمرت، وكانت الأحداث الدامية تنشب في كل لحظة بين فئات السكان المتناحرة.

وفي سنة 1630 كان ضيوف القصبة المتكبرون والسكان الفقراء للمدينة السفلى في حالة حرب مدنية. وقد ناصرت مدينة سلا القديمة، التي تقترب انتماءاتها الدينية أكثر من **الهورنتشوس** أصحاب القصر ضدا على الأندلسيين. وقد لزم تدخل سفير انكلترا هاريسون «Harisson» لوضع حد لهذه الفتن التي كانت تمزق ألفة الأخوة الأعداء لمدينة سلا. وفي ماي 1630 أبرم اتفاق بين الخصوم على الأسس التالية :

1) ينتخب الأندلسيون لسلا الجديدة قائدا لكنه سيقيم بالقصبة.

2) يشتمل الديوان على ستة عشر وجيها منتخبين بعدد متساو من لدن القصبة وسلا الجديدة.

3) توزع الموارد الآتية من البحر ورسوم الجمرك بين القصبة وسلا الجديدة بكامل المساواة.

وبما أن سلا القديمة احتفظت بإدارتها الخاصة فقد تكونت ثلاثة تجمعات متميزة يتمتع كل واحد منها باستقلال تعاقدي، القصبة وسلا الجديدة (الرباط) وسلا القديمة. وذلك ماكان يمكن ان يدعى «بالجمهوريات الثلاث لأبي رقراق».

وفي الواقع فقد بقيت القصبة المقر المركزي لجمهورية سلا الموريسيكية ومارست حكومتها دوما سلطة راجحة وبصورة تقريبية على مجموع مدن الضفتين.

وكان اتفاق 1630 عابرا. فقد بقي **الهورنتشوس** والأندلسيون متفرقين وكانت مظاهر الاخلال بالنظام تتجدد بدون انقطاع. واستغلالا لهذه الوضعية حاول الولي سيدي العياشي سنة 1631 أن يصبح سيد القصر بحجة استعادة سلطة الشريف إليه،

وفي الحقيقة فقد كان بصورة خاصة يهدف إلى الحصول على ضريبة من لدن القراصنة. وقد تعرضت القصبة والسفن الراسية بالميناء إلى طلقات خمسة مدافع منصوبة على الضفة اليمنى. لكن هذا العمل العنيف لم يؤد إلى أية نتيجة حاسمة، وفي النهاية رفع الحصار عن سلا الجديدة في أكتوبر 1632.

وعرفت سلا بضع سنوات من السلم النسبي، والقراصنة بتحررهم من انشغالاتهم السياسية العادية، استغلوا ذلك لمضاعفة نشاطهم في البحر — وصارت القرصنة الصناعة الحقيقية لهؤلاء الذي كان يدعوهم بريام دي شالارد Priom de Chalard مفاوض لويس الثالث عشر **بروشلوا** Rochelois افريقيا.

لكن الهدوء لم يستمر طويلا في جمهورية سلا المشاغبة. ففي سنة 1636، انطلق الأندلسيون للهجوم على القصبة واستولوا بالقوة على الحصن بعد أن عانوا كثيرا من **نير** استبداد وخشونة جيرانهم. وقد طرد **الهورنتشوس** والتجأ رؤساؤهم إلى الجزائر وتونس. وباستيلاء الأندلسيين وسيادتهم على الميناء أخذوا يطمحون لاتمام انتصارهم بالسيطرة على سلا القديمة. ولسوء الحظ وصل الأسطول الانجليزي بقيادة رينسبوروك Rainsboroug أمام مدينة سلا في 3 أبريل 1637، وساعد العياشي وأنصاره مساعدة غير منتظرة ووضعت القصبة تحت نيران المدافع القوية، الطويلة المدى والمنصوبة من طرف الانجليز في سلا. وقد أتم تطويق بحري صارم آثار الحصار وظهر شبح المجاعة **ممابث** الشقاق في مخيم الأندلسيين. وتكون حزب قوى للسلم والبحث عن التفاوض بأي ثمن مع الولي.

وفي 30 غشت 1637، رفع الأميرال الأنجليزي مرساته واضعا حدا للحصار البحري. لكن العياشي استمر في محاصرة القصبة، ولم تفتأ الدسائس والمنافسات بين رؤساء القراصنة أن تزداد خطورة. ففي سنة 1638 اغتيل حاكم القصر القائد القصري، واعتقد السلطان أن الفرصة مواتية لاستعادة سلطته على سلا فأسرع بإرسال فريق من الجنود المغاربة تحت قيادة المنشق الفرنسي مراد الذي نجح في الدخول إلى القصبة. لكن سرعان ماأخذ الأندلسيون بمساعدة **الهورنتشوس** اللاجئين إلى سلا الجديدة في البحث عن استعادة القصبة من السكان الذين يقطنونها بدعم من الموقع الشريفي.

وبما أن الجمهورية الموريسكية أصبحت فريسة للنزاعات الداخلية الدائمة فقد كانت تحمل في طياتها جرثومة انهيارها. ولم يكن بإمكان أعدائها الطبيعيين من

سلاطين وأولياء علاوة على الدول الأوربية المهتاجة من عمليات النهب المتنامية للقراصنة، ان يفوتوا هذه الفرصة لاستغلال الصراعات الدائمة بين السلاويين لفائدة **خدمة** مخططاتهم.

وبينما كانت هولندا وإسبانيا وإنكلترا تستعد للتدخل ضد القراصنة إذا برئيس الزاوية الدلائية سيدي محمد الحاج بن أبي بكر الذي كان قد انتشر نفوذه بسرعة، يسير نحو سلا ويرغم الأندلسيين على رفع الحصار عن القصبة، وقد عاد العياشي بسرعة، بعد أن كان مبعدا في هذه اللحظة عن مسرح الأحداث، في 30 ابريل 1641، ومات مغتالا.

وبانتصار الدلائيين فقد شعروا بأنهم أقوياء لفرض سيطرتهم على مدينة القراصنة. وكان فتح ميناء على البحر ملبيا لآمال الولي القوى.

وفي سنة 1644 تركزت حكومة المدن الثلاثة لأبي رقراق بين يدي الابن البكر لولى الدلائيين سيدي عبد الله («أمير سلا») وقد خسر القراصنة القساة الجزء الأكبر من استقلالهم نتيجة لتشردهم وتضعضع وحدتهم. واستمر قيام جمهورية سلا **اسميا**، لكن حكامها لم يكونوا يمارسون سوى سلطة وهمية. حيث كان من اللازم لجميع أعمالهم المهمة المصادقة عليها من طرف «أمير سلا» الذي يتصرف باسم الولي الدلائي وتوطدت سلطة الزاوية بصورة تدريجية، وفي سنة 1651 صارت سلطتها مطلقة على جميع المنطقة.

وقد ضاعفت الدول الأوروبية القلقة، من مناوراتها البحرية مناوبة لها بإمضاء إتفاقات مع العمل على تنفيذها.

إلا أن **الهورنتشوس** والأندلسيين الواقعين تحت سلطة «سيد سلا» لم يكن لهم ذلك الاستقلال الذي كانوا يتمسكون به في قرارة نفوسهم وكانت تبعيتهم للدلائيين، برابرة ملوية العليا الجبليين الغلاظ تثقل كاهل نخوتهم كعرب وهكذا ففي سنة 1660، اتفقوا على تشجيع فتان جديد هو الرايس غيلان، العدو اللدود للدلائيين. وفي سنة 1664 وبعد طول حصار القصبة انتهى غيلان بالانتصار على سيدي عبد الله، لكن نفوذه كان عاجزا عن ردع الاحداث الشعبية التي **ما** برحت تندلع في مدن أبي رقراق. وفي يونيو سنة 1668 استولى السلطان مولاي الرشيد على الزاوية الدلائية محققا رغبته في بسط السلطة الشريفة على شمال المغرب، وبذلك وضع حدا

لتحركات غيلان. وكان تغيير السلاويين لحاكمهم إيذانا هذه المرة بنهاية استقلالهم. ولم ينقطع ولاؤهم منذ الآن للسلطان. وتحققت وحدة الامبراطورية المغربية — وولي عهد **روش لوا** (Rochelois) افريقيا.

وهكذا لم تكن سلا كمدينة مستقلة إلا لفترة قصيرة تجاوزت بقليل نصف قرن، وكان استقلالها جد نسبي خلال 27 سنة الأخيرة، وذلك حينما اضطرت الجمهورية الموريسكية للخضوع إلى سلطة الدلائيين. لكنها كانت الفترة الأكثر ربحية والأكثر خصوبة لعملها كأكبر مدينة للقرصنة المغربية.

وإن جمهورية قراصنة سلا التي اكتسبت شهرة بغيضة خلال القرن السابع عشر كانت تنتمي لأغلبية مدن القرصنة المتوسطية سواء منها البربرية أو المسيحية. وفي هذا الموضوع يذكر الكونت دي كاستري Le Conte de Castrei بالقاعدة التاريخية التي بمقتضاها ان كل المدن البحرية التجارية والتي تغار على ثروتها وقوتها كانت في كل الأمكنة والأزمان تطمح إلى استقلالها. ويحكي جانيل (Jeannel) من جهته بأنه منذ القرن الثاني قبل الميلاد «كانت **سليسيا** مقر امبراطورية حقيقية لقراصنة كونوا، حسب تعبير مومسى جمهورية للقراصنة». وكان ذلك أيضا قدر البندقية، وجنوة وليفورن ومدن التحالفات التجارية في القرون الوسطوية. وفي المغرب نفسه، كون قراصنة المعمورة، على بضعة أميال شمال مدينة سلا «جمهورية» تحت سلطة أكبر مغامريهم القبطان الانجليزي هنري مينورنج Henri Mainwaring لكن ببداهة مع وصايات بربرية وخاصة مع الجزائر التي كان شبهها بسلا واضحا للعيان.

وكانت السلطة في هذه الأشكال من الدول المستقلة بيد أجانب كالمسيحيين بالجزائر والاندلسيين بسلا. وقد ادخل الأولون اللغة التركية للجزائر بينما أدخل الآخرون اللغة الاسبانية لسلا. وكلهم لم يكونوا بمسلمين حنفاء. وكان قراصنة سلا والجزائر كجميع قراصنة الدول الأخرى رجالا غير ملتزمين لاايمان ولا بقانون. وكانت تبعية هذه الدول للسلطة المركزية هشة وضعيفة كلما كان القراصنة يشعرون برجحان قوتهم وكانت الضريبة المؤداة على الأسلاب تتقلص في حالات الرخاء إلى إن كادت تكتسي صبغة رمزية.

وكانت جمهورية سلا، التي تشترك مع ولاية الجزائر في ملامح متعدد، تحافظ على ربط علاقات وطيدة مع أختها المتوسطية. فقد كان قراصنة سلا والجزائر يتبادلون

زيارات متواصلة. بل كانوا يقومون بإغارات منسقة فيما بينهم. وحسب حاجتهم في البحر كان قراصنة الجزائر يدعون انتماءهم لسلا — وقد أدت التجارة في الغنائم إلى خلق مبادلات مثمرة ومفروضة فضلا عن ذلك من قبل الالتزامات التي تنص عليها بنود المعاهدات المبرمة مع الدول المسيحية. وهكذا كان السلاويون يبيعون للجزائر السلع التي لم يمكنهم ترويجها بالمغرب. وكان الأمر كذلك بالنسبة للجزائريين حيث يبيعون لسلا مايغنمونه من سفن الدول التي كان لهم معها نظريا حلف سلام.

وكان هذا التبادل المتميز وتشابه أنشطتهم يعمل على تقريب قراصنة الجزائر بنظرائهم المغاربة مادامت لم تنشب بينهم عوامل الفرقة والمنافسة وكانت العلاقات بين الأخوة البحارة معرضة للتدهور. وقد تفاقم هذا التدهور بصورة خاصة بعد استيلاء الاسبانيين على تطوان الذي كان يعتبرها الجزائريون ميناء تابعا لاقطاعتهم المتوسطية.

ومن الملاحظ في النهاية أنه في سلا كبقية المدن القرصنية الأخرى، لم تكن القرصنة عاملا ضارا بالازدهار التجاري بل على العكس من ذلك فقد كانت تكون حافزا له ومشجعا عليه. فضرورة ترويج السلع المغنومة وحاجة الاهالي لمنتجات الصناعة الأوروبية، توضح هذه الظاهرة التي تبعث على الاستغراب.

وهكذا ففي القرن السابع عشر وحسب رأى دي كاستري De Castrie فحجم الواردات كان ضخما. والسلع الاوروبية زهيدة الثمن بافريقيا مع مقارنته بأوروبا نظرا لوفرتها في افريقيا.

فهولندا كانت تصدر إليها القماش والثياب ومختلف أنواع التوابل وخيوط — الحديد والنحاس الأصفر والصلب واللبان والجاوي والزنجفر والمرايا الصغيرة والموسلين للعمائم ومن حين لآخر تصدر الاسلحة ومعدات الحرب.

بينما كان تجار من لندن، شركاء تحت اسم «هنري سان جون» وشركاؤه يتاجرون بصورة منتظمة مع سلا. فلقاء البنادق والخشب والصوف والذهب الأبيض التي يصدرونها كانوا يحصلون على الذهب وملح البارود والشمع والجلود.

وحتى فرنسا نفسها كانت لها علاقات تجارية متواصلة مع المدينة القرصنية، إذ كانت تصدر إليها قطنيات موريلكس وبرطاني وحريريات مدينة ليون والقماش والورق والصابون والخردوات، وتستورد الصوف والشمع والمعادن ونقود الذهب البندقية وريش النعام.

وكان الذي يتكفل ببيع حمولات السفن المأسورة، مهربون يهود في أغلبيتهم لاضمير لهم، استقروا بمدينة سلا. لقد كانوا قراصنة أسوأ من هؤلاء الذين يقرصنون في البحر. فقد كانوا يشترون البضائع التي ليست لها قيمة عند المسلمين بأبخس الأثمان ليبعوها ثانية بأعلى الاثمان في الاسواق الأوربية وخاصة في ليفورن وبيز وجنوة. ويحكي مويت (Mouette) بوضوح في هذا الصدد : «إن أغلبية القناصل والتجار يغتنون من غنائم القراصنة من المسيحيين هذه الغنائم التي يشترونها بأبخس ثمن ليصدروها إلى أوروبا حيث يربحون أربعة أضعاف فيها. وتتمثل أغلبية هذه البضائع المصدرة فيما بعد لأمريكا في الخمور وماء الحياة، والجعة والحمضيات والزيوت واللحوم والأسماك المصبرة».

وكان الضحايا الأشقياء، أسارى القرصنة يكونون بضاعة لتجارة لا إخلاقية لكنها تجارة مربحة. وكان مصير هؤلاء يثير الشفقة. ويحكي بول دان في هذا الصدد (P.Dan) : «لم يكن يطلق في مدينة سلا اسم السجن على الأماكن التي يوضع فيها الأساري بل يسمى بالمطامير، وهي كهوف كبيرة محدبة وعمقها عن سطح الأرض يتراوح بين اثنى عشر وخمسة عشر قدما. فهناك يسجن مجموع الأساري، ولم تكن لهذه الكهوف تهوية إلا من خلال كوى ضيقة. وكانت أبوابها تحرس طول الليل من طرف كثير من المغاربة». ولم يكن الأساري يخرجون من سجنهم إلا لاستعمالهم في الأشغال الشاقة. وكانوا يعبرون المدينة مصفدين في أغلالهم تحت النظر الشزر واللامبالى للتجار المسيحيين ولم يكن هذا اقل المظاهر غرابة لمدينة القراصنة.

وكان سوق العبيد ينعقد في سلا الجديدة على طول نهر أبي رقراق وفي أسفل القصبة. وكان بيعهم عموميا مثل بيع البضائع، وكان الأساري يبالغون في اظهار عاهاتهم وبؤسهم أملا في تقليل قيمتهم في أعين مشتريهم ورغبة في تخفيض مبلغ الفدية المحتملة الأداء لافتدائهم. وقد كتب بول دان في هذا الموضوع : «عندما تستمع لهؤلاء الأشقياء تجدهم كلهم مقعدين وشحاذين ومرضى في أرض هؤلاء القراصنة، فيما لو كانوا ببلادهم لامكنهم أن يطمحوا إلى رتبة قيصر أو اسكندر أو كريزوس أو كاطون.»

وقد كرس عدد كبير من رجال الدين التابعين لمختلف الكنائس، حياتهم لافتداء الأساري المسيحيين. ولتحقيق هدفهم هذا مع مالكي الأساري كانوا يلتجئون

إلى وسطاء تجار يتكلفون بالتفاوض حول مبلغ الفدية وطريقة أدائها. وإذا كان البعض من هؤلاء الوسطاء يكتفون بعمولات مشرفة، فقد كان هناك آخرون يستغلون المال المبعوث به لفائدة الأساري ويستثمرونه لصالحهم.

وهكذا كان القراصنة يصرون، ولوادي ذلك إلى تنازلات مفاجئة على المحافظة على تجارة مزدهرة ومصدر أرباح محققة لهم. ومن ذلك أنه أعطي الاذن لبناء كنيسة بسلا، لامن أجل التسامح الديني بل لأن تجار الرقيق كانوا قد وضعوا من هذا الاذن شرطا صريحا لمجيئهم لممارسة تجارتهم.

وقد ادى انهيار القرصنة الذي صاحبه انهيار جمهورية القراصنة إلى كساد التجارة — فخلال القرن الثامن عشر كان الأندلسيون القدماء قد قطعوا علاقاتهم بإسبانيا، واندمجوا تدريجيا مع الأهالي الأصليين واختفى مع ذلك الطابع المتميز للجالية الموريسيكية وأمكن القول بحق» بأن الحرية أدت إلى فقدان السلاويين لثرائهم.

وقد عمل إخفاق سيدي محمد (1757 — 1792) في محاولته لانعاش القرصنة الممارسة كأحد شؤون الدولة على التعجيل بانهيار سلا وغادر هذه المدينة التي صارت غير مضيافة للغرباء، أغلبية المارقين وجماعة الاشرار الذين استهوتهم القرصنة وإغراءاتها المنحرفة. كما عمل تأسيس مدينة الجديدة الذي ابتدىء فيه سنة 1760 بأمر من السلطان، تلبية لحاجيات القرصنة الحديثة، على القضاء المبرم على ميناء العدوتين. وفي سنة 1818 تخلى مولاي سليمان (1792 — 1822) بصفة رسمية عن الجهاد في البحر وألغي البحرية الشريفة. وقد وضع هذا المقرر حدا نهائيا لوجود سلا كمدينة قرصنية.

واحتفظت سلا الجديدة التي اخذت اسمها الأولى الرباط، خلال القرن التاسع عشر ببعض الأنشطة الاقتصادية. وقد كانت ثروات الهورنتشوس تعطى ثمارها بينما كان انهيار سلا يتفاقم. وكانت الرباط تستأثر بالتجارة الهزيلة للميناء، ماجعل المنافسة القديمة بين مدينتي أبي رقراق تزداد حدة واستحكاما وحتى يومنا هذا لم تختف كل آثارها ولهذا يشير القول المشهور : «حتى ولو صار الواد حليبا والرمل زبيبا فلن يصير الرباطي قط للسلاوي حبيبا».

الفصل الثالث

تجهيز أسطول القرصنة السلاوية وتنظيمه

البحارة المغاربة ــ القرصنة السلاوية قضية أجانب ــ مجهزوا القرصنة ــ أهمية دور المنشقين ــ توظيف الرؤساء ــ تجهيز سفن القرصنة الامبراطورية ــ تكوين الطاقم ــ الحياة على ظهر السفينة : التغذية وخدمة البحر ــ أداء المستخدمين وتوزيع الغنائم.

لعل الرعب الوراثي الذي يوحي به البحر للمسلمين أقوى لدى المغاربة منه عند بقية السكان الأخرين لافريقيا الشمالية. وقد عمل على تقوية هذا الشعور الفطري أمران الأول العظمة الخفية للمحيط الأطلسي والثاني يتمثل في طابع التمنع للشواطىء الأطلسية. فطوال الأيام تضرب الأمواج العالية الشاطىء وتسد الأجراف المهيبة العاتية موانىء الأنهار، وباختصار فالملاح الذي يجوب البحر جنوب رأس مارتيل، تكون اليابسة العارية من أي مأمن طبيعي بالنسبة إليه، خطرا ماحقا أكثر من ملجأ محتمل. والسكان البدويون الذين يعيشون في دعة ورخاء بالسهول الغنية الغربية للمغرب لاتستهويهم المخاطرة في عالم خطير يغمر بأمواجه الدائمة شواطئهم القاحلة المقفرة.

وكان سكان الرباط وسلا يعانون أمام بحر الظلمات رعبا لايمكن احتماله، ونظرا لوقوعهم تحت ضغط الخرافات فقد نذروا للبحر في كل الأوقات عبادة حقيقية، فمثلا لتهدئة جرف أبي رقراق يقوم رئيس ميناء سلا بذبح تيس أسود. وقبل ركوب البحر كان رؤساء السفن يؤدون صلوات شعائرية، ويقدمون هدايا للأولياء وإذا تعرضت سفنهم وأمنها لمخاطر البحر يقومون بتقديم ذبائح من الغنم أملا في تهدئة غضب الشيطان الأكبر.

إذن فالسكان المغاربة يمثلون في أعيننا بحارة ضعافا إذ أن معارفهم البحرية بدائية وممزوجة بأكثر الخرافات الفطرية الساذجة، وهم ضد استعمال الآلات الخاصة بقيادة السفينة من بيكار وخرائط ومقياس الزمن ولايمكنهم مع ذلك إدراك الملاحة التنجيمية ولايمكن لأحسنهم سوى استعمال الملاحة التخمينية التي تعتمد على المساحلة الصغيرة. وفي هذا الصدد كتب ابن خلدون «ان البحارة لايحاولون المغامرة في المحيط لأنه إذا غابت الشواطىء عن اعينهم فلن يمكنهم قط العودة إلى نقطة انطلاقهم» وإذا كان يوجد من بين المغاربة بحارة اكفاء في قيادة سفينة صغيرة او قارب نهري صغير، فعلى العكس من ذلك لانجد من بينهم إلا بصورة استثنائية من هو أهل لقيادة سفينة كبيرة في اعالي البحار. وهكذا حينما اضطر السلطان سيدي محمد ان يسند قيادة السفن الكبرى من أسطوله الجديد إلى رؤساء مسلمين، نظرا لانعدام رؤساء نصارى فان اغلبية هذه السفن كانت تتعرض للهلاك «بسبب عدم تجربة ربابنتها» حسبما قاله شنيي.

وكانت السلطات الشريفة تعترف دونما حرج بعدم ميول رعاياها للبحر إلى درجة الافتخار بذلك، وقد كان المولى اسماعيل كتب إلى لويس الرابع عشر بهذه

العبارة : «ان الله منح المسلمين امبراطورية الأرض بينما اعطى النصارى امبراطورية البحر» وكان عبد ا لله بن عائشة صرح كذلك لبونت شارترن «بالله لوكان العرب رجال حرب في البحر وامتطاء الاشرعة البحرية فلن نترك قرصانا انجليزيا واحدا يعبر مضيق جبل طارق، لكن العرب لا يعرفون سوى امتطاء الخيول» فلا يستغرب والحالة هذه، اذا لمْ يلعب سكان الرباط وسلا في القرصنه السلاوية سوى دور ثانوي. وقد شارك البعض منهم في اغارات لقراصنة القرنين السابع عشر والثامن عشر لكن ذلك، لم يتم الا ضدا على ميولهم الطبيعية. ولم يقبلوا خوض غمار البحر الا تحت ضغوط عناصر اجنبية عرفت كيف تستغل عاطفتهم الدينية المتأجحة للجهاد في سبيل الله وتعطشهم للغنيمة والأنفال.

اذن كانت القرصنة السلاوية قضية اجانب ووصف القراصنة بالسلاويين كما هو موجود في كتب التاريخ وصف غير ملائم حيث يعين لنا أفرادا لم تكن أغلبيتهم منحدرة من سلا.

ومن جهة اخرى فسيكون من العبث، البحث وسط السكان البحريين المسالمين للرباط وسلا عن احفاد حقيقيين لقراصنة القرن السابع عشر الاشداء — فبقاياهم الاخيرة المنتظمة في حرفة المرفئين والتي تمارس الان مهنة معدى الواد أو الصيادين القلائل الذين لايغادرون قط رصيف الميناء ليس لها أي قاسم مشترك مع السلاويين الذين طبقت شهرتهم الافاق وأرعشت المسيحيين أعمالهم الباهرة وصنائعهم المدوية.

ان الهورنتشوس الذين يمثلون العصابات القديمة في استرامادور كانوا مهيئين لممارسة النهب ايضا في البحر. وبوصولهم للمغرب وجيوبهم ملأى بالنقود الذهبية، صاروا لتوهم المنعشين الكبار للقرصنة وكان دورهم يتمثل في تجهيز سفن القرصنة حيث اتخذوا منها نشاطهم الرئيسي. وفي هذا السبيل كانوا يقومون بإصلاح السفن المسيحية المأسورة ويمضون عروضا لأوراش البناء المحلية ويبحثون بجميع الوسائل عن تأمين المساعدة الاجنبية لتجهيز اسطولهم بل وتسلم سفن مجهزة بكاملها.

واقتداء بمثل قراصنة الجزائر فإن المجهزين الهورنتشوس كانوا يشتركون احيانا، من حيث التحملات والفوائد لعلمياتهم، في الرؤساء الربابنة لسفن القرصنة. وكان من واجب المجهز سواء كان منفردا أو مشتركا مع غيره ان يدبر حاجيات السفينة

للاسلحة الحربية من بارود وذبال وكور المدافع وكذلك الأمر بالنسبة للمواد الغذائية والمعدات المختلفة.

وكان اليهود دائما هم الممولون الكبار للقرصنة البربريسكية وكانوا يعطون تسبيقات الأموال اللازمة للتجهيز. وكان يهود سلا بصفة خاصة يقيمون علاقات ودية مع اخوانهم المطرودين من اسبانيا والبرتغال واللاجئين بالبلاد الوطيئة. ووجدت هولندا نفسها منقادة عن طريق هؤلاء الوسطاء النشيطين، إلى مد مساعدة ثمينة لقرصنة سلا. واستفادت هي بدورها من هذه المساعدة فائدتين الاولى ما حققته من ارباح مهمة من عملياتها. والثانية تمثلت في الحصانة النسبية التي كانت تتمتع بها السفن الهولاندية بالمقارنة مع سفن الدول الأوربية الأخرى.

واضطلع الاندلسيون من جانبهم بدور مهم في القرصنة نظرا لذكائهم ومهارتهم في صناعة السلاح وغيرهما من المهن الاخرى التي اكتسبوها باسبانيا وفي غالب الاحيان كانوا يشغلون على ظهر السفن وظائف مامورين كحراس للطاقم وجنود. ورغم دروهم المتواضع هذا فقد كانوا بالنسبة للهورنتشوس مساعدين ممتازين.

الا أنه مهما يكن طموح واقدام مهاجري اسبانيا فإن الهورنتشوس والاندلسيين لم يكن بامكانهم لمفردهم ا لقيام بالعمليات الجريئة التي اكسبتهم شهرة قراصنة سلا لولا مساعدة الاختصاصيين الاوربيين.

إن السفن الشراعية التي كانت تكون معظم الاسطول السلاوي، والتي كانت قيادتها أكثر دقة من سفن التجديف المستعملة من طرف القراصنة البربريسكيين بالبحر الابيض المتوسط، كان من الضروري لها التوفر على ربابنة محترفين. وهكذا وجه نداء كبير للقراصنة الدوليين والمنشقين من كل طينة لتأطير القرصنة السلاوية بالاطر اللازمة.

ولا غرو وإن جميع قراصنة البحار وجدوا بسرعة حق الاستيطان في جمهورية القراصنة ومن هؤلاء بصورة خاصة قراصنة المعمورة الذين تقاطروا على سلا بعدما استولى الاسبانيون على مرفأ سبو سنة 1614. وان البعض منهم قد احتفظ بكامل استقلاله وتابع ركوب البحر لحسابه الخاص. ومن بين هؤلاء القرصان الهولندي الشهير كلاس كرتزكومبان (Claes Guerritz Compaen) والملقب «برعب البحار» والذي كان يرابط بمينائيه المفضلين : أسفي وسلا، لمدة طويلة.

ومن جهة اخرى، وكنتيجة مؤسفة ومأساوية للقرصنة البربريسكية فان البحارة الأوربيين الماسورين والمنشقين كانوا يمونون أسطول قرصنة سلا بالتقنيين الضروريين. وفي هذا الشأن كان الفارس اسحاق دي رازلي (Issak de Razilly) قد بعث بمذكرة إلى كاردينال ريشليو سنة 1626 يعرض فيها بمرارة مايلي : «منذ اربع وعشرين سنة، أسر أكثر من ثمانية الآف من أحسن بحارة المملكة ويوجدون الآن في افريقيا ونظرا الآلامهم يضطرون للانشقاق عن ديانة المسيح والعمل مع البرابر كربابنة للمجيء إلى شواطىء فرنسا وأخذ اقاربهم ومواطينهم». وفي نفس الفترة تقريبا كتب الاب فرانسوا من انجر (Angers) متألما «من فقدان ألفى بحار أسروا من طرف المغاربة والاتراك حيث مات نصفهم بالسأم والجوع والطاعون أو بتعنيفهم بمختلف الوسائل، وفي الحقيقة كان هذا أمرا سهلا. وقد أدت حالتهم السيئة بتركهم تحت رحمة هؤلاء البربر إلى أن التجأ الكثير منهم إلى حل لوضعيتهم هذه ويتمثل في اطلاع الاعداء وتزويدهم بالمعلومات الكفيلة بالحاق أفدح الأضرار بأوطانهم الغالية املا في التخفيف من أعبائهم وما كانوا يتعرضون له من عنت ومعاملات سيئة...»

وقد كان السلاويون ومن بعدهم السلاطين يخصصون جائزة كبيرة لاسر المسيحيين الذين يمكن استغلال مؤهلاتهم لقيادة سفن القراصنة كملاحين أو جنود مدفعية. ولم يكونوا يترددون في الاعتراف بهذه المؤهلات إلى حد قولهم : «ان مسيحيا واحدا يساوي 100 بربري في استخدام المدفع.»

وقد وظف القباطنة الأولون للسفن أو الرؤساء السلاويون من بين المحترفين في القرصنة البحرية والتحق بهم بعض الاندلسيين الذين يتقنون فن الملاحة وقيادة السفن وقد انشق منهم عن دينه أولئك الذين لم يسبق لهم ذلك. وهكذا يمكن اكتشاف أسماء قراصنة اسبانيين وفلا مان وانجليزيين وفرنسيين داخل أسماء الاسر التي اعتنقت الإسلام.

ومنذ بداية القرصنة السلاوية كان الرؤساء يمارسون مهنتهم بكل استقلال ولايخضعون لأية سلطة أخرى غير سلطة مجهزي سفنهم. وحينما تأسست الجمهورية الموريسكية حاول ديوان سلا أن يمارس رقابة على القراصنة التي تمده بأهم وسائل ومقومات وجوده. وليؤذن للرساء بركوب البحر، كان لزاما عليهم ولو نظريا على الاقل الحصول على اذن من الديوان لكنهم كثيرا ماكانوا لايعبأون بهذا الإجراء.

وتنص معاهدة 3 شتنبر 1630 المبرمة بين السلاويين ولويس الثالث عشر لأول مرة على مثل هذا الاذن وكان هذا حقنة خجولة لتنظيم القرصنة وتقنينها. والمعاهدة المبرمة بين سلا والبلدان الوطيئة سنة 1655 وهي تحدد المقتضيات السابقة لمعاهدة 9 فبراير 1651 كانت تنص على أنه علاوة على الاذن المسلم من طرف فخامة أمير سلا، يجب على جميع السفن السلاوية البحرية منها والتجارية الحصول على شهادة ممضاة ومختومة من طرف قنصل البلاد الوطيئة. ونص على مثل هذا البند في جميع المعاهدات اللاحقة والمبرمة بين السلاويين ومختلف الدول الأوروبية.

وهكذا كان القراصنة يتخذون إما سمة قراصنة أو سمة جنود، ولم يكن ذلك سوى قناع يخفى وراءه مزاجهم الدائم كمغامرين في المحيط.

وحينما فقدت سلا استقلالها الذاتي وخضعت للسلطة الشريفة صار السلاطين انفسهم مجهزين للقرصنة[1] وارتفع ونما عدد السفن الشريفة بصورة سريعة على حساب السفن المجهزة من طرف الخواص. وفي سنة 1690 وحسب ماذكره قنصل فرنسا في سلا جان بابتيست (Gean Baptiste) إنه من بين ستة سفن قرصنية كان ملك المغرب يملك اثنتين ويملك الخواص أربعة. وفي سنة 1698 كان المولى اسماعيل يملك ثمانية سفن من بين تسعة حيث كانت التاسعة ملكية خاصة لابن عائشة أميرال سلا. ومن جراء ذلك اضطر تجار سلا الذين كانوا أكبر المجهزين، إلى الامتناع عن تجهيز القرصنة نظرا لارتفاع النفقات وانعدام أي ربح منها، وكان السلطان يجد دائما المبررات للاستيلاء على الغنائم والأنفال.

وكانت السفن القرصنية الشريفة تجهز من طرف حاكم ميناء سلا الذي كان يقتطع المبالغ اللازمة عن حق الدخول أو الخروج من الميناء تلك المبالغ المؤداة عن جميع البضائع المتداولة. ولكن هذا الموظف كان يقلص بوقاحة من النفقات اللازمة لتجهيز سفن الملك بطريقة يرثى لها فحينما يكون لها من البارود والكورما يكفي لثلاث طلقات مدفعية يمكن القول بأنها حسنة التجهيز على ان النفقات كان يرفع حسابها للملك ويقال بأن السفن مجهزة خير تجهيز وهكذا كانت هذه المهمة مربحة. ولم يكن السلطان ينخدع بتحركات ولاته فلم يقلهم قط من عملهم هذا ولم يلزمهم باعطائه قناطير من الفضة ولكنه كان يؤدبهم بجلدهم ثلاثمائة إلى اربعمائة جلدة.

---

(1) الواقع أن ما يسميه روجر كواندر وقرصنة بالنسبة للسلاطين ليس إلا جهاداً في البحر. المترجم.

ويمكن تصور التجهيز النموذجي لسفينة قرصنية سلاوية من حيث مستخدموها كمايلي :

أ ــ **القيادة** : وكانت تتكون من قبطان (رايس) وملازميه وهم على العموم من المنشقين. ومع ذلك ففي السنوات الأخيرة للقرصنة حصل بعض الأهالي المغاربة على وظيفة رايس.

وكانت تناط بالقيادة من محترفين وتقنيين، المهام الكبرى للسفينة مثل الربان والنوتي المكلف بتوجيه الأشرعة والنجار والكلفاط والطبجي وجنود المدفعية وكذلك الجراح والكاتب عند الاقتضاء.

ب ــ **الطاقم** : ويتكون في معظمه من الأساري النصاري المختارين من بين الألف الى الالف وخمسمائة اسير المقيمين عادة بسلا. ومنهم من كان مكلفا بتوجيه الأشرعة والبعض الأخر وهم الأكثر معاناة وشقاء، يكونون جماعة المجدفين، بما أن أغلبية السفن السلاوية كانت تشتمل على مجاديف.

وكانت وضعية جميع الأساري تدعو للرثاء حيث كانت تمارس عليهم رقابة صارمة وقاسية من طرف الموريسكيين.

وفي الأطقمة القرصنية، كثيرا ما كان يوجد اندلسيون بينما لايوجد إلا نادرا بعض الأهالي المسلمين. ويعلل بول دان (P.Dan) ذلك بكون الاتراك والبربر ضعيفي المعرفة بفن الملاحة. ويؤكد روكفيل (Recqueville) في كتابه «علاقة العادات وحكومة الاتراك بالجزائر (باريس 1675) «بأن الأتراك رجال كسالى وقليلو الاعتياد على العمل وحينما يوجدون بالبحر لايقومون بأي عمل سوى التدخين والنوم وبدون النصاري لم يكن بامكانهم ممارسة الملاحة والقرصنة «الى درجة أنه إذا كانت الظروف تقتضي تقوية أطر السفينة كان يلجأ إلى تحرير عدد من الأسارى من قيودهم لمساعدة قيادة السفينة.»

وكان المبحرون المسيحيون محل ريبة مستمرة من طرف أسيادهم الأشداء وكان ممنوعا عليهم تحت طائلة الجلد، الاقتراب من البيكار وحاجز السفينة. وأكثر من هذا فقبل الدخول في أي معركة كان جميع المسيحيين يربطون من أيديهم وأرجلهم بالحديد والأصفاد خوفا من أي محاولة للتمرد والعصيان.

ولم يكن هذا الاحتياط غير ذي جدوى مثلا في 31 اكتوبر 1625 تمرد خمسة أسارى (أربعة انجليز وهولندي واحد) مبحرين على ظهر السفينة السلاوية القرصنية هارت دزير (Heart Desire) واصبحوا أسيادها بعد معركة دامت أربع ساعات والقوا من على ظهرها في البحر 62 تركيا. وأيضا ففي خريف 1636 قريبا من جزيرة «وايت Wight استطاع اربعة هولنديين وأمير انجليزي **جون دانتون** بمساعدة بعض الصيادين الذين كانوا قد أسروا بعد قليل، الاستيلاء على سفينة قرصنة سلاوية كان قد غادرها بعض أفراد طاقمها لمهاجمة سفينة صيد.

ج ــ **سرية المهاجمة** : وعلاوة على البحارة العاديين والطاقم كانت كل سفينة قرصنة سلاوية يبحر معها عدد من الجنود يتناسب مع عظمتها وطاقتها.

ولم يكن هؤلاء الجنود المدججون بمختلف أنواع السلاح حتى أنوفهم، من سيوف وفؤوس ومسدسات، يشاركون في الحياة العادية للسفينة، في فترة الملاحة الطبيعية، إذْ كان يحتفظ بهم، مثل الانكشاريين لقراصنة الجزائر، للهجوم على التجار الذين يختارهم قبطان القراصنة، فريسة له.

وكانت سرية المهاجمة هذه مكونة من الأندلسيين والأهالي المغاربة. وبوصفهم حملة سلاح فقط كان المسلمون المنحدرون من سلا يشاركون في القرصنة.

ولم يكن توظيف الأهالي في البحر سهلا. إذ كان على الموريسكيين المحترفين للتجنيد أن يتغلبوا على النفور الفطري للمغاربة من خدمة البحر. فيعظمون لدى البعض مزايا الجهاد وأمجاده ويغرون البعض الآخر بالغنائم المهمة للقرصنة.

وكانت للقبائل الحربية داخل البلاد حساسية خاصة لمثل هذه المبررات والاغراءات فتسارع لتكون القسط الأوفر من الجنود المبحرين، وأحيانا كان الوعد بالاعفاء من الضريبة كافيا لازالة أي تردد في وجه الذين يقبلون المغامرة في المحيط وتصميمهم على الاستشهاد أو الفوز بالغنيمة.

ومادامت القرصنة السلاوية تدر ربحا، فقد توصل الرؤساء بطريقة ما إلى تأمين حاجتهم اللازمة لحملة السلاح، لكن حينما أصبحت القرصنة مقننة من طرف السلاطين تغير الأمر وصارت لاتدر سوى الفوائد الهزيلة للذين يخاطرون بأنفسهم ويعرضونها لأخطار متعاظمة. وفي سنة 1705 عمل السلطان سيدي محمد على تجنيد ألف من عبيد تافيلالت وقبيلة آيت عطا كبحارة بدون أي تأهيل لسد حاجيات

أسطوله الجديد والذي كان يريد تجهيزه، لكن تبين عجز هؤلاء الجبليين، عن إطالة فترة احتضار القرصنة السلاوية مما ادى إلى إعفائهم بسرعة من مهامهم.

أما عدد المبحرين على ظهر السفينة فكان يناهز مائتين فأكثر. وهذا مايبين الظروف المعيشة الصعبة لهؤلاء البحارة فوق سفينة تتراوح حمولتها بين مائتين إلى ثلاثمائة طنة.

والقراصنة وهم يستسلمون لمعاناة البحر وكل أنواع الحرمان، لم يكونوا يحملون معهم علاوة على الأسلحة، إلا القليل من المواد الغذائية الضرورية لسد رمقهم أثناء رحلاتهم.

وكان الضباط والطاقم يتقاسمون على السفينة، نفس حياة التقشف بدون أي تمايز طبقي وكان نظام الاعتدال في المأكل صارما. ويذكر بول دان بأن الطعام العادي لرجال السفينة كان يتكون من بسكوت وخل وأرز وخضراوات أخرى وكان يأخذ كل واحد نصيبه يوميا.

وفي هذا الصدد يعطى ج هوست الدانمركي (في مذكراته عن المغاربة وفاس (1768 — 1760) بعض التفاصيل المفيدة حيث ذكر ان الرجال كانوا يتناولون الخبز والزيتون في الصباح وكانت وجبة الظهيرة تتكون من الخليع، وهو مزيج من لحم مقدد وشحم يتبل ويطبخ في الزيت ويصبر في قدور إلى حين استهلاكه، وفي المساء يتناولون الكسكس مع الحمص، وكان المشروب العادي يتمثل في الماء لكن حينما يصبح هذا أسنا كان القراصنة يلتجئون إلى تناول الخمر أوماء الحياة قياساً على أن الضرورات تبيح المحظورات.

وبالتأكيد كان العمل بالبحر قاسيا حيث يتكون من دورات حراسة لمدة ست ساعات بالتناوب. وبالرغم عن ندرة معلوماتنا في هذا الموضوع يمكن الافتراض بأن الانضباط كان شديدا والعدالة سريعة على ظهر السفينة. ويذكر هوست (Hös) أنه كان بامكان الرايس أن يوقع جميع العقوبات باستثناء عقوبة الاعدام التي كانت من اختصاص السلطان. هكذا كانت القاعدة العامة وعلى الأخص في فترة القرصنة الامبراطورية.

وفي فترة ازدهار القرصنة لم يكن الطاقم ولا الضباط يحصلون على أجرة محددة بل كانوا ماجورين بما يحصلون عليه من غنائم تشجيعا لهم على خوض المعارك لأنه

لوكانت لهم أجرة مضمونة لما جرؤوا على التطوع بحماس.

وكان التوزيع الجاري به العمل أيام الجمهورية الموريسكية للغنائم كما يلي :

ـــ 10% للسلطة المركزية (ديوان سلا)

ـــ ونصف البقية يأخذه المجهز (اوالرايس) لتعويض النفقات المرصودة للرحلة.

ـــ والنصف الباقي الذي يمثل 45% من الغنيمة يعطى لطاقم السفينة ياخذ منه الضباط والربان والطبجي والجراح ثلاثة أقسام والقسمان الآخران يختص بهما موجه السفينة والقلفاط وجنود المدفعية.

وفي حالة القيام بعمليات غير مثمرة لم يكن الطاقم ليحصل على شيء سوى ماناله من طعام وغذاء اثناء الرحلة.

وحينما أخذ السلاطين تحت إمرتهم تنظيم القرصنة تغيرت الوضعية المادية للقراصنة بصورة محسوسة فتطبيقا لسنة الرسول في الجهاد كان السلطان يختص بخمس الغنيمة وبصفته مالكا للسفينة يأخذ نصف البقية وجميع الاساري وكان الطاقم يقتسم النصف الاخر وينال عن كل اسير خمسين اوقية. ويختص الرئيس بملابس القبطان المسيحي ويترك ماعدا ذلك طعما سائغا لرجاله باستثناء البضائع.

وما لبثت القرصنة أن تدهورت مداخليها على عهد السلاطين، وأخذ البحارة يحصلون على اجرة زهيدة مابين أربعة الى ست دوقات وسترة قصيرة وبنطال. وهكذا صاروا مشمئزين من القرصنة وأخذوا يصرحون علنا : «ان مغامرتنا بحياتنا دون أي مكسب أو ربح لاتبرر أي تضحية منا» وكثيرا ماكان يفرض الابحار بالقوة على الأطقمة المتمردة.

وفيما يخص الرؤساء فقد اضطروا للاكتفاء بعطايا هزيلة عوضا عن انصبتهم الوفيرة من الغنائم سابقا. وهكذا كان الأمر وخاصة بعد توقيع معاهدة 28 ماي 1767 بين سيدي محمد ولو يس الخامس عشر.

وبمقتضى هذه المعاهدة التزم القراصنة بعدم أسر السفن الفرنسية ومقابل التزامهم هذا يحصلون على تعويض وكان قنصل فرنسا يقوم بدور المحاسب للعطايا المنقدمة من طرفه الى القراصنة المنتدبين لهذه المهمة. وكان كل رئيس يأخذ عن كل

حملة 4 أدرعة من القماش ورطل شاي وخبزتي سكر والكل داخل منديل من حرير.[2].

وهكذا سارت الملاحم البطولية للقرصنة السلاوية للاختفاء وفي خبر كان.



(2) جريدة القنصلية العامة لفرنسا بالمغرب المنشورة من طرف شارل بتر — الدار البيضاء 1943 ص 97.

الفصل الرابع

الرؤساء السلاويون

مراد الرايس، قرصان الجزائر ورائد القرصنة السلاوية، مرات الرايس المنشق الهولندي ــ عبد الله بن عائشة جنرال سفن سلا ــ علي حكم ــ فنيش ــ الروسي ــ معيز ــ محمد التاج ــ محمد الحاج قنديل ورؤساء آخرون ــ أو آخر القراصنة والرؤساء للقرصنة الامبراطورية.

إذا أردنا معرفة السابق لميدان القرصنة السلاوية فسنجده بلا شك هو القرصان الجزائري الاكبر مراد الرايس.

إذ غادر الجزائر سنة 1585 مع ثلاثة من سفنه الحربية الصغيرة بحثا عن الغنيمة في المحيط الاطلسي، وتوقف بسلا — التي كانت تنظم نفسها في مجال القرصنة. ثم سار في اتجاه جزر الكناري، وليدلل على جرأته النادرة فقد وصل الى مدينة لنزروت (Lanzarot) منتصرا بذلك على تردد ربان سفينته. ويدل مثل هذا السفر على روح مغامرة نادرة، سيما إذا عرفنا أن السفن التي رافقته هي سفن تجديف ولاتستعمل أشرعتها الصغيرة إلا حينما تكون الرياح مواتية.

لقد استولى مراد على مدينة لنزروت هو ورفاقه واسروا ثلاثمائة شخص من بينهم أم الحاكم وزوجته وبنته. وقد أطلق سراح هؤلاء الاساري الكبار بعد قليل، لقاء فدية عظيمة، لكن الحكومة الاسبانية المستاءة من هذه الهزيمة مالبثت أن أرسلت أسطولا مكونا من 15 سفينة تحت قيادة مارتين باديا (Martin Badilla) لمواجهة هذا القرصان الجريء. وقد نجح مراد في الافلات من هذه المواجهة والتجأ إلى أحد الموانىء المغربية بدون شك هو المعمورة واختفى به طيلة شهر كامل. وقد نجح في إحباط رقابة السفن الإسبانية ومحاصرتها له والسير بأسطوله الصغير نحو مياه البحر الأبيض المتوسط مغتنما ليلة سادها طقس رديء.

وقد أنهى مراد الرايس حياته العملية كاميرال للجزائر حيث سمي في هذا المنصب سنة 1595 بعد عشر سنوات من صنيعه الباهر في جزر الكناري. وكان من بين الرؤساء الذين ساهموا في إعطاء القرصنة السلاوية شهرتها الذائعة الصيت (جان جانسن) المنشق الهولندي، وإسمه الحقيقي هو جان جانسن (Jean Janssen) وذكر في مستندات مختلفة بإسم جون بربرا والقبطان جون. وفي إفريقيا عرف تحت إسم مرات الرايس والقايد مراتو. وقد ولد في هارليم (Haarlem) واشتغل بالقرصنة لفائدة الحكومة الهولندية. وصار بعد ذلك قرصانا مستقلا ويذكر كوس «Gosse» إنه حينما كان يهاجم إسبانيا كان يرفع علم بلاده، امير (دي رنج) تشريفا لارومته ووطنه وحينما كان يهاجم سفن دول أخرى يرفع علم الهلال الاحمر للاتراك.

وفي سنة 1618 أسر من طرف القراصنة، البربر يسكيين في لنزروت، وارتد عن دينه بالجزائر وأخذ يقرصن بدوره بالبحر الأبيض المتوسط تحت قيادة القرصان

لجزائري الكبير سليمان الرايس. وبعد وفاة هذا الأخير سنة 1619 استوطن القائد مراتو مدينة سلا وفرض نفسه على الجمهورية الناشئة، بما كان يتحلى به من سلطة نادرة. ولينال ثقة رفاقه الجدد تزوج بامرأة موريسيكية رغم أن له زوجة وأولادا بمدينته هارليم.

وفي سنة 1622 قاد إغارة في بحر المانش. وليدلل على جرأته دخل ميناء فير Veere بزيليذا لتموين سفينته، واستقبل على ظهرها زوجته الهولندية وأطفالها، لكنه لم يترك نفسه تنقاد للحنان الأسروي وكذلك الأمر بالنسبة لأعضاء طاقمه فقد صموا أذانهم عند سماع ترجيات أقاربهم وأصدقائهم ورفضوا مغادرة السفينة مما كان يدل على حنقهم العنيف ضد الاسبانيين وإصرارهم الشديد على متابعة الغنيمة. وأكثر من ذلك، فرغم التهديدات الشديدة له من طرف السلطات المحلية، استطاع القائد موراطو آن يضيف إلى طاقمه عناصر جديدة من هولندا وصار عدد بحارته أكثر منه حين دخوله لهذا الميناء.

وعاد للمغرب واستأنف أعماله القرصنية ولم يتردد في الهجوم على مواطنيه الهولنديين، ففي 27 مارس 1623 وفي عرض مياه رأس روكا «Cap. Roca» أسر السفينة الهولندية (الأسد الأخضر) Le lion Vert ذات حمولة 240 طنة وبعد يومين وفي مياه اشبونة أسر سفينة هولندية أخرى لوفنير Le veneur وفي يوليوز من نفس السنة استولى أيضا في عرض مياه رأس مونديكو Cap. Mondego على سفينة هولندية (لابون افنتور) La bonne Aventure مجهزة من طرف بورجوازيي روتردام ومن حمولة 200 طنة.

وفي سنة 1624 سمي موارطوا ميرال سلا بحظوة من طرف مولاي زيدان — والصنيعة الكبرى التي يمكن لهذا القرصان الرهيب الافتخار بها تمثلت في دخوله إلى ايسلاندا سنة 1627 حيث اعتبرت الانتصار البحري الفريد لهذه الفترة. لقد دخلها موراطو على رأس اسطول صغير مكون من 3 سفن وكان يساعده ثلاثة ملازمين انجليز وربان دانمركي أسير. وكانت النتائج أعظم من الجهود المبذولة. فقد نهبت مدينة (ريكجيافيك)[1] Reykjavik وأسفرت العملية عن غنيمة بعض الجلود والحوت المقدد وأسر أربعمائة إسلندي مابين رجال ونساء وأطفال.

---

(1) ريكجيافيك هي المدينة التي انعقدت بها قمة العملاقين العظميين في سنة 1988. — المترجم —

وفي سنة 1631، نفذ مراطو عملية مماثلة في ارلندا، حيث اقترب منها في المساء ووضع مائتي جندي في قواربه ونزلوا في ضيعة صغرى تسمى (بالتيمور) Baltimore وهنا فاجأ الجنود كثيرا من الصيادين الذين كانوا يسكنون هذه الجزيرة فاستولوا على 237 شخص مابين رجال ونساء وأطفال صغار حتى أطفال المهد. وتمت العملية بنجاح وسيق الجميع إلى الجزائر وعرضوا للبيع. وكان منظرهم يدعو للرثاء حيث كان يفرق بين النساء وأزواجهن والأطفال وآبائهم.

ولم يكن هذا النشاط الكبير لموراطو خاليا من الربح، فبفضل غنائم البحر ومكافآته كاميرال والتي تشتمل على حقوق الرسو والقيادة وحقوق أخرى من الميناء علاوة على عمولاته عن اسلاب البحر، صار مقربا جدا وقد استقر القرصان السلاوي الكبير مع عائلته المسلمة بالجزائر، لكنه مع ذلك لم يترك مغامراته في البحر.

وذات يوم كشر الحظ له عن أنيابه حيث أسر من طرف فرسان مالطا وترك اعتقاله هذا أثرا عميقا بالجزائر ويذكر بول دان P.Dan بهذه المناسبة : «لقد رأيت ذات يوم أكثر من مائة امرأة مجتمعات يسرن في جلبة لمواساة زوجة هذا القرصان المارق وكن يظهرن حزنهن بشدة ويتنافسن في النواح ويسلن دموعهن الحقيقية والمتصنعة على هذا المصاب. وكانت تلك عادتهن في مثل هذه المفاجآت المشؤومة».

وفي سنة 1640، وتبعا لظروف غامضة استعاد القائد موراطو حريته من جديد وعاد مرة أخرى للمغرب واضعا نفسه في خدمة السلطان حيث تولى منصب حاكم قصبة الوليدية قرب مدينة أسفي وكان ذلك بمثابة تقاعد ذهبي لنهاية حياة عمل مليئة بالحركة والنشاط.

وفي 24 دجنبر من نفس السنة حلت بأسفي سفينة هولندية حاملة على ظهرها سفير البلاد الوطيئة، انطوان دي ليدكريك (Antoine de Lie de korke) وبرفقته ليزابيت هانسن Lisabeth Hanssen بنت القرصان السابق الذي ارتقى إلى منصب حاكم وحينما علم هذا بالخبر استقل سفينته للقاء بنته جالسا بروعة فوق زربية ووسادات من حرير ومحاطا بخدمه. وتم اللقاء بين الأب وبنته في قمرية السفير وكان المشهد مؤثرا، فحينما التقى ناظراهما أخذا يبكيان وبعد لحظات من الحديث انصرف الحاكم في أبهة ملك والتحقت ليزبيت بوالدها في مقره بالوليدية. وبما أن البلاد لم ترقها انصرفت عنها بعد إقامة قصيرة إذا استقلت سفينة يوم 24 غشت 1641 للعودة إلى هولندا.

ولا يعرف أحد كيف انتهت حياة هذا المغامر العجيب، إلا أن المترجم له وهو أستاذ بمدرسة (اوستطزان) Ostzaan أنهى الحديث عنه بهذه العبارة المتشائمة «لقد كانت نهايته جد قاسية».

وفي فترة سابقة لافول نجم القرصنة السلاوية يبرز رئيس مسلم حقيقي مثير للاعجاب حقق شهرة واسعة في نهاية القرن السابع عشر ويمكن اعتباره كآخر كبار قراصنة سلا أنه سيدي عبد الله بن عايشة وكثيرا ماكان يلقب أيضا ببنعاش. وشخصيته معروفة على العموم بسفارته لدى لويس الرابع عشر سنة 1698 والمهمة المدهشة التي أنيطت به من طرف السلطان مولاي اسماعيل والمتمثلة في طلب سيده يد الأميرة دي كونتي (de Conti) لكن قبل ارتقائه إلى درجة سفير كان يعرف أساسا كقرصان.

والظاهر أنه بدأ حياته في البحر حوالي 1672 إلا أن السنوات الأولى منها كانت خافتة بريق أو بدون لمعان. وفي 1684 أخذ بن عايشة والذي كان يحمل رتبة «جنرال سفن سلا» يتنازع مع الفرقاطات الانجليزية وفي 15 يوليوز من نفس السنة توبع من طرف الانجليز واضطر للفشل في أربع أماكن من سلا واستطاع النجاة من خصومه بصعوبة والالتحاق بالشاطىء.

وفي 05 من نونبر 1686 استولى على سفينة من هوفلور «Houfleur» من حمولة 100 طنة مشحونة بالكتان وعلى سفينة (اسبرانس) Esperance تحت قيادة القبطان كيوم بوربي لكن هذه الغنيمة هلكت وهي داخلة للميناء إلا أن طاقمها انقذ واسر.

وتعددت مثل هذه العمليات، وفي سنة 1687 بنى باخرة جميلة مجهزة بـ 2 مدفعا لكن بناءها كان سيئا كما ذكر أندري بيول قنصل فرنسا بالجزائر إلا أنه في 12 مارس وهو مبحر تحت راية الجزائر أسر الباخرة (مرسيي) Mercier من فئة ستة مدافع مشحونة بالقمح إلى مرسيليا وسار بها للجزائر. وفي 20 مارس استولى على طرطنين (سان اسبري) (وسان ماري) St. Marie مشحونتين بالشب والأرز والخمر والبندق. وفيما بين 11 و 14 ماي استولى على ثلاث سفن مشحونة بالقمح هي (لون بري) La non Pareille (ولفرنسواز) la Françoise ونوتردام دي بونبارت La notre Dame Bonapart وساق واحدة منها إلى تطوان والآخرين للجزائر وصارت شهرة بن

عائشة تتعاظم وتشغل بال السلطات الفرنسية.

وقد أكد ذلك بيير استيل عضو القنصلية الفرنسية بتطوان في مراسلة بتاريخ 16 يونيه 1687. وكذلك مورتمار Mortemart جنيرال السفن الحربية في إنذاره للقائد علي يد عبد الله حاكم طنجة وينص فيه على الخصوص على غنائم بن عائشة قرصان سلا.

وفيما كانت القرصنة السلاوية تزداد خطورة كل يوم وتصير أقل كلفة، كان البحار الممتاز والقوي بن عائشة يتابع انتصاراته في عرض المحيط. وقد كانت حملته لسنة **1691** أخصب حملة عرفتها مغامراته البحرية. ففيما بين مارس وماي حقق ست غنائم. وفي يوليوز أسر بقرب اشبونة كرافيل برتغالية محملة بالقمح ووضع طاقمها المكون من 23 رجلا أسارى تحت يد ملك المغرب.

وكان بن عائشة ينجز عملياته باتفاق وموازاة مع الرايس فنيش وهكذا ففي شتنبر سنة 1691 استولى القرصانان في أعالي بحار جزر الكناري على أربعة سفن واحدة فرنسية وواحدة إيطالية واثنان انجليزيتان مما أدخل سرورا كبيرا على السلطان. وفي سنة 26 شتنبر من نفس السنة استولى على سفينتين فرنسيتين ذاهبتين إلى أمريكا بدون أي مفاوضة تذكر من طرف بحارتها الأولى (لوموديري) Le modére تحت قيادة القبطان لاروش La Roche والتي غلبت على أمرها بعد مقاومة شجاعة والثانية من بوردو تحت قيادة القبطان لوساج Le Sage الذي لم يستسلم إلا بعد ساعة من القتال.

ولم يتردد بن عائشة الجريء في القيام بأعماله القرصنية حتى في فصل الشتاء. ففي يناير 1692 استولى على سفينة جديدة لكنه أخذ على غرة من طرف قرصانين فرنسيين فاضطر إلى ترك غنيمته، واستطاع الفرار بفضل كفاءته النادرة لسياقة سفينته.

وفي سنة 1693 كان الجينرال بن عائشة يقود سفينة تحمل 24 مدفعا وطاقما مكونا من 180 رجلا وكان أهم انتصار حققه هو الاستيلاء على سفينة برتغالية كبيرة قادمة من البرازيل في اتجاه اشبونة وحاملة لشحنة غنية من الكاكاو والقرفة والقرنفل والسكر تقدر بـ 50.000 ليرة ورغم أنها كانت مسلحة بـ 20 مدفعا فقد استسلمت للأسر دون أن تطلق طلقة واحدة من نيران مدفعيتها.

وقد تابع بن عائشة حملته القرصنية سنة 1694 برفقة أخيه عبد الرحمان الذي كان يقود سفينة مجهزة بـ 18 مدفعا وطاقما مكونا من 130 رجلا. وفي نهاية يوليوز نجح الاخوان في دخول أحدهما للمعمورة والثاني إلى سلا متحديين السفن الحربية البرتغالية التي كانت تحاصر هذين الميناءين. وحينما كان يثنى على جرأة بن عائشة يجيب باحتقار : «إنه ليس أهلا لهذا الثناء مع البرتغاليين».

وبعد استيناف الاخوين بن عائشة أعمالهما القرصنية في الخريف دخلا إلى المعمورة، وفي 12 دجنبر حصلا على غنيمتين الأولى سفينة انجليزية من حمولة 100 طنة مشحونة بالموز والرنك وقد أسرت قرب (مادر) Mader والثانية سفينة فرنسية من حمولة 200 طنة L'hirondelle تحت قيادة القبطان (ماتيوكوا) Mathieu Crois مجهزة بأربعة مدافع وطاقم من 21 رجلا ومشحونة بالسكر الخام والكاكاو والقرفة تقدر قيمتها بـ 80.000 ليرة وقد أسرت بين جزر الأسور ومادر وهي في طريق عودتها من المارتينيك. وفي هاتين الحالتين كان يعتقد أن القرصانين جزائريان وبينما كانت السفينة الانجليزية متجهة نحو سلا وإذا بسفن بريطانية تستولي عليها في مياه كاب سبارتيل. وقد توصل الطاقم المغربي للنجاة بنفسه والوصول إلى الشاطىء على ظهر زورق إنقاذ. وبالعكس فقد اقتيدت (الايرونديل) إلى الميناء وجهزت بسرعة لتصبح سفينة في خدمة القرصنة وأسندت قيادتها للقرصان الجديد ابن عبد الله بن عائشة، محمد الرايس الذي كان يستهل حياته كقرصان.

وفي سنة 1695 كانت عائلة بن عايشة كلها تعمل في البحر فمن بين خمس سفن قرصنة، كانت ثلاثة منها تحت قيادة جنيرال سفن سلا وأخيه وولده. وخلال حملة الصيف لابن عايشة، فقد استولى الأب وولده وهما يقرصنان معا على بعد ثمانية أميال من جزر الأسور، على سفينة هولندية صغيرة من امستردام مشحونة بـ 180 طنا من الخمر ويقودها 10 رجال. لكن هذه السفينة التي زودت بـ 25 مغربيا لم تصل قط إلى مدينة سلا، ويفترض أنها سقطت ثانية تحت يد قرصان آخر من سان مالو.

وفي شتنبر عادت عائلة بن عايشة كلها للبحر وقامت بحملة خريف مثمرة، ففي بحار تينيريف Ténériffe استولى القراصنة الثلاثة مجتمعين على سفينة هولندية عتادية مشحونة بـ 326 دن كبير من الخمر وأربع براميل من ماء الحياة تقدر قيمتها بـ 40.000 بياستر. وقد عاد الثلاثة إلى المعمورة في يناير 1696 مضيفين إلى غنيمتهم الكبيرة قاربي صيد في جزر الكناري.

أما سنة 1696 فكانت أقل عطاء بالنسبة إليهم. ففي نونبر حاول عبد الرحمان أن يجرب حظه بالبحر الأبيض المتوسط إلا أنه طرد من طرف سفينتين فرنسيتين مما اضطره إلى الاخفاق في بوجي Bougie وانقطع عمله بالبحر لمدة سنتين.

وفي سنة 1697 استأنف عبد الله نشاطه القرصني. وتدهورت علاقاته بـ (ج.ب.استيل) قنصل فرنسا بسلا بعد أن كانت ودية في الماضي ماجعل هذا القنصل يصف عبد الله بالعدو اللدود للفرنسيين. وفي 31 ماي **1697** كتب هذا القنصل رسالة إلى (بونت شارتن) Pont Chartrin متمنيا من الله أن يقع هذا القرصان في يد السفن الفرنسية حتى يستريح منه المسيحيون الأحرار منهم والأساري على السواء. إلا أن هذه الأمنية لم تتحقق. فقد أسر ابن عايشة قاربا إسبانيا يحمل على ظهره 18 رجلا، وقد اضطر ابن عايشة للتخلي عن هذه الغنيمة بسبب رداءة الطقس.

وقد تمت آخر حرب قرصنية لعبد الله بن عايشة سنة 1698 استمرت ثمانية وثلاثين يوما فقد صعد اميرال سلا سفينته الخاصة والمجهزة بـ 20 مدفعا و24 منجنيق وكان طاقمها المكون من 200 رجل من أحسن عناصر سلا تغذية وأجورا. وبهذه الوحدة البحرية القوية حقق القرصان العجوز خمس غنائم تتمثل في ثلاث سفن فرنسية واثنتين انجليزيتين. وقد أسرت اثنتان بخليج كاسكوني قاد متين من لاروشيل (La Rochelle) ومتجهتين نحو (تيرنوف) (Terre Neuve) وكانت الثالثة آتية من بوردو ومتجهة نحو كاندا وقد أسرت على بعد ستين ميلا من (رأس فنستير) Cap. Fnisterre وكانت هذه الغنائم هزيلة القيمة إلا أنها أدت إلى أسر خمسة وثلاثين فرنسيا جديدا.

وبعد هذه الانتصارات المتوالية كاد قرصان سلا الرهيب أن يسقط بين يدي إحدى فرقاطات أسطول كوتلوكون (Coetlogon) بينما كان أخوه عبد الرحمن يجوب البحر على ظهر سفينة قديمة من غنائمه (لوشفال بلان) (Le Cheval Blanc). وفي يونيه 1698 تعرض هذا الأخير لهجوم من طرف سفينة لوتريتون (Triton) التي كان يقودها فارس (شاتوموراند) (Chateau Morand)، ولم ينجح عبد الرحمن في النجاة بنفسه والوقوع في الفخ إلا بفضل تفوق سرعة سفينته. وقد حزن كوتلوكون حزنا كبيرا على عدم نجاحه في مغامرته. كما أن بونتشارتن علم بأسى كبير فشل شاتوموران قائلا لو كان أطلق طلقة واحدة لانهزم هذا القرصان.

وقد أدت الأعمال الباهرة لجنيرال سفن سلا أن ينال بصفة خاصة تقدير المولى اسماعيل الذي عهد إليه بسفارته الشهيرة لدى البلاط الفرنسي.

ففي رسالة تقديمه إلى ملك لويس الرابع عشر بتاريخ 29 شتنبر 1698 قدم السلطان رسوله كما يلي :

«ونقول بشأنه، إنه رغم كونه عرف فقط أميرا لا لبحارنا فله لدى شخصنا حظوة كبرى وتقدير وشرف خاصان»[2] ورغما عن هذا الاطراء والثناء الكبيرين فلم ينل بن عايشة على الفورسمة الدبلوماسي المرغوب فيه فقد كانت تقارير القنصل الفرنسي إلى (بونتشارترن) تحمل في طياتها إنذارات قوية ضد هذا السفير واصفة إياه : «إن بن عايشة مجرم وقاتل للفرنسيين أنه قوي بماله وأملاكه ولايمسه الملك بسوء لأنه قرصان».

ولم يكن مقام بن عايشة بباريس أوفرساي أقل إثارة للاهتمام، لكن مهمته منيت بالفشل.

وقد عاد من فرنسا سنة 1699 تجلله الشهرة الخطيرة ويحمل معه ثروات طائلة. وقد دخل في صراع مع مولاي حفيظ ابن مولاي اسماعيل مما أدى إلى تعنيفه بقوة. وبناء على طلب تجار مسيحيين أذعن عبد الله بن عايشة لاداء ذعيرة خمسة قناطير من الفضة[3].

وبعد هذه الحادثة المزعجة استعاد بن عائشة حظوته لدى السلطان لكنه لم يعد قط الى عمله بالبحر. واستغل نفوذه المعاد ليعمل وسيطا لدى الآباء المسحيين في مجال افتداء الأسرى.

وقد تابع ولده محمد الرايس عمله بالبحر إلا أنه بقي بعيدا عن أن ينال مثل شهرة أبيه، ففي سنة 1707 كان يقود سفينة مجهزة بـ 16 مدفعا وطاقم مكون من 200 رجل، وقد استولى بها على سفينة انجليزية وهي في طريقها إلى لندن. وهكذا وقع تحت

---

(2) رسالة حول إسماعيل إلى لويس الرابع عشر بتاريخ 29 شتنبر 1698. المصادر المخطوطة. السلسلة 2 فرنسا. المجلد 4 ص 684.

(3) المصادر المخطوطة ibid ص 707.

الأسر خمسة وخمسون انجليزيا سيقوا الى سلا أولا وبعد ذلك الى مكناس. وكانت هذه أهم عملية يقوم بها ولد عبد الله بن عايشة اميرال سفن سلا.

وقد وصل إلى علمنا بعض أسماء الرؤساء السلاويين الأقل شهرة ومن هؤلاء :

الرايس على حكم : الذي كان يحمل لقب «نائب اميرال سفن سلا» والذي مارس القرصنة لأطول مدة. فقد سبق له أن أخذ في ممارساتها سنة 1671 وفي سنة 1715 كان يقود سفينة قرصنة سلاوية دون أن تضاف إلى سجله أية عملية مثيرة للانتباه. وقد حمل السلاح والمعدات بإذن من السلطان سنة 1697 إلى مدينة أكادير وشارك في حملة مع بن عايشة، فاستولى في مياه الأسور على قاربي صيد إسبانيين يقود كل واحد منهما عشرة رجال. وقد عاد إلى المعمورة في نونبر دون أية نتيجة أخرى.

الرايس فنيش : مرافق بن عايشة في القرصنة والذي كان ينتمي لعائلة عريقة من سلا. ففي سنة 1691 أسر باخرة انجليزية صغيرة يقودها طاقم مكون من ثمانية رجال وهي في طريقها إلى جزر مادر Mader لشحن الخمر. وفي سنة 1693 قاد سفينة مجهزة بـ 18 مدفعا أسر بها في مياه الأسور باخرة فرنسية من حمولة 100 طنة يقودها القبطان ريكو (Rigaud) مشحونة بالملح والزيت وبعض الملابس التي يقتنيها سكان هذه الجزر. وفي سنة 1694 فك الحصار المفروض من طرف الاسطول البرتغالي ودخل في واضحة النهار إلى مدينة سلا على ظهر سفينة مجهزة بـ 18 مدفعا و150 رجلا وهو يسخر من البرتغاليين. وفي سنة 1695 أسر في مياه جزر سان ميشيل (Saint Michel) سفينة برتغالية تحمل على ظهرها 18 رجلا وإمرأتين و7 من رجال الدين.. وكانت هذه العملية آخر نجاح يحققه. وفي نهاية حملته هلك غارقا مع سفينته.

الرايس روسي : الذي كان يقود سنة 1693 سفينة مجهزة بأربعة عشر مدفعا وطاقم مكون من 100 رجل، وقد حقق بها عملية مثيرة للاعجاب أكسبته شهرة عالية. ففي مياه جزر مادر استولى على كرافيل برتغالية تحمل على ظهرها عامل جزر الأسور وحاشيته ولم تكن الكرافيل مجهزة بأي مدفع. وببعض البنادق وستة مجانق حاولت الدفاع عن نفسها خلال معركة دامت يومين و3 ليال. وفي النهاية استسلمت للرايس روسي بعد أن قتل من رجالها أربعة بحارة وقد أسر بقية طاقمها ومن بينهم

عامل الجزيرة وولده ورجل دين تابعان للعامل وكان مجموع الأساري 31 شخصا من بينهم امرأتان وقد وصل الرايس روسي إلى ميناء سلا يوم 19 أكتوبر مصحوبا بغنيمته وأساراه. وقد تدخل توا قنصل فرنسا لفائدة معاملة هؤلاء الأساري ذوي الجاه بالحسنى.

ولم يحقق روسي في حملته سنة 1694 أية نتيجة تذكر فقد جاب البحر طيلة شهرين دون الحصول على أية غنيمة، وقد دخل ميناء المعمورة في 25 يوليوز أمام أنظار السفن البرتغالية دون أن يمس بسوء. وقد غامر في البحر من جديد في خريف نفس السنة وعاد للميناء في دجنبر بخفي حنين.

وفي نهاية 1695 أسر الرايس روسي في مياه جزر الكناري قاربا إسبانيا سبق أن استولى عليه طرطن فرنسي. وكان على ظهره ربان وبحارتان، وقد قرر روسي أن يسوق غنيمته لمدينة سبتة حيث أنه كان يعرف حسن الاستقبال الذي توفره له هذه المدينة. لكن الرياح لم تكن في صالحه، فقرر الاتجاه نحو الجزائر حيث مكث فيها شهرا وعاد إلى مدينة سلا في 15 مارس 1696 .

الرايس معيز : المعروف بالشجاع والذي كان يعد من بين القراصنة الأشداء لسلا. ففي ماي 1691 قاد سفينة مجهزة بـ 9 مدافع وطاقم مكون من 70 رجلا، وقد التقى سفينة فرنسية في مياه (رأس فنيستير) Cap Fnisterre محملة بالصابون وآتية من مارسيليا في اتجاه روان وهكذا استولى عليها بعد معركة ضارية استمرت أربع ساعات، وقد عنف ربانها وألقى بجثث القتلى في البحر. وقد وصل إلى ميناء سلا في 6 يونيه حاملا معه غنيمته بطاقم مكون من 6 بحارة. وحين علم بذلك قنصل فرنسا (ج.ب استيل) احتج بشدة على المعاملة القاسية التي تعرض لها ربان السفينة الماسورة القبطان بران (Brun) وفي 16 يونيو بعث بمذكرة إلى بونت شارترن يطلب فيها إعطاء الأوامر للسفن الفرنسية بأن تعامل نفس المعاملة قراصنة سلا.

وبعد سنتين من هذه العملية أسر الرايس معيز بدوره في عرض مياه سان فانسان (Saint Vincent) من طرف فرقاطة أسطول الكونت دستري (d'Estrés) وقد تأثر المولى اسماعيل بشدة لخسرانه لواحد من أحسن الرؤساء فاقترح على الفور أن يبادل به أسيرا مسيحيا. لكن القنصل ج.ب إستيل تدخل بقوة لدى بونت شارترن

للاعتراض على هذا التدبير[4]. ورغم ذلك فقد قبل بونت شارترن مبادلة الاسيرين بعد أن أعطى أوامره للمسؤول العام عن السفن الحربية بتعنيف الرايس السلاوي

محمد التاج، المتزوج بسلا والذي كان يقرصن كثيرا بالبحر الأبيض المتوسط. وبجواز من البارون سان — أمان سفير فرنسا، غـادر التاج سنة 1983 سلا في اتجاه الجزائر بقصد شراء سفينة وتجهيزها للقرصنة. وأثناء طريقه استولى على سفينة انجليزية صغيرة محملة بالرخام وطاقم من 26 رجلا وقادها معه إلى الجزائر. إلا أن الماركيز دامفرفيل (d'Amereville) أسر هذه الغنيمة قبالة الجزائر وأسر الطاقم المكون من 26 رجلا وأرسلهم للعمل بالسفن الحربية، ما جعل المولى اسماعيل يرسل احتجاجا شديدا للهجة إلى لويس الرابع عشر[5].

الرايس محمد الحاج قنديل : المنشق بدون شك عن أصله الفرنسي والذي كان قدره أكثر غرابة. فقد صار أبوه رئيس السفينة لاماري فرانسواز التي كان يقودها القبطان بيير دوفال (pierre Duval) والتي أسرها قرصان الجزائر البوستنجي في 28 فبراير 1986. وقد سقط الأب أسيرا بين يدي فرقاطة فرنسية. وقد أرسل الرايس قنديل ليعمل على تحرير والده مقابل تحرير القبطان دوفال في 2 شتنبر 1688.

ومالبث الرايس قنديل أن عاد لعمله بالبحر، وقد اختص بالقرصنة في البحر الأبيض المتوسط ومارسها طيلة حملته لسنة 1694. وفي سنة 1695، كان يقود سفينة مجهزة لحساب مولاي إسماعيل ذات طاقم مكون من 79 رجلا. وكانت مهمته محددة في الهجوم على السفن الفرنسية المشحونة بالحبوب. وقد انتهت حياته كقرصان يوم 12 ماي في مياه مينورك حيث وقع في حبال الأسر، بعد معركة دامت يومين من طرف السفينة الفرنسية لوكلوريو سان جوزيف (Le Glorieux St. Josef) التي يقودها القبطان انطوان دي مونطوزان (A.de Montauzin) وقد حصل هذا الأخير على ميدالية وساعة ذهبيتين مكافأة له على عمله من طرف الغرفة التجارية بمرسيليا.

وبتدخل من طرف القنصل الفرنسي ج.ب استيل، حرر الرايس قنديل مقابل تحرير شابة فرنسية (Marie Bounin) كانت أسيرة بمكناس.

---

4) مذكرة ج.ب. استيل بتاريخ 6 4دجنبر 1693. المصادر المخطوطة، السلسلة 2، المجلد 4 ص 234.

5) رسالة مولاي اسماعيل إلى لويس الرابع عشر بتاريخ 22 يوليوز 1684 ibid. المجلد 2، ص 444.

ولاتزال أخبار القرصنة السلاوية تحتفظ بأسماء كثيرين من الرؤساء غمرهم النسيان بسبب أحداث تاريخية متفاوتة الأهمية ويمكن أن نذكر من بين هؤلاء :

الحاج علي : الذي استولى يوم 14 أكتوبر 1624 في أنحاء رأس فنستير على سفينة هولندية تحت قيادة القبطان أورت هنريكس. وقد أرغم الرايس ربان السفينة الماسورة وأحد البحارة على التصريح بأن الشحنة يمتلكها.

الأحرش : الذي كان يجوب البحر لحساب جان جانس من هارليم، أميرال سلا. والذي استولى على السفينة الهولندية (ماكريل) Macareel سنة 1627.

واعتبر من الحائزين للقب رايس **أشفار** المنشق الانجليزي **وحسن إبراهيم**.

مامي الرايس : وهو منشق هولندي، ففي سنة 1636 بينما كان يقود سفينة من حمولة 200 طنة مجهزة ب 13 مدفعا وطاقم مكون من 100 رجل، أسر سفينة انجليزية وأفرغها من شحنتها ووضع الغنيمة في عتادية بلجيكية كان قد استولى عليها من قبل. وقبيل وصوله لمدينة سلا هوجم من طرف أسطول (دي سورديو) (de Sourdio) وأسر بدوره وحمل سجينا على ظهر باخرة الأميرال.

الرايس الهسكوري : الذي كان يقود سنة 1954 سفينة مجهزة للقرصنة تحمل إسم (لولفريي) (Le Levrier).

شابان الرايس، المنشق البرتغالي القائد سنة 1646 للسفينة القرصنية دي كراب (de Crabbe) والمجهزة بـ 16 مدفعا و175 رجلا والذي أعيد تجهيزها بسلا. وقد ركب شابان البحر طيلة ثلاثة أشهر ولم يأسر سوى سفينة انجليزية صغيرة مشحونة بالملح وقارب صيد في خليج كاسكوني، وفي 22 يوليوز من نفس السنة سقط أسيرا بين يدي القرصان الهولندي كورنليس فربك) بمياه ويسانت (d'Ouessant)

الرايس أحمد القرطبي : «الرجل البدين» والمنشق الاسباني، ففي 30 شتنبر 1651، امتطى عتادية سلاوية مجهزة للقرصنة لاتيربروميز (La Terre Promise) وفي 30 شتنبر 1651 اقترب من السفينة الهولاندية دي ويت فالك (St. Vincent) في مياه رأس سان فانسان، فأسرها من عدة صواريها واستولى على شحنتها وأوسع ضربا قبطانها وبحارتها. وبعد سنوات من هذه العملية كان هذا الرايس بطل العملية الشهيرة بروفيت دانييل (Prophète Daniel) سنة 1658.

علي كامبّو : المنشق الاسباني : الذي استولى في أكتوبر 1654 في عرض مياه البرتغال وبقارب مجهز بأربعة مدافع، على سفينة هولندية صغيرة يتكون طاقمها من بحارة انجليز، وقد نجح الطاقم في الفرار لكن الغنيمة تابعت طريقها في اتجاه سلا تحت قيادة «دي كازميز (Case Mareys) أحد قراصنة سلا من الانجليز المنشقين.

علي الرايس مرشيك : الذي كان يعمل لحساب ولاية الجزائر. وقد أسر من طرف القبطان الهولندي براكيل (Brakel) في فاتح شتنبر سنة 1657 بمياه تطوان.

القرطبي بن أحمد القرطبي ومحمد الرايس، اللذين اشتهرا بعملية أسرهما للفرقاطة لارويال La Royale) سنة 1670.

علي البودرى : الذي أسر هو وغنيمته من طرف الماركيزدي (de Langeron) في شهر يوليوز 1681 في الوقت الذي كانت لانجرون قد وقعت فيه معاهداة الهدنة بالمعمورة مما أثار بعض المضاعفات الدبلوماسية.

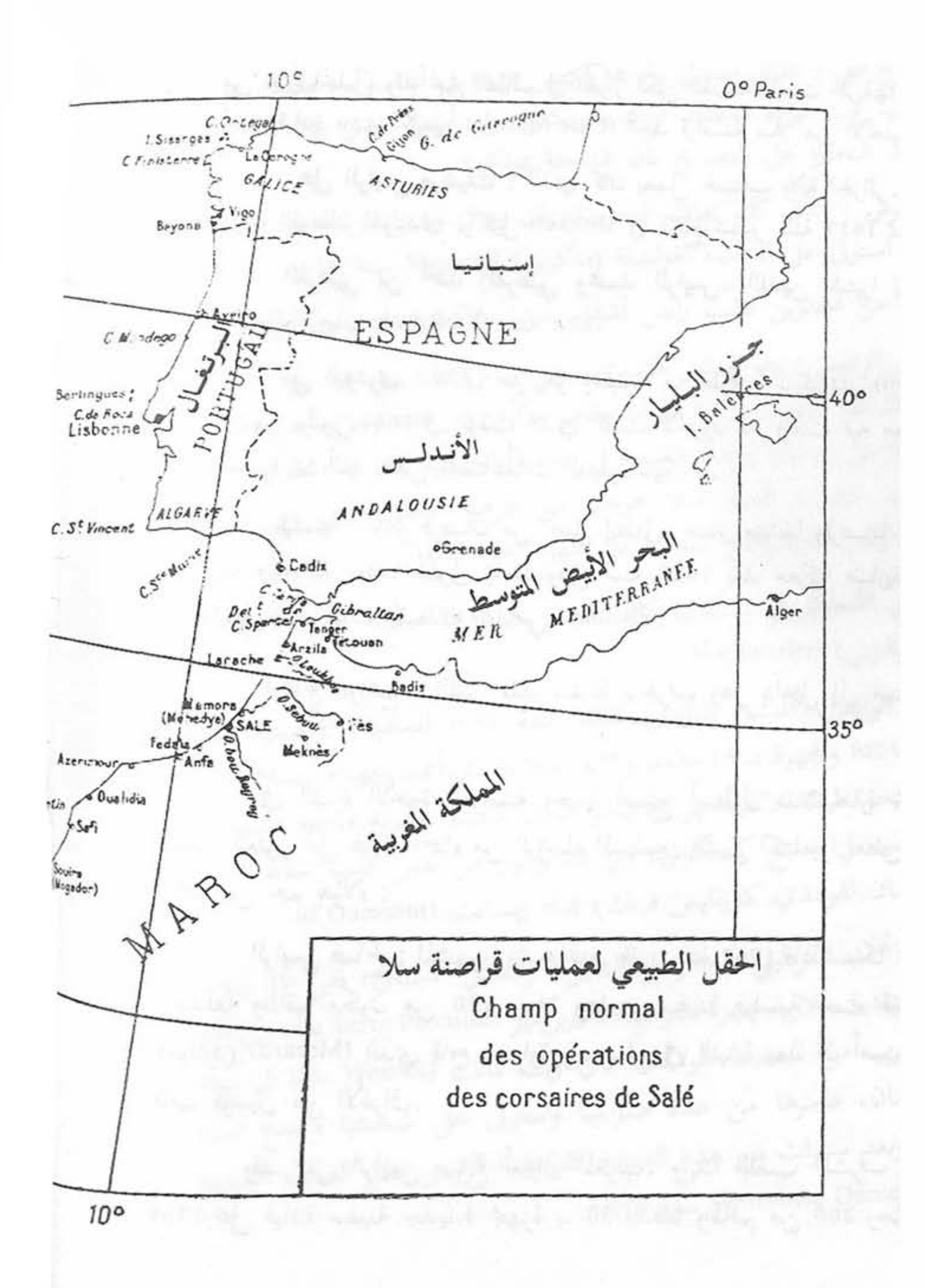
فينسيا : وهو قرصان من أصل إيطالي، صار منشقا وقرصانا سلاويا اشتهر بجرأته وإقدامه. وقد استولى بالخصوص سنة 1683 بعد معركة ضارية على سفينة انجليزية تحت قيادة القبطان «بلامي Bellami».

الحاج ابراهيم : الذي فقد سفينة بالجرف وهو داخل إلى ميناء سلا سنة 1695.

وفي الفترة الأخيرة للقرصنة وحينما أصبح أسطول سلا امارة بحرية للدولة، يمكن العثور على عدة أسماء من الرؤساء المسلمين الذين اكتسبوا بعض الشهرة وقد كان من أهم هؤلاء :

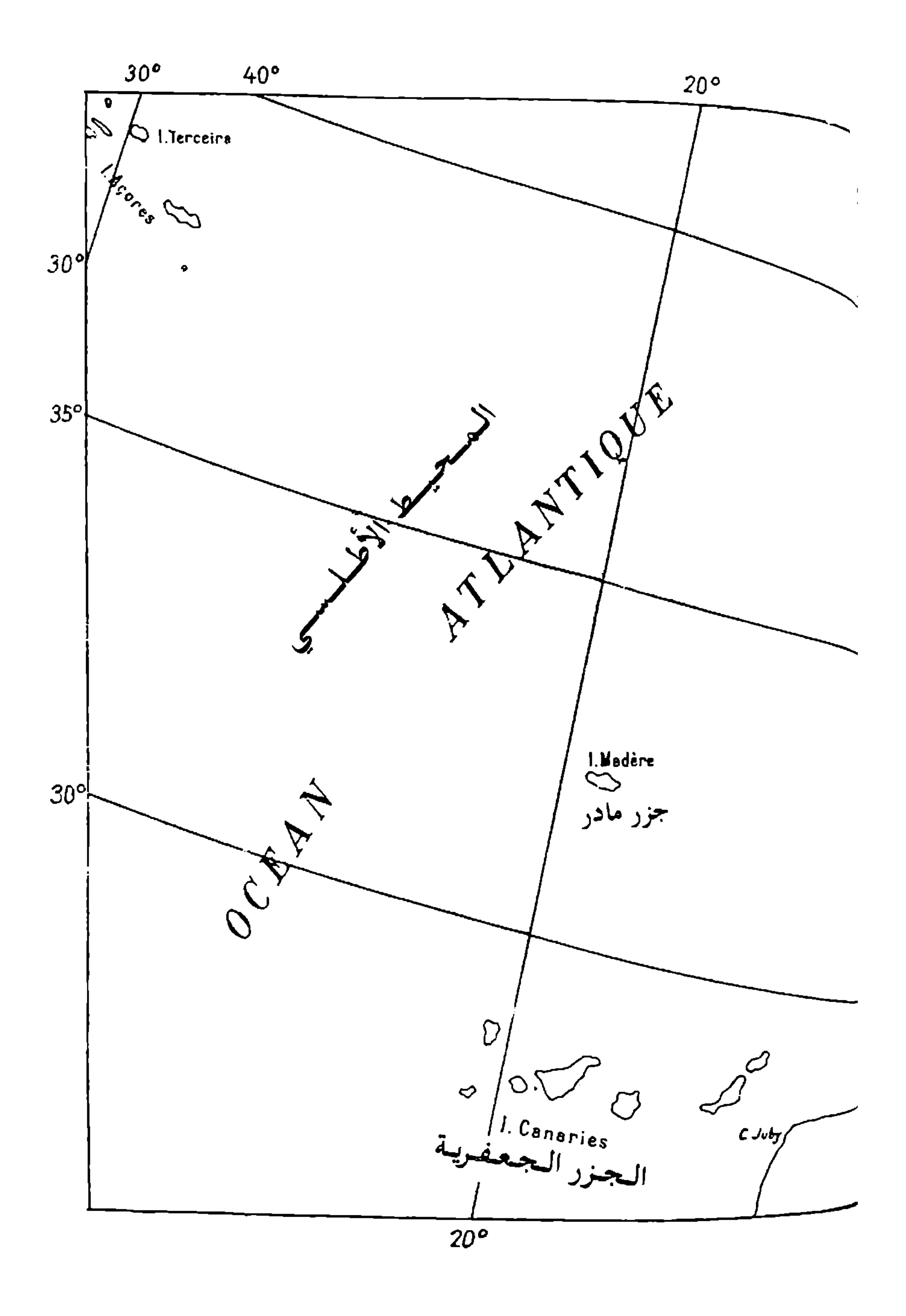
الرايس صالح : المشهور بشجاعته. ففي سنة 1967 قاد سنبكا مجهزا[5] بـ 24 مدفعا وطاقم مكون من 130 رجلا وهاجم سفينة فرنسية تحت قيادة القبطان (موتارد) (Motard) الذي قاوم بضراوة واستسلم في النهاية بعد أن أصبحت سفينته قاب قوسين من الأغراق.

وقد سمى الرايس صالح أميرال المغرب، وبهذا اللقب المشرف حصل سنة 1769 على قيادة سفينة جديدة مجهزة بـ 30 مدفعا وطاقم من 200 رجل.



الحقل الطبيعي لعمليات قراصنة سلا

Champ normal des opérations des corsaires de Salé


30°
40°
20°
I. Terceira
I. Açores
30°
35°
30°
المحيط الأطلسي
ATLANTIQUE
OCEAN
I. Madère
جزر مادر
I. Canaries
الجزر الجعفرية
C. Juby
20°

أبو عبد الله محمد العربي المستاري : من قبيلة بني مستارة، الذي بعث سفيرا لانكلترا سنة 1764 بقصد إصلاح السفن وتجديدها. وقد عاد من سفارته حاملا معه معدات السفن ومدافع من البرونز وغيرها.. وفي سنة 1766، وحسب رواية هوست كان يقود فرقاطة مجهزة بـ 16 مدفعا وطاقم مكون من 130 رجلا. وفي سنة 1770 كان يمتطي سفينة مجهزة بـ 18 مدفعا و150 رجلا. ونجده ثانية سنة 1771 يقود سفينة مجهزة بـ 18 مدفعا و100 رجل حاملا للقب «حاكم ساحة سلا» وبهذه التسمية النادرة كان سيدي محمد يريد التعبير عن رغبته في إعلاء مهنة الرؤساء. وفي سنة 1772 أصبح العربي المستاري القبطان القيدوم، يقود أحسن سفينة مجهزة في الأسطول المغربي وهي فرقاطة مجهزة بـ 20 مدفعا و100 رجل.

الرايس الهاشمي مستاري : من نفس القبيلة الذي كان يقود سنة 1770 سفينة مجهزة بـ 24 وطاقم مكون من 110 رجال ونراه في سنة 1771 يقود الفرقاطة «النمر» المجهزة بـ 24 مدفعا و110 رجال وقد أسر هذا القرصان في شتنبر سنة 1773 من طرف الفارس اكطون (Acton) وسيق سجينا إلى (ليفورن) (Livourne).

الرايس علي بريس : المنحدر من أصل موريسكي، والذي كان يقود فرقاطة سنة 1771، مجهزة بـ 20 مدفعا وطاقم مكون من 100 رجل والتي جهزت بمدينة العرائش. وفي سنة 1781 كلف هذا القرصان بسفارة لدى البلاط الفرنسي، لكن سفارته لم تنجح مثل مبعوث المولى اسماعيل. وقد توقف بمرسيليا حيث رفض الملك استقباله. وقد تأثر سيدي محمد بالموقف الغير اللائق الذي لقيه مبعوثه.

ونخص بالذكر أيضا **الرايس عمر** الذي كان يقود سنبكا سنة 1766 مجهزا بـ 16 مدفعا و124 رجلا. وفي ماي 1767 أسر في مضيق جبل طارق 3 سفن فرنسية لكنه أقيل من منصبه نظرا لكون هذه العمليات أجريت أثناء المفاوضات من أجل معاهدة السلم التي أمضيت يوم 28 ماي 1767.

لكن حتى في هذه الفترة كان كثير من القراصنة المنشقين يمارسون قيادة السفن الشريفة.

ويذكر هوست والقنصل شني في صحيفته لسنوات 1767 ــ 1773 افادات مهمة في هذا الصدد.

ونذكر من بين المنشقين **محمد السنشوري** قائد سفينة شراعية صغيرة. ومن بين القراصنة ذوي الأصل التركي :

هشمت الكوار : قائد سفينة مجهزة بـ 22 مدفعا سنة 1768 وسنة 1769.

هشمت التركي وعلي الصابونجي : قائدا سفن شراعية صغيرة مجهزة بـ 5 مدافع و60 رجلا سنة 1773.

ومن بين القراصنة ذوي الأصل الليبي :

سالم الطرابلسي : الذي كان يقود، كما ذكر هوست، فرقاطة مجهزة بـ 45 مدفعا وطاقم مكون من 330 رجلا.

يوسف الطرابلسي : قائد سنبك مجهز بـ 12 مدفعا سنة 1766 وقائد سفينة مجهزة بـ 24 مدفعا سنة 1769.

عمار الطرابلسي ويوسف الطرابلسي : قائدا سفن شراعية صغرى سنة 1772.

ومن بين القراصنة الجزائريين :

عصمت مصطكاني والعربي الجزيري : قائدا سفن شراعية صغيرة.

وكان هناك قراصنة آخرون من أصول مختلفة وبصورة خاصة نجد بعض الأسماء المغربية الصميمة مثل الرايس بن حسون عواد من عائلة كبيرة بسلا والذي كان يقود شراعية من صاريين سنة 1768 مجهزة بـ 14 مدفعا.

ونذكر أخيرا للذكرى أسماء الرؤساء **الحاج عبد الرحمان بركاش والحاج عبد الرحمان بريطل**، اللذين ظهرا في آخر انتفاضة للقرصنة المغربية في عهد مولاي عبد الرحمان واللذين أسرا أشرعة نمساوية سنة 1829 حسبما ذكره الناصري في الاستقصاء[6].

وقد كان اختيار السلاطين للرؤساء المدعويين لقيادة سفن الأسطول المغربي

(6) كتاب الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، الربائد المغربية المجلد 10 ص 129.

يخضع لاعتبارات مختلفة، فالبعض منهم كان يوظف للقيام بهذه المهمة نظرا لمؤهلاته المهنية ويحصل بالمقابل على مرتبات ومكافآت والبعض الآخر كان يعين من بين أفراد العائلات العريقة التي تقبل الخدمة في البحر من أجل الشرف ونيل الحظوة. وأخيرا كانت هناك فئة من الرؤساء الأشقياء بزوال الحظوة، تحاول عن طريق خدمة البحر إنعاش أصلها في إعادة الاعتبار إليها من طرف سيدها. وفي الحالتين الأخيرتين كان الملك دائما يضم إليهم ربابنة أكفاء. إذ الحذر كان يتطلب ذلك. وأشار شنيي في بحوثه التاريخية (Recherches Historiques) إلى الطريقة التي كان يتم بها اختيار الرؤساء فقال مامعناه «إن اختيار قيادة السفن لم يكن يعتمد على ذكاء الرؤساء بقدر ما كان يعتمد على مالديهم من تجارب وثروات».

وهكذا تحول القراصنة الجريئون الذين بذروا الرعب في بحار الغرب طيلة مائة وخمسين سنة الى موظفين مسالمين يهتمون بصيانة ثرواتهم وتوفير راحتهم وأمنهم.

وبالتالي صارت القرصنة السلاوية مؤسسة تجارية تحت إدارة السلطات الحكيمة تعمل على تقليص دورات سفنها بفضل اختيار ذكي ومتبصر لربابنتها.

الفصل الخامس

المعدات البحرية

المميزات العامة لأسطول سلا ــ مختلف أنواع سفن القرصنة ــ طرائد ــ شراعيات من صاريين ــ سنابك ــ مربعات الاشرعة ــ كرافيل ــ الشواني ــ فرقاطات ــ غليوطات ــ المميزات الرئيسية للقراصنة : السرعة والمقدرة الهجومية ــ الأهمية العددية لأسطول القرصنة ــ تكوين الأسطول ــ الأوراش البحرية المغربية ــ الطلبات للخارج ــ استعمال السفن المأسورة.

هناك اعتباران أساسيان ناتجان عن متطلبات طبيعية متناقضة كان لهما دور حاسم في بناء أسطول سلا، فقد كان على المراكب القرصانية بناء على ذلك، ان تكون ذات مميزات بحرية كفيلة بمواجهة الأعاصير القوية للمحيط الأطلسي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان عليها أن تكون ذات أحجام صغيرة حتى تستطيع بالتيار الضعيف أن تعبر جرف أبي رقراق والرسو في الأعماق الضعيفة لهذا الواد.

وكان الشرط الأول يقتضي استعمال العتاد بالسفن الشراعية الحربية، التي كانت تكون حتى نهاية القرن السابع عشر بصفة أساسية الأساطيل المغاربية للبحر الأبيض المتوسط.

ونذكر بان هذه الشراعيات البحرية كانت تعتمد على التجديف وأن اخر النماذج التي بناها قراصنة الجزائر كانت تملك زورق إنقاذ يحمل أكثر من مائتي مجداف، إلا أنه في بعض الأحيان كانت هذه الشراعيات تعتمد على التيار مستخدمة صاريين : صاريا كبيرا في الوسط وصاريا أماميا، وحاملة أشرعة لاتينية مربوطة على هوائيات، لكن التيار بقي دائما بالنسبة للشراعيات الحربية طريقة مساعدة للدفع والتسيير، يستعمل في حالة النسيم الموائم. إلا أن مواجهتها للبحر كانت ضعيفة، وهذه السفن الرقيقة جدا ــ والتي كانت علاقة طولها بعرضها 8 لم يكن بامكانها مغادرة موانئها حينما يكون الطقس رديئا جدا دون أن تكون منهكة. وعليه فحينما يكون البحر متلاطم الأمواج يخف نشاط الملاحة بسرعة. وإن هذا النو ع من السفن لم يكن يعتمد عليه في الرحلات الطويلة بالمحيط الأطلسي بعيدا عن أي مرفأ أو ملجأ.

ونلاحظ أن القراصنة المتوسطيين صاروا يكرهون بأنفسهم خلال القرن السابع عشر هذه السفن ليتبنوا بالمقابل السفن الشراعية. وقد كان أحد المنشقين الهولنديين من دوردرتيشت المدعو سيمون دي دانسر Simon de Danser الذي أقام بالجزائر سنة 1606 هو الذي علم الجزائريين الفن الحديث لبناء السفن والملاحة بالشراعيات الحقيقية المسماة «المراكب الدائرية ــ ولما قدمه دانسر من خدمات للقرصنة، استحق أن يلقب ــ «ولي نعمة القراصنة» (ف. كوس).

وإن تعميم استعمال الشراع، الذي سمح بتوسيع مجال عمل السفن أدى الى ثورة حقيقية في ممارسة القرصنة بالبحر ــ وهكذا أصبح البحر الأبيض المتوسط في متناول تدخلات القراصنة مهما كانت حالة الطقس والبحر.

وقد فرضت الملاحة بالشراع نفسها على جوالى المحيط الأطلسي وهم يستعدون ليصبحوا قراصنة سلا. وعليه فقد كان أسطول القرصنة السلاوية قبل كل شيء — أسطول الشراعيات التي تنتمى لعائلة المراكب الدّائرية.

وكان يقصد بالمركب الدائري كل سفينة تكون علاقة عرضها بطولها 3 أو 4 بينما في السفن الطويلة ذات المجاديف فإن هذه العلاقة دائما تكون أعلى من 5 إلى أن تصل إلى 9. وكانت المراكب الدائرية قليلة السرعة إلا أنها تتحرك بسهولة أكثر من المراكب الطويلة، البطيئة جدا لتحويل مسارها. وكانت تستعمل الريح كوسيلة وحيدة للدفع وبما أنها على شكل غاطس ومجهزة بإحكام كان بإمكانها أن تسير ضد الريح وبتعبير آخر تمارس ملاحة الشراع بصورة جيدة وهكذا ظهر الفرق الاساسي بين البحرية الشراعية والبحرية الحربية.

ونذكر توا بأن المراكب القرصنية السلاوية بالرغم من طابعها النوعي كشراعيات فقد بقيت زمنا طويلا مصحوبة بالمجاديف كوسيلة للاغاثة ولتسهيل تحركها وقيادتها.

والمعلومات التي نملكها عن هذه السفن ناقصة وغير محددة وسبب ذلك في كثير من الأحيان عدم دقة المصطلحات التي كانت تعين بها السفن المستعملة، وحسب الوثائق المستقاة من الدبلوماسيين ورجال الدين والمسافرين أو التجار، فان هذه المصطلحات المختلفة كانت تطلق على حد سواء على نفس السفن. وبالعكس فإن السفن ذات المميزات المختلفة كانت تقع تحت موجة من التسميات العامة مؤدية بذلك إلى كل إبهام والتباس. وإذا أضفنا الى ذلك عدم التخصص في المادة البحرية لأغلبية الكتاب سواء كانوا عربا أوأوربيين، وعدم ضبط الترجمات، نتصور كيف كان من الصعب التحديد بدقة ونوع من الضمانة المميزات الأولية للسفن القرصنية العاملة في أسطول سلا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

إلا أننا نريد بالرغم عن ذلك إضافة قليل من الوضوح والضبط في هذا الميدان.

فالوحدة الأولى لأسطول سلا كانت طريدة مسلحة للحرب حوالي 1617.

— ان كلمة طرطن مقتبسة من الكلمة العربية طريدة —

والطريدة (او الطرطن) سفينة كبيرة مستطيلة الشكل استعملت في البحر الأبيض المتوسط للصيد أو خدمات النقل الصغيرة الشاطئية. وبما أنها على العموم مجسرة فليس لها إلا صار واحد يحمل شراعا لاتينيا مثلث الزوايا فوق هوائي وزاوى مربوط بقاطعة. فالطريدة المتوسطية تتفق تماما مع وحيد الصاري للمحيط الأطلسي. وحينما تكون الطريدة مسلحة في الحرب كان يمكنها أيضا أن تحمل في واجهتها قطعة مدفعية.

وفي بعض الأحيان تساحل الشاطىء باثنين أو أربعة مجاديف على محاورها.

وحول هذه الطريدة تكون أسطول سلا وبسرعة فائقة من سفن ذات أحجام وأنواع مختلفة بدءا من القوارب الصغيرة ذات الطنان القليلة الى السفن الكبرى التي تجوب البحار العالية من حمولة 300 طنة الى أكثر من ذلك. وتنتمي هذه السفن المختلفة الى فئة السفن الخفيفة التي كانت تعمل في هذه الفترة وكانت تعين وتسمى بأسماء مختلفة : طرائد، سنابك كرافيل، فرقاطة، مربعات الأشرعة، غليوطات، الشواني، عتاديات.

فذات الصاريين تمثل نموذجا انتقاليا بين سفن التجديف والشراعيات ففي البداية كانت ذات الصاريين تشبه مركبا كبيرا يتوفر على ثمانية الى ستة عشر مقعدا للمجدفين ومع رجل واحد لكل مجداف. ولم تكن تحتوي على ممربين مقاعد المجدفين كالسفن البحرية ولم يكن لها من تجهيز سوى صارى وحيد يحمل شراعا لاتينيا. وحينما أخذ قراصنة شرق البحر الابيض المتوسط يرفضون استعمال القطاع (سفينة ذات صاري وحيد) صاروا يستعملون بصورة واسعة ذات الصاريين وهي سفينة سريعة سهلة الاستعمال وهي خاصة بالقرصنة. وقد كان القراصنة الاتراك أول المستعملين لذات الصاريين فكانت السبب في شهرتهم ومغامراتهم القرصنية وصنائعهم البحرية.

وخلال القرنين السابع والثامن عشر اعترى ذات الصاريين تطور كبير وأخذ اسمها (Le brigantin) يطلق على السفن الخفيفة التي تستعمل ثنائية الشراع والمجداف وبعد ذلك على ذات الشراع الوحيد وعلى انواع مختلفة والتي تنتمي كلها إلى السفن البحرية. ذات المميزات المتنوعة جدا.

وكانت ذوات الصاريين السلاوية من السفن الخفيفة التي تحمل في الغالب صاريين واحد عمودي في مقدمتها مع شراع الميزان وشراع أعلى في الوسط وصارى في

مؤخرتها مع شراع شبه منحرف من نوع صارى المؤخرة، وكانت بعض ذوات الصاريين يتوفرن مع ذلك على تجهيز لاتيني، وكانت ذات أحجام مختلفة مع ذلك لكنها كانت دائما مصحوبة بمجاديف، أما سلاحها فكان يتكون من 12 إلى 20 مدفعا وطاقم يتألف من 70 إلى 100 رجل.

أما السنبك (المأخوذة من الايطالية سيابيكو (Sciabecco)فيوحى بناؤها كباخرة صغيرة بالانتماء لعائلات البواخر الحربية، وفي الأصل كانت تستعمل للصيد في حوض البحر الأبيض المتوسط ثم تغير استعمالها في مابعد كبارجة.

وبما أن مقدمتها ممتدة وجؤجؤ هاينتهي بقاطعة ناتئة في شكل سيف فقد كانت تمثل سفينة ذات شخصية خاصة. وكانت مؤخرتها تقوم على أرضية خارجية مكونة من خشبة بين جناحين جاعلة المتراس ممتدا ومحاطا بممر.

أما تصريتها فكانت تتألف من ثلاثة صواري ففي المقدمة يوجد الصاري الأمامي مائلا جدا نحو الأمام وفي الوسط يوجد الصاري الكبير وأما صاري المؤخرة فيوجد بقرب المقود الذي يحمل في بعض الأحيان مصطبة صغيرة.

وتتكون السنبك التقليدية من ثلاثة أشرعة فوق هوائيات ومع ذلك فبعض السنابك كان يقاد بأشرعة مربعة على صاريات تكون قطعة واحدة اعني أنها مكونة من ثلاث قطع مطعمة بعضها على الآخرين ـــ أما الصاري الأخير فيحمل دائما شراعا لاتينيا (بريكانتين Brigantine).

وقد كان بإمكان جميع السنابك ان تتجهز بالمجاديف وعليه فكوات السباحة كانت تطبق على هيكل السفينة بين كوات المدافع.

وبما أن السنبك كانت ذات أحجام مختلفة فالمجهز منها للقرصنة كان يحمل من 4 إلى 24 مدفعا وكانت مصحوبة على العموم بثلاثين مجدافا. كما كان طاقمها يتألف من 60 إلى 200 رجل.

والسنابك لرشاقتها وقوة سرعتها وتماسكها فوق البحر رغم خفتها، فأكبر نموذج لها كان لايتعدى 200 طنة وكانت السنبك تمثل بحق نوع الباخرة القرصنية المتميزة. ولذا كان السلاويون كبقية القراصنة البرباريسكيين يملكون عدداً وافراً من السنابك.

وقد استعمل قراصنة سلا بصورة واسعة النطاق مربعات الأشرعة. وقد كانت

لها ثلاثة صواري من النوع المتوسطي المنبثقة من السنبك، حيث تتشابهان نوعاما، فكوثلها العالي كان ممتدا بجناحين يحملان أرضية خفيفة. وجوجؤها الناتىء جدا كان يذكر بجؤجؤ الطريدة اذ كان يتكون من منقار طويل مع ممرات تكون سلما إلى النهاية حيث توجد رافعة الشاغول للصاري الأمامي، وبما أن مربعات الأشرعة كانت ذات حمولة ثقيلة وأقل سرعة من السنابك فان ذلك راجع لشكلها المحدودب جدا.

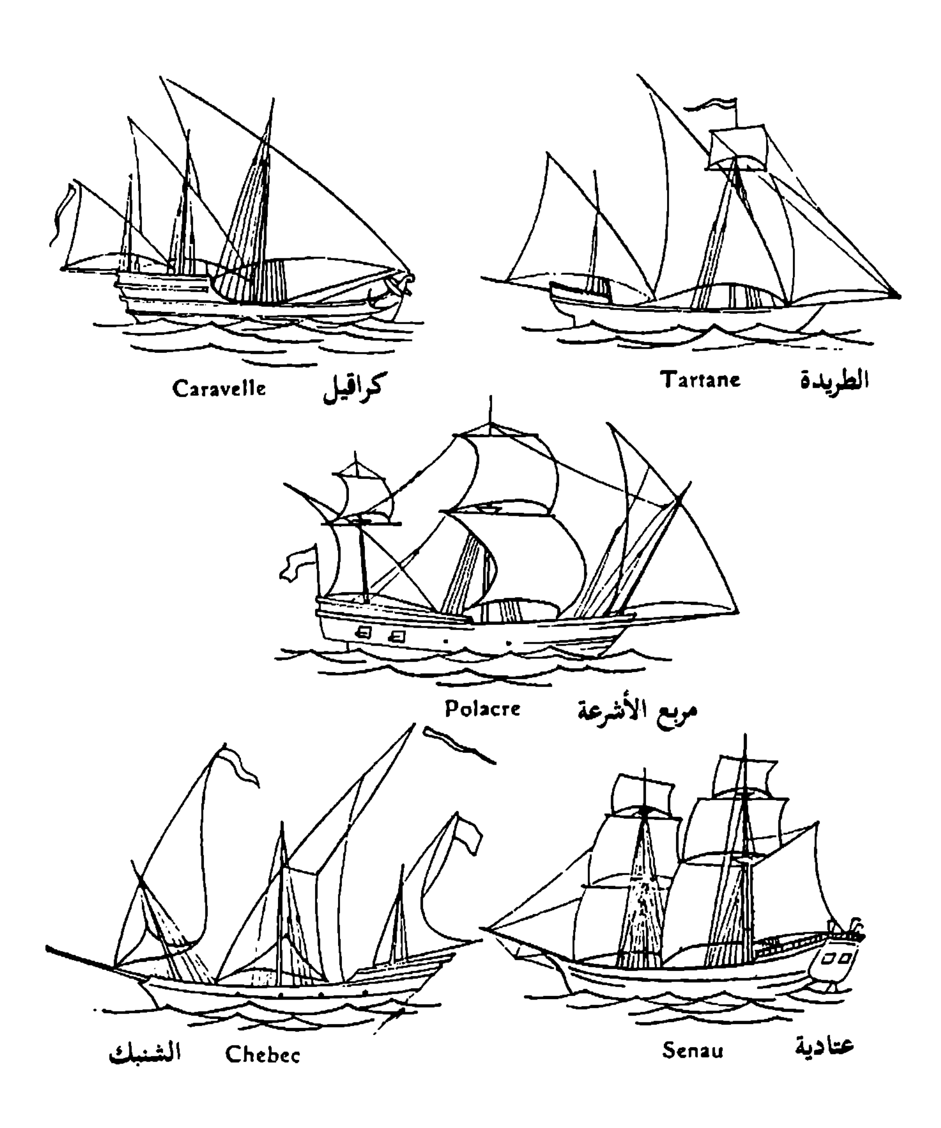
وفي بداية القرن السابع عشر كان لمربعات الأشرعة ــ مثلها مثل السنابك ــ صاري أمامي ينحنى على المقدمة مع شراع كبير لاتيني مرفوع على هوائي ويحمل الصاري الكبير شراعين مربعين شراعا كبيرا وشراعا أعلى أما صاري الكوثل فقد كان مجهزا بشراع لاتيني وشراع أعلى مربع. وقد تعرض هذا التجهيز إلى كثير من التعديلات فبعض نماذج مربعات الأشرعة جُهزت مثل السنابك بأشرعة لاتينية محمولة على صواري بينما مربعات اشرعة أخرى كانت تحتوي على ثلاثة صواري عمودية بشراع وقلوع مربعة.

وقد كانت مربعات الصواري المسطحة العمق ذات وزن مرتفع نسبيا إذ تتراوح حمولتها مابين 200 و 300 طنة وكانت تستجيب بصورة خاصة للشروط التي تتطلبها سفن أسطول سلا، ومن حيث تجهيزها للقرصنة فقد كانت تشتمل على نحو عشرين قناة للمدافع وكان طاقمها في المتوسط يصل إلى 200 رجل.

أما طراز الكرافيل فهي مثيلة (سانتاماريا لكريستوف كولومب 1492) أول سفينة مستديرة نجحت بصورة خاصة، وهي تمتاز بالسرعة حيث كانت تقطع المسافة الواقعة بين بالوس Palos وسان سلفادور (San Salvador) في 35 يوما معتمدة في معظم الوقت على تيار الريح، وقد كانت مميزاتها المتطورة تضمن سلامة وأمنَ تحويلها في أي إتجاه، وكانت الكرافيل السلاوية نموذجا منبثقا من النوع الاسباني، فقد كان طولها يتراوح بين 22 إلى 25 مترا وعرضها 8 أمتار وحمولتها تصل على الأقل إلى 150 طنة. أما تصريتها فكانت تتألف من 3 صواري علاوة على صارى مائل. وأما تجهيزها فكان يشتمل على نوعين من الأشرعة، أشرعة رباعية للملاحة بالتيار الورائي وأشرعة لاتينية للملاحة بالتيار القريب جدا وذلك للاستفادة اكثر ما يمكن من الرياح، وكان سلاحها يتألف من 8 الى 10 مدافع إضافة إلى مابين 20 و25 منجنيقا، وطاقمها يتألف من حوالي 150 رجلا، وقد كان هذا النوع من السفن هي التي يقودها سنة 1630 أميرال سلا الشهير موراتو الرايس.

أنواع السفن المستعملة من طرف القراصنة

LE MATÉRIEL NAVAL



وكان يشار في بعض الأحيان إلى وجود خفافات (قوارب صيد) بين وحدات أسطول سلا وكان يستعمل هذا المصطلح في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وهي قوارب خفيفة وسريعة ذات جؤجؤ مربع تسير بالشراع والتجديف، وكانت تحتوي في الغالب على ثلاثة صواري وطولها يبلغ 134 قد ما من جؤجؤها إلى كوثلها وعرضها 28 قدما ونصف ـــ أما خفافات دي بسكاي (de Bescaye) التي كان البعض منها يجهز للقرصنة في البحر من طرف السلاويين فكانت أصغر من الخفافات العادية فلم يكن طولها يتعدى 50 قدما وعرضها 12 قدما وكانت في الغالب وبعامة تجهز للصيد. وأخيرا وخلال القرن الثامن عشر أصبحت هذه التسمية تطلق على القوارب الطويلة والخفيفة التي خصصت لخدمة المراكب الكبرى.

ومن خلال التعداد الطويل لاسماء بواخر القرصنة السلاوية نجد من بينها إسم (كراكة). ومن الأكيد أن هذا الاستعمال خاطىء وكان الأحرى أن يطلق عليها اسم الكرافيل أو مربعات الأشرعة أو غيرها. وعليه فالكراكة في الواقع مركب كبير عالى السطح من نوع الهلقس أو الغيلونة يمكنها نقل 1500 الى 2000 طن، وهي من أكبر البواخر في العالم آنذاك ولا تمكنها الملاحة في عمق أقل من 10 امتار، كما أشار إلى ذلك (P.Fournier) بول فورنيي. وفي الظاهر فان مراكب من قياس هذه الأحجام لايمكنها أن تستعمل للقرصنة.

وقد استعمل قراصنة سلا خلال القرن الثامن عشر السفينة ذات الصاريين وهي نوع من القلعيات التي لها صارى كبير في كوثلها وصارى صغير يحمل قرن الشراع. وكانت ذوات الصاريين السلاوية المخصصة للقرصنة مسلحة جدا نظرا لخفتها، فكانت تحمل مابين 14 الى 20 مدفعا. وكان بعضها يصل إلى حمل 24 مدفعا وكان طاقمها يتألف من 100 إلى 110 رجال.

وإن مصطلح فرقاطة الذي شاع استعماله وشاع في أوساط القراصنة لهو المصطلح الذي يؤدى الى اكبر غموض والتباس، ذلك أن العرب يستعملون فرقاطة للدلالة على البارجة أو الباخرة الحربية التي تحمل مدافع، وهكذا نرى المؤرخين العرب والرواة الأوروبيين يجعلون مصطلح فرقاطة عاما لايستطيع أن يحدد أي نوع من البواخر.

وكان يطلق إسم الفرقاطة على السفن ذات 200 طنة والمسلحة بـ 24 مدفعا والمؤلف طاقمها من 300 رجل بينما يطلق نفس المصطلح على مراكب من 30 طنة،

ومسلحة باثنين إلى أربعة مدافع وأربع منجنيقات مع طاقم يتألف من 60 رجلا.

وكان القراصنة يهتمون بكل عناية للاحتفاظ بتفوقهم في مجال السرعة التي كانت عندهم أثمن وسيلة لعملياتهم. ومن أجل ذلك يسهرون على نظافة سفنهم وإعادة طلائها بصورة مستمرة.

وبالاضافة إلى عنصر السرعة كان على القراصنة، لنفس الأسباب التكتيكية، أن تكون لهم حرية كبيرة في التحرك على سطوح السفن من كل نوع. وكانت كفاءة المجدفين السلاويين ذوي الشهرة الواسعة لايجدون أمامهم أي عائق من حيث تجاوزهم لجرف أبي رقراق والدخول الى الميناء أو الخروج منه متحدين صعوبة وخطورة هذا الجرف.

وكان على البحر ان يكون هادئا أو ذا نسيم ضعيف حتى يمكن للقراصنة الهجوم أو الشرود بدون أية صعوبة تذكر. وكان امتلاكهم للمجاديف والسيطرة عليها يعطيهم تفوقا بينا على جميع السفن المشحونة بالبضائع ويسهل عليهم اقتناصها. وفي هدوء كامل كانت الفرقاطات الأوروبية المستسلمة لعجز اشرعتها، تجد نفسها معزولة من أي سلاح أمام القراصنة الذين كانوا ينسحبون بجهد عضلات مجدفيهم، وقريبا عرف هذا العائق وأصبح موضوع الاهتمام من طرف رؤسا القوات البحرية المكلفة بمحاربة القرصنة.

ولقد كان القراصنة يضحون بكل غال ونفيس على سطوح سفنهم حتى تكون لها أعلى سرعة ممكنة وأكبر قوة هجومية.

فالسكن والمواد الغذائية الضرورية لطاقم السفينة وللعدد الكبير من المحاربين الذين يوجدون على ظهرها، كانت متقلصة الى أقصى مايمكن أن يتصوره خيالنا في عصرنا الحاضر. فلم يكن لقراصنة سلا فوق سفنهم أي صندوق أو خزانة ولا أي مكان شاغر. فالحمولة الضعيفة لهذه السفن كان يحتفظ بها لتركيب القطع المدفعية وتزويدها بما تتطلبه من ملح البارود والأسلحة المختلفة. ولهذا كان القراصنة السلاويون متفوقين جدا من حيث السلاح وعدد المحاربين على نظرائهم الذين يمتلكون سفنا أوروبية.

ولم يكن أسطول القرصنة السلاوية من حيث العدد كبير الأهمية فعدد السفن المجهزة لحملاتهم السنوية كان جد متغير. ففي عهد الجمهورية الموريسكية حيث

بلغت القرصنة أوجها كان عدد السفن المستعملة من طرف القراصنة يتراوح بين ثلاثين وأربعين قطعة بحرية وأكبر عدد وصلت اليه هو ستون سفينة حسبما ذكره مؤرخو هذه الفترة.

وحسبما ذكره الاميرال الانجليزي رينسبروغ (Rainsborough) انه في سنة 1637 كان السلاويون يملكون مابين 40 الى 50 سفينة من بينها حوالي عشرين تحمل مابين 12 الى 20 مدفعا وفي سنة 1648 غادرت اربع سفن مسلحة باثني عشر الى أربعة وعشرين قطعة من المدافع القديمة ميناء سلا باطقمة عديدة للقيام بالقرصنة.

وخلال النصف الثاني من القرن السابع عشر انخفض عدد السفن بسرعة. ففي سنة 1656 «لم يكن للسلاويين سوى ستة سفن من بينها عتادية واحدة» كما كتب ذلك دى فرى (De Vries) الى حكومته. وفي سنة 1669 لم يكن للقراصنة سوى تسعة بواخر مسلحة. وفي سنة 1687 كان عدد السفن يتراوح مابين 8 و10 واقواها كانت تحمل ١٢ مدفعا وطاقما مكونا من 250 رجلا.

وفي القرن الثامن عشر كان عدد القراصنة السلاويين يبلغ في المعدل حوالي 10. وفي سنة 1785 وحسبما ذكره شنيي فإن الأسطول المغربي كان يتألف من 6 إلى 8 فرقاطات وحوالي 12 غيلوطة. لكن هذه السفن لم تكن كلها ترسو بميناء سلا فالبعض منها كان يرسو بالعرائش او الصويرة كميناء قيد.

وكانت السفن التي يتكون منها أسطول القرصنة بسلا تأتي :

— إما من أوراش بناء السفن المحلية (أو مايسمى بدار الصناعة)
— وإما سفن مقتناة من الخارج.
— أو سفن ماسورة من غنائم البحر.

وصناعة بناء السفن بالمغرب عريقة القدم. فمنذ القرن الثاني عشر كانت توجد أوراش بحرية على الضفة اليسرى لوادي سبو. وقليل منها كان يوجد بالمعمورة. ونعلم أيضا أنه في القرن الثالث عشر انشئت دار صناعة السفن بسلا لارضاء حاجيات الجهاد في العصر المريني وقد اعطت هذه المؤسسة ضربة قاضية لازدهار ورش بناء السفن بالمعمورة لكن التقدم السريع لدار الصناعة بالضفة اليمنى لابي رقراق جعل ورش المعمورة يتوقف عن العمل كليا، إذن فمن الأكيد أنه لا أوراش سبو التي اهملت منذ زمن بعيد ولا أوراش سلا التي غمرتها الرمال، تكون قد

تدخلت في بناء السفن القرصنية وتصنيعها ويتعلق الأمر بسفن قراصنة القرن السابع عشر.

وحسب ما أورده مويط (Mouette) [1] فإن أوراش بناء السفن كانت تتموقع عند أقدام منارة حسان، يعني في الرباط، أو ماكان يعرف بسلا الجديدة (Salé neuf).

ويذكر ماسينيون انه في بداية القرن السادس عشر إنشيء الاسطول الشهير للقرصنة السلاوية، وينسب هذا الانشاء للاجيء غرناطي مستعيدا حرب القرصنة التي ابتدأت من طرف رجال أنفا وبادس. لكن هذه الافادة المقدمة من طرف ماسينيون غير صحيحة. فالقرصنة الحقيقية لسلا لم تبتدىء إلا في السنوات الأولى للقرن السابع عشر. ومن غير المقبول أيضا القول بأن صناعة السفن بالمغرب مستوردة من إسبانيا.

وحينما كانت تقتصر الاوراش المغربية على بناء الوحدات ذات الأحجام الصغيرة (من فليكات وقوارب ومرفئات) فلم يمكنها قط الاستغناء عن المساعدة الاجنبية سواءا من حيث المستخدمون أو من حيث المعدات.

وقد توصل السكان بعد تعلمهم إلى تكوين يد عاملة مؤهلة تأهيلا مناسبا لكن رؤساء العمال والنجارين والجلفاطين وباختصار كل التقنيين والمختصين كانوا من أصل أوربي — واغلبية هؤلاء قدموا من البرتغال وأنجلترا وهولندا، والكثير منهم وظفوا من بين المنشقين أو الذين صاروا منشقين بعد أن طاب لهم المقام زمنا طويلا بسلا. وقد كانت حاجة الأوراش المغاربية لليد العاملة الأجنبية تزداد طبعا بالتتابع كلما تعقد بناء السفن المستعملة لغاية القرصنة.

ولم تكن تنقص ضواحي سلا الموارد الطبيعية الملائمة لصناعة بناء السفن، فالغابات الممتدة إلى الشمال وإلى الشرق على مساحة أكثر من 300.000 هكتار — غابة المعمورة — كانت تنتج الخشب الممتاز القابل للاعمال الكبرى لبناء السفن. إذن كان يمكن تركيب الهياكل في الأوراش المغربية لكن كل ماكان يتعلق بالتجهيز والتسليح كان من اللازم استيراده من أوروبا، فالصواري وعدتها وحبال القنب

(1) علاقة الأسر ص : 13.

والبكرات وعتاد السفن وتوابع هيكل السفينة والمجاديف وقماش الشراع وزفت الجلفطة، إضافة إلى قطع المدافع ومختلف الأسلحة، كلها كانت تستورد من الخارج.

وكل هذا يدل على أن المغاربيين كانوا بحاجة أكيدة وماسة إلى الاعانة الخارجية لبناء سفنهم وبالخصوص السفن الكبرى.

وبالرغم من صدور أوامر عليا من البابوات بمنع تصدير الأسلحة إلى الدول الاسلامية قصد استعمالها في الحروب البحرية فان هذه الأوامر لم توخذ بعين الاعتبار من طرف أية دولة مسيحية سوى فرنسا، إلا أن لويس الرابع عشر سمح بتصدير الكبريت إلى المغرب رغم احتجاج القنصل ج.ب. استيل الذي كان يرى المغاربة يستخدمون الكبريت في صنع ملح البارود والذي ذكر في احدى رسائله[1] متحدثا عن الكبريت «انها بضاعة كانت ممنوعة التصدير إلى افريقيا بأمر من جلالة الملك وقداسة بابا الكنيسة لاسباب منطقية وجد ثمينة»[2].

وقد كانت البلاد الوطيئة التي تعتبر إسبانيا عدوا مشتركا تقترب من المغرب وتكون بصورة خاصة أكبر ممون للايالة الشريفة في المعدات البحرية. ولذلك يمكن القول بأن المعونة الهولندية الدائمة والفعالة للمغرب جعلت من هولاندا بحق الترسانة الحقيقية للمغرب.

ومنذ التوقيع على معاهدة 24 دجنبر 1610 بين البلاد الوطيئة ومولاي زيدان، فإن الولايات العامة للاقاليم المتحدة وافقت على بناء ثلاثة أو أربعة سفن كبرى بامستردام من حمولة 200 طنة تقريبا مصحوبة بطاقم القيادة وقنوات المدافع اللازمة. وقد عين قادة هذه السفن وقباطنتها بقرار من الولايات العامة ليكونوا رهن اشارة وخدمة ملك المغرب لكن رواتبهم كانت تؤدى إلى نسائهم، وكان البحارة المعنيون بتجهيز هذه السفن يوقظون صباحا على صوت الطبل بمدينة امستردام أو غيرها.

وفي الحقيقة فإن هذه السفن التي كانت نهايتها لسوء الحظ تدعو إلى الرثاء والاشفاق لم تساهم بأي نصيب في القرصنة السلاوية لكنها كانت تمثل ضمانة

---

(2) رسالة من ج ب إستيل إلى بونتشارتر بتاريخ 28 فبراير 1694، المصادر المخطوطة، السلسلة 2، فرنسا المجلد 4 ص 249.

للمساعدة المادية التي كان الهولانديون يبذلونها بسخاء للشريف في ميدان التسليح البحري والذي كان نشاطه مقرونا بالقرصنة.

وفي نونبر 1613 طلب السلطان مولاي زيدان للبلاد الوطيئة أن تزوده بمركب كبير ويخت مرة أخرى. وأعطت الولايات العامة موافقتها على هذا الطلب. لكن إدارة روتردام الحذرة قدمت احتجاجا قويا بهذا الصدد مدعية بان هذه التجهيزات البحرية لن يكون هدفها سوى قرصنة البحر وأسر كل مايمكن أن يقع تحت رحمة مدافعها.

وقد قدمت الولايات العامة الدليل تلو الآخر تجاه مختلف الملوك المغاربة على حسن مجاملتها التي لاينضب معينها. وهكذا ففي 23 مارس 1645 كانت قد كتبت الولايات العامة إلى مولاي محمد الشيخ مايلي :

«لقد سمحنا ووافقنا للقائد محمد بن عسكر المبعوث إلى هولاندا من طرف الجلالة الشريفة بإمضاء عقد يتفق وقوانين وأعراف هذه البلاد مع اي تاجر، لبناء وتجهيز سفينة مسلحة بـ 20 قطعة مدفعية، أو بشراء سفينة جاهزة من هذا القبيل علاوة على أننا مستعدون لاعطاء الاذن والافضلية بذهاب هذه السفينة للمغرب»[3]وهذا تعبير صريح على الارادة الحسنة. إلا أن الصفقة لم تكمل. وبعد سنوات عديدة، أعطى حادث بروفيت دانييل الفرصة للبلاد الوطيئة للتدليل والبرهنة عن استعدادها للمصالحة. وقد اعتبرت السطو من طرف القبطان برفيت دانييل (Prophete Daniels) ــ على السفينة القرصنية لوسولاي (Le Soleil) الذي كان رئيسها أحمد القرطبي، أمرا غير قانوني. وقررت الولايات العامة كإصلاح للضرر ان تزود السلاويين بسفينة من نفس الحمولة ونفس التسليح كتعويض عن السفينة التي دمرها القرصان.

ومن المناسب الاعتراف بأنه بالرغم من الجهود والتواطؤات التي كانوا يمارسونها بأوروبا، فإن قراصنة سلا لم ينجحوا إلا بصورة استثنائية في الحصول على سفن كاملة التجهيز من دولها. وبالعكس من ذلك فتزويد القراصنة بالأسلحة والمعدات البحرية تتابع بصورة منتظمة طيلة فترة القرصنة السلاوية رغم الأوامر الرسمية المتعددة الصادرة لمحاربة التهريب.

(3) المصادر المخطوطة، البلاد الوطيئة، المجلد 5 ص : 96.

ففي سنة 1612 كانت الولايات العامة قد وافقت لصالح مولاي زيدان على تزويده بـ 600 بندقية و6000 رطل من البارود والفتائل والرصاص وألف رمح. وأمام النمو الكبير الذي اتخذته التجارة في اتجاه الشواطىء الغربية للمغرب مع هولندا، فإن إمارات امستردام وروتردام اللتين كانتا مرتابتين في أعمال المجهزين وتنعتهم بالتهريب والتواطؤ مع القراصنة بصفة مباشرة أو غير مباشرة، تدخلت لدى الولايات العامة لتبين السلبيات الناتجة عن إرسال الأسلحة الحربية إلى المغاربة القاطنين بالشواطىء الغربية حيث يتزايد نمو القرصنة يوما عن يوم. لكن الحكومة الهولندية المهتمة بالمحافظة على العلاقات المربحة مع المغرب بقيت غير مبالية بمطالب الامارتين. ففي سنة 1624 استطاع مهربون برتغاليون كانوا مقيمين بسلا ان ينقلوا من هولاندا إلى سلا كمية كبيرة من الأسلحة والعتاد الحربي لصالح مراد الرايس أميرال سلا وقائد القصبة. وكانت تتكون هذه الصفقة من 10.000 رطل من قنابل المدافع و2000 رطل من بارود المدفع و120 بندقية فتيلة وعشرة قناطر من الكبريت و200 مجداف.

وقد ظلت أوامر منع تصدير معدات الحرب إلى المغرب الصادرة سنتي 1624 و1641 حبرا على ورق بالنسبة لحركة التهريب التي كان يمارسها بصفة خاصة يهود من أصل برتغالي مقيمون بهولاندا مثل بنجامن كوهن وحايم طوليد انو وغيرهما كثير.

وفي رسالة مؤرخة بـ 28 فبراير 1694 بعث بها ج ب. إستيل إلى بونتشارترن (Pontchartrain) يخبر فيها بأن شحنة هولاندية هامة من السلاح قامت بنقلها سفن أنجليزية وهولاندية إلى ملك المغرب مقابل وعد من هذا الأخير بتحرير ستين أسيرا هولنديا. وكانت هذه الشحنة من السلاح تحتوي على البارود والبندقيات والأشرعة وعدة الصواري لسفن القرصنة التي كانت تبنى في سلا.

ولاريب أن الهولنديين الذين كانوا يمونون المغرب بالاسلحة ومعدات الحرب كانوا يرون في ذلك عملية تجارية جد مثمرة. وكانوا يوجهون السلاح إلى سلاطين المغرب مثل مايزودون به الرعايا المنشقين على السلطة الشريفة. فابتداء من سنة 1620 كان يستفيد من تهريب الاسلحة على الخصوص الموريسكيون والأولياء المعارضون بصورة علنية أو سرية للشريف ـــ مما جعل مولاي زيدان يقدم بهذا الصدد شكايات واحتجاجات تلو الأخرى عن طريق سفير المغرب بلاهاي يوسف بيسكاينو إلى الولايات العامة.

وانكلترا بدورها لم تستثن نفسها من التجارة مع القراصنة، فاستيراد المجاديف للسفن الحربية من أصل أنجليزي كان جد معروف منذ القدم في المغرب الذي يزود انجلترا بالمقابل، بالجلود والصوف وفي بعض الأحيان بالذهب وبصفة خاصة بملح البارود المرغوب فيه جدا.

وفي سنة 1581 لم يسمح السلطان مولاي احمد بتصدير ملح البارود الا مقابل تسليم خشب بناء السفن. وفي سنة 95 ـ 1594 زود الانجليز الشريف بالمجاديف والبنادق الواسعة الفوهات ومختلف الاسلحة التي كان بحاجة اليها لتجهيز السفن الحربية والغيلوطات المسلحة في سلا ضد الاسبانيين.

إن قدر القرصنة لم يضع حدا لهذه العلاقات التجارية المشبوه فيها. ففي سنة 1626 بينما كان قراصنة سلا يسببون أخطارا جسيمة لتجارة المملكة المتحدة، فإن شارل الأول لانجلترا كان يسمح لرعاياه بالتجارة مع المغرب متراجعا عن قرارات المنع السابقة. وفي السنة الموالية فإن جون هارنسون (John Harnison) من مجلس أمير الغال أصبح المتكلم الرسمي بلسان الموريسكيين وكان قد أفرغ بميناء سلا شحنة من الاسلحة المختلفة الموجهة للقراصنة والمتكونة على الخصوص من ستة قطع مدفعية و150 رمحا.

واستمر تهريب الأسلحة لصالح السلاويين طيلة القرن السابع عشر وقد اشار هنري برات (Henri Prat) قنصل فرنسا في المغرب في مذكرته المؤرخة بـ 8 يونيه 1669 إلى سلع التهريب التي كان يحملها الانجليز والهولانديون إلى سلا وتطوان مثل البارود والقرابينات والحديد والحبال والصواري وغيرها من المعدات البحرية[4].

وقد كانت التبعية للخارج فيمايخص تجهيز وتسليح أسطولهم، تكون أكبرهم للسلاويين والشرفاء. وهكذا كان ممثلوا القراصنة في جميع مفاوضاتهم مع الدول الغربية يحاولون بإصرار وقوة تزويدهم بمعدات الحرب البحرية. ففي سنة 1629، كان حاكم سلا قد أطلع رازيلي (Razilly) بأنه اذا كان الفرنسيون يرغبون في السلم وتسلم اسراهم فيجب عليهم إعطاء مائة قطعة ومليون ليرة[5]. ومعاهدة 17 شتنبر 1631 الموقعة بين

(4) المصادر المخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 1 ص : 273.

(5) Ibid ص : 414.

لويس الثالث عشر. ومولاي الوليد تنص في بندها السادس على مايلي : «اذا كان أمبراطور المغرب بحاجة إلى سفن وأسلحة لاستعمالها في خدمته فيمكنه الحصول عليها من فرنسا لكن بشرط أن لايستعملها ضد اصدقاء الجلالة الشريفة» وفي معاهدة 13 ماي 1637 بين شارل الأول وسيدي محمد العياشي كانت انكلترا قد تعهدت بإعطاء «جميع معدات الحرب من مدافع وغيرها وبارود ورصاص والتي سيكون مولانا الامام بحاجة اليها[6]».

وفي نهاية القرن السابع عشر فإن السلطات السلاوية كانت ترغم قباطنة ورؤساء السفن التجارية التي ترسو بميناء سلا على اداء جزء من حقوق الرسو يتمثل في برميل بارود. وقد عارض هذا الطلب بشدة قنصل فرنسا ج.ب. إستيل (J.B.Estelle).

ولنفس الغاية ضاعف السلطان سيدي محمد من إرسال السفراء إلى السويد وانكلترا وقسطنطينة. وكان يعهد إلى مبعوثية هؤلاء بالعمل على جلب عدة صواري السفن والبارود والمدافع والبرونز — ولقد كان الرايس عبد الكريم ركون التطواني جد سعيد بسفارته إلى السلطان العثماني حاملا إليه أضخم الهدايا، إذ قفل عائدا من سفارته للمغرب مصاحبا معه «سفينة مشحونة بالمدافع والمدرعات البرونزية مع دخيرتها من السلاح وعدد الصواري اللازمة لسفن القرصنة كالصواري والمراسي والأشرعة والحبال وغيرها من المعدات البحرية. وقد حملت هذه السفينة الثمينة معها بعثة من الخبراء في فن صناعة المدافع والمدرعات والقنابل وكور المدافع وكذلك في فن بناء السفن[7]».

وقد كان بناء السفن بأحواض سلا بصفة عامة رديئا رغم النداءات المتكررة للمعونة الخارجية، فاحواض أبي رقراق التي كانت ناقصة المعدات والرافعات للقطع الكبرى من الهياكل الخشبية، ظهر عجزها واضحا لارضاء الطلبات على السفن من النوع الاوروبي التي كان سلاطين المغرب يريدون تزويد بحريتهم بها في القرن الثامن عشر. فلم يكن بإمكان الفرقاطات التي بنيت في المغرب أن تنافس مثيلاتها التي

---

(6) المصادر المخطوطة، إنكلترا، المجلد 3، ص : 291.

(7) الربائد المغربية، المجلد 9 ص : 309.

بنيت بالأحواض الأوروبية، فقد كانت مدة استخدام السفن المبنية بالمغرب لاتبلغ سنتين إلا نادرا.

وفي سنة 1767 عزم السلطان سيدي محمد علي أن تكون له منشأة بحرية حديثة كفيلة بتلبية حاجات الأسطول الكبير الذي كان يحلم بتحقيقه. وحاول أن يصنع من رمال ابي رقراق الترسانة القديمة لسلا. وكان يفكر لتحقيق مخططه الطموح هذا في الاعتماد على الخبراء القادمين من قسطنطينية مع الرايس ركون، لكن الدراسة الاولية الرصينة أظهرت ضرورة القيام بخدمات هامة تتطلب على الأقل عشرين سنة ونفقات باهظة، مع ان القرصنة صارت غير ذات مردودية منذ زمن ولّى وهكذا أهمل هذا المشروع الكبير وهو لايزال في مرحلة التخطيط والتصميم.

وفي القرن التاسع عشر انهارت الأوراش المغربية لبناء السفن الكبرى ولم يعد في إمكانها سوى بناء القوارب والمرفئات، حسب إمكاناتها المحدودة.

وإذا لم تكن لدينا معلومات «مدققة ومفصلة عن بناء السفن بسلا فإننا نعلم بأن قراصنة سلا والجزائر كانوا يولون أهمية قصوى لبرقشة كواثل سفنهم وتجميل مؤخراتها. ففي سنة 1669، كانت فرقاطة جديدة بنيت بسلا من حمولة 90 طنة ومسلحة بـ 10 مدافع وتحمل طاقما مؤلفا من 180 رجلا، قد وضعت في كوثلها صورة شمس مذهبة ومحدودبة. وكانت سفن أخرى تضع في كواثلها إما صورة هلال أو ملاك أو مزهريات ذات أزهار ملونة أو نخلة مع صورة وعلين أبيضين[8] وكانت السفن الصغيرة المبنية باوراش سلا تضع عادة في كواثلها صورة نجم. أما الفرقاطات السلاوية للأسطول الامبراطوري فكانت ترسم في مؤخرتها تحت البرقشة العادية رسم نعال النبي لتجنب عين السوء، كما كانت ترسم كثيرا على هياكل السفن الصغيرة يد فاطمة الزهراء.

وكان جزء كبير من أسطول القرصنة بسلا يتكون من السفن المأسورة فمنذ 18 أبريل 1610 أخبر البارون فوسلاس سفير فرنسا بإسبانيا «بأن الموريسكيين الذين عبروا الى افريقيا وبعض السفن أخذوا يقرصنون في البحر ويجهزون السفن التي ياسرونها لنفس الغاية». وقد كان القراصنة طيلة مدة حركتهم يفضلون استعمال

(8) مصادر مخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 1 ص : 279.

السفن المأسورة لتلبية حاجياتهم. وإذا كانت هذه السفن في حالة جيدة ومن النوع الذي تتطلبه القرصنة من حيث السرعة فإنها كانت تسلح وتجهز من طرف مجهزي السفن بسلا. ففي لائحة لسفن القرصنة بسلا بتاريخ فاتح غشت 1669 توجد من بين تسعة سفن في المجموع أربعة سفن مأسورة مقابل خمسة مصنوعة بسلا.

وإذا كانت السفن التي تسقط في أيدي القراصنة غير صالحة للقرصنة فإنهم يكتفون بإزالة ماتشتمل عليه من عدة الصواري وعتادها والتجهيزات الصالحة للاستعمال من مراسي وسلاسل ورافعات ورحويات وحبال دون التحدث عن المدافع ومختلف الأسلحة التي كان يمكن ان توجد على ظهرها.

قلاع لاتينية

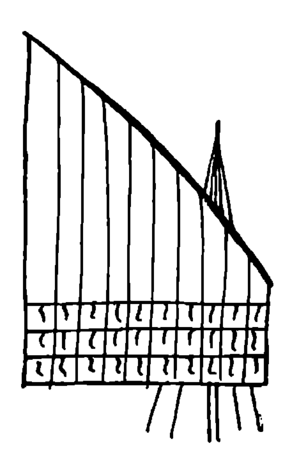


Fig. 1.

Voile latine
(ris en éventail)

Voile arabe
(ris par en bas)

الفصل السادس

عمليات القرصنة والرحلات البحرية

حقل عمل القراصنة بسلا ــ الحملات السنوية للقرصنة ــ مختلف أنواع العمليات ــ الهجومات العسكرية المفاجئة على الشواطىء ــ الرحلات البحرية العادية للقرصنة ــ الحملات البعيدة ــ العمليات في ايسلاند أو الشواطىء الانجليزية ــ السلاويون على شواطىء الأرض الجديدة ــ مبادىء الملاحة الثبجية خلال القرن السابع عشر ــ الملاحة التخمينية ــ الملاحة الفلكية ــ الآلات والوثائق المستعملة في الملاحة ــ الربابنة المغاربيون ــ الميزات الخاصة للغارات السلاوية البعيدة.

لقد كان مسرح عمليات قراصنة سلا بصورة أساسية هو المحيط الأطلسي أو البحر الغربي.

ويلاحظ انهم كانوا يقومون ببعض الجولات في البحر الأبيض المتوسط وبصورة خاصة على طول الشواطىء الاسبانية وفي أنحاء جزر البليار، لكن هذه الجولات كانت قليلة. وكان يدعى القراصنة الجزائريون أن لهم حق احتكار القرصنة بالبحر الشرقي ولايقبلون أي منافس لهم في مياههم إلا بصعوبة.

كما كان مضيق جبل طارق يكون نوعا ما الحد الفاصل بين مجال عمليات القراصنة الجزائريين ونظرائهم بسلا. وقليلا ماكان قراصنة سلا يتجاوزون هذا الحد بعكس الجزائريين الذين لهم امتياز القوة والأقدمية في القرصنة فقد كانوا لايتورعون عن ممارسة نشاطهم في المحيط الأطلسي سواء كان ذلك لحسابهم الخاص أو بالمشاركة مع زملائهم المغاربة في الغنيمة. ولم تكن تسمح الظروف الجوية السائدة في المحيط الاطلسي والشواطىء المغربية للسفن السلاوية الصغرى بمجابهة البحر طيلة السنة. فخلال فصل الشتاء، لم تكن العواصيف العاتية للمحيط الأطلسي وحدها هي التي تجعل الملاحة خطيرة بالنسبة للسفن الصغرى، بل أن جرف أبي رقراق الرهيب والمخيف في آن واحد كان يعوق الدخول الى الميناء أو الخروج منه مدة تتراوح بين 15 الى 20 يوما في الشهر. وهكذا كان الأسطول السلاوي مجبرا على قضاء فصل الشتاء بالواد.

وعلى العموم كانت تمارس القرصنة في شكل حملات سنوية تبتدىء من شهر أبريل وتنتهي في اكتوبر بحيث لاتتجاوز على الأكثر ستة الى سبعة أشهر. إلا أنه في نهاية القرن السابع عشر كانت بعض الغارات المعزولة تنفد في فصل الشتاء من طرف بعض القراصنة الذين يمتطون سفنا من حمولة قوية.

وهكذا ففي يناير من سنة 1672 قام أحد قراصنة سلا أمام رأس سان فانسان (Cap St-Vincent) بمهجامة طريدتين حيث غرقت أحداهما وأجبرت الأخرى على أن تنقلب جانبا[1].

ويمكن تصنيف عمليات قراصنة سلا في ثلاثة أنواع من العمليات :

---

(1) المصادر المخطوطة : السلسلة الثانية، فرنسا، المجلد 1 ص : 408.

أ ــ الهجوم المفاجىء على الشواطىء.
ب ــ الحملات على مسافة قريبة أو متوسطة من الميناء.
ج ــ الغارات البعيدة.

ففي السنوات الأولى لنفى الموريسكيين من إسبانيا كان هؤلاء المنعشون الحقيقيون للقرصنة يتمتعون بعلاقات جد متميزة مع شبه الجزيرة الايبرية، وبناء على ذلك أمكنهم أن يقيموا على الفور شبه مخابرات ناجعة لنجاح عملياتهم. وهكذا أقيمت شبه شبكة تجسس بين سلا وإسبانيا ــ وهذا ماأشار إليه بول دان وهو يتحدث عن هذه العلاقات التي احتفظ بها المنفيون من إسبانيا :

«فبما أنهم إسبانيو الأصل أو منشقون فانهم يعرفون لغة البلاد التي يدخلونها متنكرين لمراقبة السفن الاسبانية التي تخرج من الموانىء الاسبانية أو غيرها».

وقبل أن يغامر قراصنة سلا في المياه العالية كانوا يمارسون نشاطهم بمساحلة الشواطىء الاسبانية. وقد كان الصيادون الاسبانيون العزل من أي سلاح فريسة سهلة في متناول القراصنة. وبما أن هؤلاء كانوا ضحية اعتداءات متكررة فقد كانوا يعيشون حالة استنفار دائم. وقد قال سيرفانطيس (Cervantes) في هذا الصدد : «ان أكثر من صياد كان يرى غروب الشمس في اسبانيا ويراها في نفس الآن تشرق في تطوان».

وإذا كانت الظروف مواتية فأن القراصنة يستغلون معرفتهم للاراضي للقيام بحملات جريئة داخل هذه الاراضي حيث كثيرا ماكانوا يستولون على السكان الذين يوجدون على طول الشاطىء. فكانوا يهجمون على القرى الهادئة النائمة ويأسرون سكانها دون تمييز بين الجنس أو السن. وفي بعض الأحيان كانوا يعكرون صفو حفلات ومسرات بالبادية، فخلال هذه الحفلات أو تناول الطعام فوق الربيع يظهر فجأة رجال بسراويل حمر وبرانس بيض وهم يصيحون ياكلاب سلموا أنفسكم لرجال سلا، فكانت تنقلب النزهة الى رعب الأسر والفرح إلى قرح.

ومهما يمكن أن يكون ذلك مدهشا ومذهلالنا في العصر الحاضر فإن هذه الهجمات على الأرض لم تكن تكتسي أي صبغة استثنائية في القرن السابع عشر، حقا إنها كانت تثيرفي العالم المتحضر تأثرا كبيرا حيث كان قراصنة الجزائر وسلا يقومون بها دون اي خجل. وكانت تصل الى اسماع البلاطات الأوروبية مساومات صفيقة. ففي سنة 1631 كتب قنصل انجلترا الى حكومته مستعجلا لها باتخاذ تدابير صارمة

ضد الوقاحة المتزايدة لما سماهم بالبربريين، وجاء في تقريره عنهم : إنهم يقولون دون أي قلق أو أي انزعاج، «اذا لم تسرعوا بإرسال الفدية فإنهم سيهاجمون انكلترا لاخراج الرجال من فراشهم كما اعتادو القيام بذلك في إسبانيا».

واتسمت فترة الهجومات المفاجئة على الشواطىء الاسبانية بقصرها، فالحيل الذكية التي كان يستعملها القراصنة بالاندلس أصبحت نادرة وغير مأمونة العواقب اذ شرع سكان الشواطىء في أخذ الحيطة والحذر بعدما أصابهم من أضرار ورعب. ولهذا فالهجومات على الأرض صار ضررها أكبر من نفعها.

وكان المحيط الأطلسي ــ الذي يعتبر أكبر حقل لعمليات القراصنة ــ يمثل ميدانا للاقتناص قليل الاستغلال، ومجالا تكثر فيه الغنائم الكبيرة الحجم والأقل خطورة من البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فالقراصنة الجدد الذين كانوا يريدون خوض غماره كان يساورهم الطموح للحصول على أكبر الغنائم وكانت السفن الاسبانية قبل كل شيء هي الخصم المفضل الذي يبحث عنه القراصنة، لكن حلاوة الكسب والغنيمة جعلتهم يلغون من حسابهم كل اعتبار آخر غيرها ولذلك أخذوا يقرصنون بدون تمييز كل التجار المسيحيين الذين يعبرون المحيط أمام شباكهم، فقد أدت السفن الفرنسية للقرصنة السلاوية أكبر الغنائم بعد السفن الاسبانية.

وكان قراصنة سلا يمارسون عملياتهم في رقعة يتراوح شعاعها مابين 500 الى 600 ميل بدءا من قاعدة انطلاقهم ــ فالحقل العادي لعملياتهم كان يمتد من غرب الشواطىء الافريقية وشبه الجزيرة الايبرية الى جزر الاسور، ومن الجنوب الى جزر الكنارى ومن الشمال مع قليل من الدقة، يحدها الخط الموازي لرأس فنستير (Cap Finsterre) بأقصى الشمال الغربي لاسبانيا.

وعند أول انفراج للجو معلنا نهاية الفترة الطويلة لرداءة البحر في فصل الشتاء ــ من نهاية فبراير الى أواسط مارس، حسب حالة الجرف ــ يأخذ عدد قليل من القراصنة باخراج أسطولهم والقيام بجولات قصيرة. وكانوا يتجهون على العموم الى مضيق جبل طارق بين رأس سان فانسان وسانت ماريا، لكن في شهر ابريل تخرج في العادة جميع السفن السلاوية المجهزة من الميناء وفي الغالب تكون منقسمة الى جماعتين، أو فريقين فريق يتجه نحو الشمال وفريق نحو الجنوب وكانا يقومان برحلاتهم البحرية على مسافات مختلفة من الشواطىء حسب ظروف المناخ والبحر.

وفي بداية حملتهم، ولما يكن الطقس غير مامون، كان القراصنة يتلافون الاقتراب من الشواطىء الخطيرة ويتجولون خاصة بقرب سان فانسان ولايتجاوزون قط خط جرز البيرلانك (Iles Berlingues).

وعند اقتراب الموسم الجميل وفي شهر ماي بالضبط ياخد السلاويون في الصعود نحو شواطىء البرتغال وإسبانيا وبصورة خاصة نحو رأس فنستير وأورتكال (Ortigal)، والبعض منهم كان يقلع نحو الشرق في اتجاه رأس بانياس (Cap Panias)، بحثا عن السفن التي تستعمل مينائي كاليس (Galice) وأستورى (des Asturies)، والبعض الآخر كان يخطط لرحلاته البحرية بين رأس فنستيروجزر الاسور.

وخلال شهور فصل الصيف تبلغ القرصنة أوجها. فكان القراصنة لايترددون في الاقتراب من الارض التي تكون هدفا لمغامراتهم. فبينما كانت الغليوطات ذات المجاديف تمارس نشاطها بالمضيق وعلى شواطىء البرتغال من رأس روكا الى رأس سانت ماريا فان شراعيات القراصنة الخفيفة كانت تهاجم بالمساحلة القوية بين الرؤوس البحرية الاسبانية والبرتغالية، كما كانت السنابك الكبرى ومربعات الأشرعة الأكثر إقداما وجسارة تواصل حملاتها الجريئة الى نقط بعيدة المدى في خليج كاسوني (Golf de Gascongnes) ، المحاذى لشواطىء جنوب فرنسا، مطاردة لتجار بوردو وبيون ولا روشيل ونانت والهافروديب حيث كانت تجارة الخمور رائجة في اتجاه البرتغال وقادس وجزر الاسور ومادر (Madère).

وعلاوة على المناطق المفضلة لدى القراصنة من جزر الكنارى ومادر والاسور، فان النقط المتصلة بالشمال والتي تكثر فيها فرائس القرصنة السلاوية، كانت هي المناطق القريبة من اشبونة وسواحل رأس سان فانسان التي كانت تستقطب البواخر القادمة من أمريكا أو جزر الانتيل (Iles des Antilles).

وكان بعض القراصنة الجريئن مصحوبين بسفنهم الكاملة التسلح يترصدون عند مصب التاج (Tage) كل سنة وخلال شهر شتنبر عودة الاسطول البرازيلي، لكن الغيلونات الكبرى المشحونة جدا بالتوابل والمعادن الثمينة والتي كانت تنتظرها اسبانيا بكامل القلق كانت على العموم تأخذ كامل حيطتها وحذرها من القراصنة. فزيادة على تسلحها المرعب، كانت تتمتع بحماية الفرقاطات الحربية التي تبعث بها إسبانيا لاستقبالها وخفرها. وهكذا لم تكن هذه الفرائس الممتازة سهلة الوقوع في أيدي

القراصنة مهما بلغت جرأتهم إلا بصورة استثنائية ونادرة.

وفي نهاية موسم الصيف يؤدى الهلع من الرياح العاتية للخريف بسفن القرصنة للابتعاد عن الشواطىء من جديد. فالبعض منها يظل ممارسا لعملياته في الشمال ولكن في حدود البعد عن الشاطىء بـ 80 إلى 100 ميل فقط. والبعض الآخر يسير نحو الجنوب حيث تكون ظروف المناخ الطف وأرحم، مطاردا السفن المشحونة بالخمور من موانىء جزر الكنارى أو السفن المعزولة عن الأسطول الفضي والمتجهة نحو الجنوب والتي تمر على مراي من العين بقرب الشاطىء المغربي.

وفي أواخر شهر اكتوبر يعود أسطول القرصنة بكامله الى الميناء، باستثناء بعض السفن المتأخرة، ليقضى فصل الشتاء بملاجئه المنيعة ومخابئه الحصينة.

ونادرا ما كان قراصنة سلا يمارسون عملياتهم بصورة انفرادية فكثيرا ما كانوا يكونون فرقا صغيرة من سفينتين إلى ثلاث قريبة من بعضها البعض ومستعدة لبدل النجدة والمساعدة في كل حين.

وكانت جزر بايونا (Iles Bayona) عند مدخل خليج فيكو (Vigo) وجزر سيزار كاس (Iles Sisargas) تمثل الاماكن الرئيسية للرسو العارض للقراصنة في حملاتهم بالشمال. وكانت سفنهم تحتمي هناك من رداءة الطقس كما كانت تجدد تموينها بالماء والغذاء الطريين مستعملة غواطسها لحماية هياكلها.

وفي الشواطىء المغربية كان القراصنة يتوفرون على عدة قواعد إضافية ومساعدة.

فتطوان التي تحتمل دخول السفن الصغرى من حمولة لاتتجاوز 60 طنة كانت بالخصوص ميناء للغليوطات العاملة في مضيق جبل طارق. كما أن تحدار، عند مصب واد تحدرات بشمال أصيلا كانت تستخدم بصورة عرضية كملجأ للسفن الكبرى السلاوية.

ولم تكن المعمورة عند مصب واد سبو تمثل لدى القراصنة اهمية خاصة سيما في فترة الاحتلال الاسباني لها (1614 — 1681) لكنها استعملت من طرفهم بعد تحريرها من طرف المغاربة. وكانت المعمورة غالبا القاعدة المهمة للأسطول المغربي الشريف.

ولعبت فضالة دورا مهما في عمليات القرصنة فعند عودة القراصنة من جولاتهم البحرية وتلافي الحصار -الذي تقوم به سفن الاعداء في بعض الاحيان عند مصب أبي رقراق كانوا يتفادون الدخول لميناء سلا.

وكانت فضالة على بعد 40 ميلا الى الجنوب ملجأ القراصنة المفضل عند مساحلتهم للشاطىء المغربي. وكان القراصنة يستعملون حيلا ذكية في عين المكان لمعرفة الوجود المحتمل لسفن الاعداء أمام ميناء سلا. وتتمثل هذه الحيل في النار والدخان وبعض الاشارات المتفق عليها في اليابسة. وفضالة بمرساها السهل الدخول، كانت خير ملجأ للقراصنة سواء عند احتمائهم من رداءة الطقس أو عند إحباطهم لعمليات العدو.

وازمور على مصب أم الربيع كانت مرفأ خطيرا قليل استعمال الا أن القراصنة كانوا أحيانا يقودون غنائمهم اليها والوليدية التي تقع على بعد 15 ميلا في الشمال الغربي لرأس كانتان (Cap Cantin) ـــ والتي تكون بحيرة شاطئية. سهلة الدخول للعارفين بها ـــ كانت تكون أحسن ميناء للرسو العارض للقراصنة العاملين بالجنوب. إذ يجدون فيها الا من الكامل لرسو سفنهم وتزودهم بحاجاتهم الغذائية، منتظرين الظروف المواتية لالتحاقهم بقاعدة سلا.

وأسفى، التي تقع على بعد 30 ميلا الى جنوب الوليدية، لم تكن سوى مكلاء مكشوف في بعض الاحيان لتوقف القراصنة العائدين من جزر الكناري إذا كانت الرياح معاكسة لهم، أو منعتهم حالة البحر من دخول الوليدية.

ولاريب ان حملات القرصنة في عرض الشواطىء الافريقية وشواطىء شبه الجزيرة الايبرية أتت أكلها وافضت الى نتائج باهرة. لكن الشهرة الكبرى لقراصنة سلا كانت ناتجة عن انتصاراتهم المفاجئة المتتالية.

وكان بعض قراصنة سلا المتفوقين بمؤهلاتهم وميزاتهم الاستثنائية ينظمون خلال النصف الأول من القرن السابع عشر حملات جد بعيدة عن مينائهم، متجاوزين الاطار العادي لنشاطهم الزاخر فهي التي جعلتهم يتمتعون بتلك الشهرة الخارقة للعادة والتي بقيت على مر الحقب حتى يومنا هذا نماذج حية للجرأة البحرية المتطرفة واستمرت على كل حال رائعة حقا وملفتة للأنظار.

ولنذكر أنه في فجر القرصنة السلاوية سنة 1622 كان المنشق جان جانس

المعروف بمراد الرايس يبحر من سلا الى هولاندا وطنه الأصلي. ومنذ هذا التاريخ صار بحر المانش معبرا دائما لقراصنة سلا والجزائر. وقد أطفئت شعلة ليزار (Feude Lisard) في حد الجنوب الغربي لانجلترا، لان القراصنة كانوا يهتدون بها.

وفي سنة 1625 أبحرت ثلاثون سفينة من ميناء سلا قاصدة انجلترا وكان يؤكد عمدة بلميوت وبمبالغة واضحة، بأنه خلال هذه السنة أسر القراصنة المغاربيون ألف سفينة من المناطق الغربية لأنكلترا.

وفي سنة 1626 استهدفت شواطىء بلاد الغال من طرف قراصنة سلا الذين أسروا خمس سفن للكونتي لكلاموركان (Conté de Glamorgan) وفي سنة 1627 يحقق مراد الرايس اكبر صنيع له في إسلندا على رأس أسطول صغير مكون من ثلاث سفن كانت من نوع الكرافيل.

وفي سنة 1631 ظهر هذا القرصان الجرىء بدخوله لايرلندا، كما قام ثلاثون قرصانا مغاربيا بتدمير الشواطىء الانجليزية وتخريبها وقد أسر واحد منهم من سلا عند مصب نهر، التمير (la Tamise).

وتتابعت الحملات السلاوية على الشواطىء الانجليزية طيلة سنوات عديدة وحقبة من الزمن مديدة. وكان القراصنة يظهرون في الشواطىء الانجليزية وعبر المانش في مطلع كل ربيع من السنة فيأسرون السفن الانجليزية ويجبرون ربابنتها على قيادة سفنهم الماسورة نحو الوجهة التي يريدها القراصنة. وكان هؤلاء يقيمون بعرض مياه جزر سورلنكى (Iles Sorlingues) ورؤوس كورنواى (Caps de Cornouailles) متربصين سفن الصيد العائدة من الأرض الجديدة. والبعض منهم كان يتجول عند مصب سفيرن (Severn) وقناة سان جورج للهجوم على سفن التجارة بين انكلترا وإيرلاندا.

وكان السلاويون يعتمدون في عملياتهم هذه على المساعدة ــ وحقا كان في صفوفهم كثير من المنشقين الهولانديين ــ التي يجدونها في البلاد الوطيئة وخاصة في فليستك (Flessingue) حيث كان بإمكانهم التزود بالمواد الغذائية الضرورية وحتى بالسلاح في بعض الأحيان.

ومهما كانت حملات القرصنة التي يقودها المغاربيون في المياه البريطانية الى اسلاندا، رائعة حقا وملفتة للانظار، فان القراصنة السلاويين كان بامكانهم ان يقوموا

بأحسن من ذلك في هذا المضمار.

فقد أدى اقتناص الصيادين بالأرض الجديدة، الذين يكونون الفرائس المفضلة عند القراصنة، بالسلاويين الى انجاز أكبر صنائعهم الباهرة. ففريق منهم من ذوي الجرأة والجسارة الفائقتين لم يكن يرضيه أسر الغادسات — سفن صيد الغادس — في مياه بحر المانش بل كانو يغامرون الى مناطق الصيد نفسها، «فعلى الدكات الصخرية لموقع هافردى كراس (Havre de Grace) وحدها، قاموا بعمليات تدمير غريبة من نوعها حيث وقع تحت قبضتهم خلال سنتين نحو أربعين سفينة بريطانية وحيث أغرقوا البعض منها واقتادوا البقية إلى مخابئهم وموانئهم[2].

ومنذ سنة 1624 ظهرت في الارض الجديدة وعلى شواطىء أكاديا (Acadie) الأساطيل الصغيرة المغاربية مكونة من عشرات الوحدات البحرية لقراصنة سلا والجزائر.

وقد أدى نبأ الانتشار الواسع هذا للقرصنة البحرية الى خلق صدمة قوية في نفوس البحارة مما نتج عنه أن نظمت وجهزت بعثات بحرية وحملات مكونة من سفن حربية وخافرات لضمان وحماية الصيادين الذين طلب منهم علاوة على ذلك أن يبحروا مجتمعين ومتضامنين. وفي سنة 1637 أرسل أول أسطول بريطاني لمهاجمة سلا تحت قيادة الاميرال رينسوروك (Rainsboroug) وكان الهدف الرئيسي لهذا الأسطول هو منع القراصنة من الهجوم على صيادي الأرض الجديدة والتصدي لهم بكل قوة.

ومع ذلك فقد بقي شمال المحيط الاطلسي مسرحا لعمليات القرصنة السلاوية خلال سنوات عديدة. ففي سنة 1641 كان سكان كونتى دى دو فون (Conté de Devon) الذين يعيشون على حصيلة الصيد بالدكات الصخرية، مازالوا يشتكون من خسائرهم التي يسببها لهم قراصنة الجزائر وسلا.

ولتقدير المميزات العليا للحملات البعيدة المسافة للقراصنة، فمن المفيد التذكير بأن الطرق التي كانوا يستعملونها في الملاحة الثبجية — الملاحة في أعالي البحار — كانت جد سريعة.

---

(2) تاريخ بعثة دي بول كابوسان (des P. Capucins) في المغرب لمؤلفه بول فرانسوا دا ـي (P. François d'Aanger) 1926 المنشور في المصادر المخطوطة، السلسلة 1 فرنسا، المجلد 3 ص : 147.

وإلى القرن السادس عشر لم يكن البحارة يعرفون منهجا آخر، لتوجيه سفنهم بعيدا عن رؤية الشاطىء، سوى الملاحة بالتخمين، والتي بواسطتها يعرف موقع السفينة، إذ يخمن اتجاه الطريق المتبعة والمعبورة منذ الاقلاع الأول أو من آخر موقع معروف بدقة.

وكانت الآلات الاساسية المستعملة لتحديد النقطة المخمنة هما البوصلة والمسراع.

وقد بدأ استعمال البحارة للبوصلة في القرن السادس عشر، وهي تحتوي على عقرب ممغنط مركز على محور يوجه ويعرف باتجاه وردة الرياح (rose des vents) كما تسمح بتحديد طريق السفينة، تحت تحفظ التصحيحات الضروية للبيانات التي تعطيها والتوجهات التي تؤشرها.

وفوق سطح السفن الخشبية فان تخمينات الانحراف أو الانعطاف على العموم ضعيفة لان هذه التخمينات ليست الا أخطاء آلية للبوصلة، ولاريب انها كانت تهمل كليا من طرف الربابنة القراصنة، بالرغم من جهلهم لضبط البوصلة والذي يعني إلغاء الاخطاء أو التقليل من حدتها.

وفي المناطق المعروفة والمعبورة من طرف البحارة بصورة مستمرة فان الحدور المغناطيسي كان على العموم معروفا جدا من طرف الربابنة. والقيمة الكلية لم تكن مهمة في بحر الشمال (حوالي عشر درجات)[3].

وقد بقي العنصر الغير المؤكد للتخمين هو الانحراف الذي يسمح بتقدير المسافة التي انحرفت اليها السفينة خارج طريقها المعتاد، تحت تأثير الريح أو التيارات[4]. وبالنسبة للشراعيات يمكن الانحراف أن يأخذ أهمية كبيرة تبعا لظروف المناخ والبحر.

والمسراع : الذي عرف مبدأه منذ القدم، كان موجودا خلال القرن السادس عشر تقريبا في شكله الحالي. وهو معوم خشب صغير يربط بكوثل السفينة، يبقى

---

(3) إن الانعطاف هو الفرق بين رأس البوصلة والرأس الممغنط. والحدور هو الزاوية المشكلة عن طريق اتجاهات الشمال الممغنط والشمال الجغرافي. فالعدد الجبري للانحراف والحدور يسمى تغيير، إذن انها الزاوية التي يشكلها «رأس البوصلة» مقروءة على وردة الرياح (Rose des vents) مع «الراس الجغرافي».

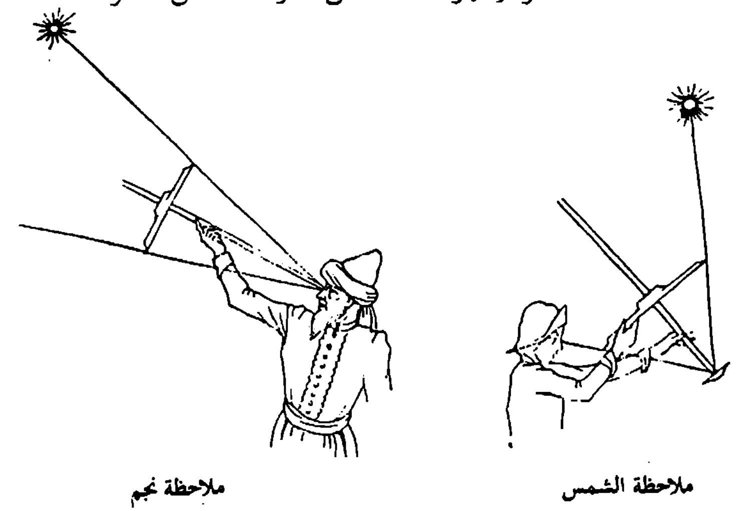
(4) إن الانحراف هو الزاوية التي يشكلها محور السفينة مع الطريق المتبعة حقيقيا.

مستقرا فوق الماء لقوته، ويعطي من خلال طول الخط المعبور في وقت معين، مقدار السرعة التلقائية على الماء بصورة تقريبية في حالة السفن القليلة السرعة. لكن حينما يتعلق الأمر بالشراعيات المتغيرة السرعة بصورة دائمة تبعا لقوة واتجاه الرياح وتبعا كذلك للتعديلات المدخلة على قلوع السفينة فان بيانات المسراع كانت غير كافية للتحديد الدقيق لمعدل السرعة.

والحاصل أن تحديد نقطة ما بالتخمين بقى في معظمه «قضية تقدير» وكانت فنية الربان ومهارته في البحار العالية تبرزان في تقديره القريب ماأمكن لمختلف العناصر السالفة الذكر وخاصة عنصرى الانحراف والانعطاف وبالرغم من أي حدس خارق للعادة، وهو نوع من الذكاء البحرى، الذي كانت تدل عليه هذه التطبيقات، فان التخمين لمسافة طويلة كانت تعتريه على الدوام أخطاء جسيمة وصار من اللازم تصحيحها بملاحظات فلكية دقيقة.

وقد ظهرت الملاحة الفلكية بمعناها الحقيقي في نهاية القرن السادس عشر وينطلق مبدأها بالاساس من الغاء التخمين كليا والاعتماد فقط على حساب موقع السفينة من خلال احداثياتها الجغرافية وعلى وسيلة ملاحظات الكواكب (من شمس ونجوم) وبمعونة جداول أوروزتامات تعطى الاحداثيات الجغرافية لهذه الكواكب.

وإن الالات الأولى التي استعملت من طرف البحارة لمعرفة وقياس ارتفاعات النجوم اي قياس المسافة الزاوية للكواكب فوق الأفق، كانت الأسطرلاب والقوس (l'arbalet) المستعملين بيسر وسهولة ابتداء من القرن الخامس عشر.



ملاحظة نجم ملاحظة الشمس

وكان القوس (والمسمى أيضا بعصا يعقوب) يشتمل بالاساس على مسطرة مرقمة (السهم) تنزلق عليها عارضة تسمى بالمطرقة. فالملاحظ الفلكي يحرك العارضة بإبعادها أو تقريبها من عينيه بكيفية ترمى (تصمم) بالطرفين على النقطتين (الكوكب والأفق) التي يراد منهما قياس المسافة الزاوية. فارتفاع الكوكب (الشمس او النجم) على الأفق، يستنتج من قراءة بسيطة على السهم تبعا لوضع المطرقة — ففي حالة النجم، تمارس الملاحظة المباشرة، بوضع العين أقرب مايمكن من طرف المسطرة المرقمة. (انظر الرسم 2). واستعمال القوس لم يكن يسمح إلا بملاحظات غير متقنة وغير دقيقة فتدقيقها من فئة درجتين ونصف مما يمكن ان يؤدى الى خطأ العرض بمقدار 150 ميلا.

أما أسطرولاب البحر فكان آلة أقل بدائية ورغم بساطته، فهو يحتوى على دائرة مرقمة من البرونز تحمل حلقة متحركة تسمح بقبضه عموديا معلقا بأصبع. وفي وسطه علقت، بواسطة حلزونة باذنين، عضادة بواسطتها يصوب على الكوكب المراد ملاحظته. وكان يقرأ ارتفاع الكوكب هذا على الأفق مباشرة على تدرجات الدائرة.

والتدقيق المعطى من هذه الآلة الذي يعتبر اعلى من تدقيق القوس، كان بمقدار درجة واحدة . وكان يسمح كل من القوس والاسطرلاب وبمساعدة الروزنامات بتحديد خط العرض وبخاصة عن طريق ملاحظة الزوال أو مرور الشمس منه إذ عرف مبداه سنة 1530 . وأما الروز نامات التي تبين الاحداثيات الشمسية أو الكواكبية اللازمة لحسابات الملاحة البحرية فكانت هي الجدوال الالفونسية التي أسست من طرف علماء عرب قدموا من غرناطة بطلب وإغراء من ملك قشتالة الفونس العاشر الملقب بالعاقل أو الفلكي .

ولم يكن تحديد خط الطول — الذي ليس الا فرقا للساعات بين خط الزوال السماوي للمكان وخط زوال أصلي — أكثر وثوقا ودقة من تحديد خط العرض نظرا لصعوبة حمل الساعة آنذاك.

وفي الواقع لم تبرز لحيز الواقع الساعة البحرية الأولى إلا في أواسط القرن الثامن عشر . فإلى هذا التاريخ، لم يكن البحارة يتوفرون على ساعة كفيلة بمعرفة الزمن من خط الزوال الأصلي (باريس أو كرنويش) وكانوا يبحرون في خط العرض. وقد كان ربابنة البحر الغربي منشغلين جدا بمساحلة الشواطىء لمعرفة الساعة المحلية، نظرا

لخضوعهم لمد البحر وجزره، ولهذا كانوا يستعملون آلات مختلفة مثل : نوكترلاب(nocturlabe) والساعات الشمسية السهلة النقل. وكانت حياة البحارة في البحر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر منظمة بالساعة الرملية التي تعطى بيانات زمن تقريبية تعدل وتصحح عن طريق ملاحظة القيلولة.

وان المعاهدات البحرية التي كانت في أغلبها إسبانية كانت تعطى وسائل تحديد نقطة ما عن طريق ملاحظة الكواكب. وفيما يتعلق بحساب خطوط الطول فالوسائل كانت تجريبية ومبنية على الملاحظة وكثيرا ما تكون خاطئة. كما أنه كان يوجد في نهاية القرن السادس عشر، تعليمات بحرية غربية محررة في شكل أسئلة وأجوبة على طريقة التعليم المسيحي، وهي غريبة حقا من حيث عدد الملاحظات ودقتها.

وفيما يخص الخرائط البحرية فلم تكن الا وثائق بدائية الى حين اكتشاف «خطوط العرض المتنامية» والمستعملة من طرف الجغرافي البلجيكي مركاتور (Mercator) الذي كان في خدمة شارل كان (1569)[8].

ومن المحتمل ان صناديق الخرائط لقراصنة القرن السابع عشر كانت تحتوي على بعض خرائط مركاتور كما تحتوي بصورة خاصة على دليل للسواحل، وهي نوع من الرسوم شبه المنظورة لتبيان ملاجىء الرسولكنها غير ملائمة لرسم طريق في أعالي البحار.

وباختصار كانت هذه هي حالة علم الملاحة البحرية أيام كان السلاويون يقومون بمغامراتهم في المحيط الأطلسي.

وليس لدينا أي وثيقة دقيقة تطلعنا على مناهج الملاحة التي تبناها القراصنة بصورة خاصة. ونعرف أنه كان يوجد على سطح كل سفينة قرصنة أحد المنشقين الذي يقوم بمهام ربانها. باستثناء بعض الحالات النادرة التي يكون فيها الرايس ملما ببعض مبادىء الملاحة، ورغم ذلك كان عليه أن يضع نفسه كليا رهن إشارة الربان ليقود سفينته.

وقد كان الربابنة يختارون من طرف الرايس، لامن أجل معارفهم ومؤهلاتهم البحرية العامة ولكن يختارون أيضا، وحسب الحاجات الملحة لأجل معرفتهم الخاصة

بالمناطق التي تكون هدفا للرحلات البحرية التي يصمم لها القراصنة. وهكذا عهد مراد الرايس بخدمات غزوة لايسلندا الى ربان دانمركي. ونعلم ان الأمر كان كذلك بصورة عامة بالنسبة للبحارة البريطانيين الذين يقومون بمهام ربابنة للمغاربيين في بحر المانش والشواطىء الانجليزية إذ نجد أيضا ربانا انجليزيا هو الذي كان يقود سفينة الرايس العربي المسترى حينما ذهب الى لوندرة بصفته سفيرا سنة 1764. وأخيرا فقد قاد كثير من البحارة الفرنسيين السلاويين الى السواحل الصخرية للأرض الجديدة (la terre neuve) اثناء الفضيحة الكبرى لبول فرانسوا دانجي (P.François d'Angers).

ومن المفترض ان الملاحة البحرية المستندة على التخمين كانت هي السائدة لدى الربابنة المغاربيين. وهي الملائمة للجولات القريبة من الشاطىء لكن الملاحظات الفلكية كانت ضرورية لهؤلاء القراصنة الذين يقومون بالرحلات البعيدة المدى ويفقدون رؤية اليابسة أياما طويلة وعديدة. وبصورة أساسية استعملت آلة القوس في هذه الرحلات الثبجية. ولم تكن أطقمه سفن القرصنة تقدر قيمة هذه الآلة دون ان يشوبها الحذر منها اذ كانوا يسندون إليها طبيعة خفية وخارقة للعادة وشريرة في آن واحد وفي هذا الصدد يحكي كوس بان القرصان الجزائري الكبير سنان (يهودي سمبرن «Juif de Smyrn » كان يتهم بامتلاكه السحر الأسود محددا أي نقطة في البحر بوسيلة القوس.

ويمكن ان نستخلص من خلال التوضيحات الآنفة الذكر بان حملات القراصنة على الارض الجديدة كانت الأكثر روعة وجرأة بالنسبة لجميع الرحلات التي قاموا بها على مسافة بعيدة من نقطة انطلاقهم بسلا، ومن مصب بحر المانش ومن شرقة الى غربه كانت تعبر مسافة اكثر من 1800 ميل خارج اليابسة وفي مناطق يسودها الجو الغائم ورداءة البحر مما يجعل من الصعب على البواخر الصغيرة مواجهتهما، ورغم أن ايسلاندا تقع على نفس المسافة من ميناء سلا، فقد كانت فريسة سهلة وميسورة للسلاويين. وكان عبور السفن يتوجه على العموم من الشمال الى الجنوب كما كان أيضا معين الاتجاه بشواطىء شمال الايكوس (l'Ecosse).

وكانت الشواطىء الصخرية للأرض الجديدة يملاؤها الصيادون الانجليز والفرنسيون بصورة منظمة ومستمرة. ومنذ نهاية القرن السادس عشر اخذ قراصنة سلا والجزائر يصلون الى نفس الشواطىء للقيام بمغامراتهم مما يجعلهم موضع إعجاب وتقدير استثنائيين. وفي الواقع فان مؤهلات الفريقين ومواهبهم كانت جد مختلفة. فبينما

كان الأولون مبعوثين وموجهين في ذهابهم ومجيئهم من طرف سفن حربية ويجدون أنفسهم محررين من أي خوف من الملاحة في البحر وبإمكانهم طلب المساعدة حين الاقتضاء من خافريهم، نجد القراصنة المحدودي الوسائل ملزمين فضلا عن ذلك بتلافي المواجهة الخطيرة بينهم وبين الفرقاطات المكلفة بحماية الصيادين.

ونجهل المميزات الحقيقية للسفن التي كان يستعملها القراصنة في رحلاتهم البعيدة. ولعلها بدون شك كانت من فئة الكرافيلات والسنابك وغيرها، هذه السفن التي لاتتجاوز أبعادها 25 الى 30 مترا طولا وخمسة الى ستة أمتار عرضا ومن حمولة 250 طنة على الأكثر ومن الصعب تصور الظروف المرعبة التي كان يعيشها خلال أشهر بكاملها مائة الى 200 رجل مكتظين في سفنهم الصغيرة وعلى كل حال لايمكن لأحد أن يطارد شعوره الحقيقي بالاعجاب لهؤلاء المغامرين الذين كان عليهم مواجهة طاقة جموحة صعبة الترويض منطلقين هكذا في اتجاه 2000 ميل من قواعدهم ومعرضين في سبيل فتوحاتهم وغنائمهم لأشد وأقوى مخاطر الملاحة البحرية.

وحينما تعود أطقمة السفن القرصنية الى اليابسة وبعد أيام طويلة من الانزواء المخيف كانوا يتأذون ويتذمرون من أي عائق يقف أمامهم أو يصدهم عن إرضاء شهواتهم الشرسة. وبما انهم خاضعون، وهم يمتطون سفنهم، لاقسى الضغوط وأشدها فقد كانوا يطمحون بعودتهم لليابسة الى التمتع باستقلال غير محدود. ومن الممكن ان نرى في هذه الثورة العارمة لعواطف ظلت زمنا طويلا مكبوتة، مصدر هذا الاهتياج الجموح الذي برهنت عليه الجمهورية الموريسكية وخاصة وبتدقيق في الحقبة التي حققت فيها القرصنة السلاوية أروع صنائعها المدوية وانتصاراتها الباهرة.

الفصل السابع
تكتيك المعركة لدى القراصنة

المبادىء العامة لتكتيك القراصنة ــ استعمال رايات وبيارق مزورة للبحث والتعرف على الخصم ــ القيام بالاتصالات الضرورية ــ الخدع الحربية ــ الطرق المختلفة للهجوم ــ المفاجاءة والمساحلة ــ المعارك وردود فعلها ــ مناورات شرود السفن وجنوحها بالرغم عنها ــ حصانة المبعوثين المكلفين بافتداء الاسرى.

إذا وضع الرايس السؤال التقليدي على نفسه : «ماذا يقصد بالاستراتيجي» فسوف يجيب بالتأكيد كالآتي :

هو من يحصل على اكبر غنيمة بأقل مايمكن من المخاطر.

وفي الواقع فلم يكن من هدف لقراصنة سلا سوى الهجوم على التجارة بالمحيط الأطلسي. إلا أنهم كانوا يحترسون من الوقوع في أيدي السفن الحربية والتجار الخطيرين لكور المدافع، هذه الكور التي يقذف بها التجار الأوربيون في أثر القراصنة. وحسب عبارة دي كاسترى (de Castries) «إنهم كانوا يفضلون جدا الفريسة الهادئة والغير المسلحة».

ومن خلال الابهة والزهو اللتين اصطبغت بهما عمليات القرصنة السلاوية يمكن القول بان هذه العمليات لم يكن لها طابع الهجومات العسكرية الحقيقية بل كانت كقاعدة عامة هجومات تعتمد بالاساس على مفاجأة الخصم الذي لاتمكنه المقاومة.

وكجميع القراصنة سواء غامروا في الارض أو بالبحر فان القراصنة المغاربيين سواء منهم السلاويون أو غيرهم لم يكونوا يعرفون سوى طريقة نصب الفخ والكمين. وكانوا يستغلون هذه الطريقة ببراعة نادرة مستغلين خدعا حربية متعددة، مشروعة أو غير مشروعة للاحتيال على خصومهم والسيطرة عليهم دون أن يتعرضوا هم لأي سوء أو أذى يذكر.

ولم يكن يعلن عن الغارة الحاسمة للسلاويين الا في حالة تفوقهم البين وهكذا كانوا يختارون ضحاياهم من بين السفن الغير المسلحة أو الضعيفة التسليح وهي تبحر وحيدة أو مفترقة عن رفيقاتها. وليتأكد القراصنة من إصابة هدفهم فلم يكونوا يغيرون قط منفردين ولهذا يشيربول دان بتحديد ودقة : «لم يكن هؤلاء البرابر يخاطرون بانفسهم إلا مع سفن كثيرة بعكس قراصنتنا فهم يبحرون منفردين وإذا ماخرجوا مجتمعين فان الزوابع والأعاصير كثيرا ماكانت تشتتهم» ويضيف قائلا : «ان القراصنة لم يكونوا يتعرضون لاقتناص التجار المسيحيين إلا إذا شعروا بأنهم الأكثر تفوقا وقدرة وبالعكس إذا كان الخصم قويا فانهم لايهاجمونه الا نادرا ولايدخلون معركة إلا إذا كانوا متأكدين من مردوديتها وجدواها الكبيرة».

ولهذا فالضحايا الاكثر عددا للقرصنة السلاوية كانت من بين السفن

الضعيفة الحمولة، أما غنائمهم الكبيرة من حيث حجمها أو قيمتها فكانت نادرة.

وحينما يهاجم القراصنة باخرة ما ويظهر رد فعلها قويا وأن معركتهم مشكوك في نجاحها، يتراجعون لاستعادة أنفاسهم والبحث عن فريسة أكثر يسرا وسهولة.

وهذه المبادىء التي اعتمد عليها القراصنة في عملياتهم ساعدتهم عليها كما أسلفنا ميزتان السرعة الفائقة والتسلح القوي اللتان بفضلهما كانوا يتوفرون على كامل الحرية في التحرك والمناورة في مواجهة أغلبية السفن التي يعترضون سبيلها.

إذن يمكن تلخيص استراتيجية القراصنة في البحث عن مفعول المفاجأة والهجوم بضربة مؤكد نجاحها.

وبقدرتهم الفائقة على الانتصار النهائي، وبفضل ما يتسمون به من جرأة وهيجان لاتمكن مقاومتهما، فقد كان السلاويون يعطون الدليل تلو الدليل على كبير حذرهم في البحث والتعرف على فرائسهم. وأثناء عملياتهم التمهيدية هذه كان لهم نصيب وافر من الشجاعة والتيقظ واللجوء الى الحيلة.

وفيما تمت للقراصنة السيطرة على الملاحة الثبجية، فقد كانوا يأخدون صبغة تجار نزهاء. وكانوا يخفون رايتهم وينشرون على رأس الصارية علم دولة أوروبية — إسبانيا أو فرنسا أو انجلترا — ولهذا يشير بول دان «P.Dan» «فتحت مظهر التجارة ومع علم اسبانيا الذي يرفعه القراصنة على سفنهم كانوا يسيطرون على البحر ويقتنون بدهاء مال الغير».

وإن استعمال البيارق المزورة كثيرا ما كانت حيلة جاريا بها العمل عند القراصنة، وقد طبقها السلاويون بمهارة وحذق خاصين، ونلاحظ بأن هذه الحيلة التقليدية للحروب البحرية كانت مقبولة ومشروعة عند جميع البحريات الى حقبتنا المعاصرة. وان قانون الشرف البحري يقضي بأن لاتفتح باخرة النار إلا تحت علمها الوطني[1]. إلا أن هذا التحفظ لم يكن ينسحب على القراصنة. ولم تكن البواخر التجارية الفرنسية من جانبها، تحرم نفسها من الملاحة تحت بيارق أجنبية. ففي سنة

---

(1) يمكن القول عموما بأن البوارج الحربية الحديثة ترفع عملها الوطني المصغر فوق كل واحد من صواريها من نفس اللحظة التي تطلق أولى رشقاتها النارية.

1689 ، أسر قراصنة سلا في رأس فانسان، باخرة فرنسية تحت راية جنوية. وكثيرا ماكان تجار قادس الفرنسيون يبحرون بسفنهم تحت بيرق برتغالي[2].

وعلى سطح بواخر القراصنة كان يوجد عدد كبير من المنشقين يتكلمون جميع اللغات من إسبانية وبرتغالية وفرنسية وايطالية وفلامان وأنجليزية ماجعل استعمال البيارق المزورة الاوروبية أكثر فعالية ومردودية ولايشعر بذلك ضحايا القراصنة إلا بعد اقترابهم منهم على مدى الصوت. وكثير من النجاحات التي حققها القراصنة كانت نتيجة لاستعمال الخداع والحيلة. وهكذا ففي شتنبر 1676 أتى ثلاثة قراصنة من سلا للرسو عند مصب التاج (Tage) تحت راية برتغالية. وقد ذهب جميع الاسطول الصغير للصيادين لاقتبالهم ظانا أنها سفن صغيرة تتقدم الاسطول البرازيلي الكبير وعارضا عليهم مساعدة إرفائهم إلى الميناء. وتوا أمكن للسلاويين وبسرعة أن ياسروا قرابة مائة قارب صيد وبنفس المناسبة أسرو كرافيل كانت عائدة من تيريرا (Téreira) بالأسور.

وقد كان السلاويون أكثر دهاء في استغلال امكانيات الاتفاقيات التي كانت تمضيها الدول الاوربية مع الولايات البربرية، وفي التحايل على الالتباس العادي لحالة العلاقات الدبلوماسية مع سلطان المغرب أو مع ديوان سلا. ولذا كان يعتقد في المغاربة الذين لم يكونوا في حالة حرب معلنة الا نادرا، أنهم من البرابر الذين لايمكن تقويمهم.

وحينما تكون مهمة القرصان هي الهجوم عن طريق المفاجأة، فان الاحتياط الأولى الذي يجب عليه اتخاذه هو أن لايترك نفسه عرضة للمفاجأة من غيره.

وهكذا كانت الحراسة ـــ مراقبة البحر من جميع الآفاق المنظورة من السفينة ـــ تكتسي أهمية قصوى لدى القراصنة. وكان يعهد بهذه الحراسة للمنشقين والمرتدين المختارين لهذه المهمة نظرا لحدة بصرهم أو لمعارفهم البحرية وكان الرقيب يجلس بأعلى الصواري في مقصورة مربوطة على طول الصاري وكان عليه أن يخطر على أكثر بعد ممكن بالسفن التي يراها.

---

(2) في رسالة بعثها القنصل الفرنسي بسلا برني Pérille، بتاريخ 12 يونيه 1689، إلى سنيلاي كان يشير فيها إلى النتائج الوخيمة الناتجة عن هذا التزوير والمتمثل في اكتساب البحارة الأجانب عن طريق الربح والشهرة على حساب مصالحها.

فإذ ضهر أن السفينة عليها يمكن الاقتراب منها دون أي خطر كبير بتدأ مناورات الاستيلاءعليها بعزيمة لا التواء فيها تحت قيادة الرايس ومع كامل الحذر والمراوغة، ويحكي كوس في هذا الصدد «إذا ما اقترب العدو يتظاهر القراصنة بتعقبه رافعين كل أشرعتهم لكي ينسحبوا إلى الوراء متباطئين في سيرهم بصورة تجعل الانقضاض عليهم سهلا ميسورا، وحينما تقترب منهم السفينة المحتال عليها تصبح الأكثر تعرضا للمفاجأة والأسر بكامل اليسر والسهولة».

وحينما يشعر القراصنة بقربهم من السفينة ينتقلون إلى الهجوم عليها ما عدا إذا كان هناك ما من شأنه أن يحول دو تنفيذ خطتهم.

وأمام الخصوم المغلوبين على أمرهم الذين يصبحون عاجزين أمام مفاجأة القراصنة لهم يبدأ الهجوم بقوة وصرامة، فطلقة المدفع الآمرة بالتوقف لسفينة الخصم تعطل إرادة التاجر الذي يأخذ القراصنة في إرهابه وإبطال كل مفعول لمقاومته، ويحكي كوس في هذا الصدد متحدثا عن هجوم القراصنة : «إنه لأمر مربك حقا حينما يهجم القراصنة على سفينة ما إذ يظهرون أولا على سطح السفينة مشمرين عن سواعدهم حتى المرافق والسيف الضلع ــ سيف عريض ومعقوف أصلا ــ بأيديهم منذرين جميعهم بصراخ مهول للقضاء على قوة ومعنوية سامعيهم، وبعد ذلك يأمرونهم بتسليم السفينة والبقاء على هذه الوضعية المطلوبة، هذا إذا لم يقم مدفع الخصم بتغيير خطة القراصنة ».

لكن إذا كانت السفينة المعترض طريقها أكثر وثوقا من نفسها وقابلة لان يكون فعلها خطيرا على القراصنة، حينئذ تستعمل طريقة الخدعة والمخاتلة لتنتهي بالقوة والعنف، إذ يترك القراصنة التهديد والتخوف مستعملين بديله المكر والخداع. فيحاولون استمالة خصمهم عن طريق الكلمات المعسولة والوعود الكبيرة بأنهم يعطون الحرية الكاملة لمن يوجد على ظهر السفينة : مما يظهر فيما بعد أنهم كانوا هازئين» (بول دان). وإذ يرفعون بيرقا مطمئنا ــ مثلا بيرق الجزائر إذا كانت لها علاقات حسنة مع بلد السفينة المنقض عليها ــ يحاولون إظهار نواياهم السلمية مؤكدين للطاقم والمسافرين بأنهم لا يرغبون في شيء غير التحقيق في طبيعة شحنة السفينة.

وكان شروق اليوم الجديد هو اللحظة الخطيرة التي تجب فيها مضاعفة اليقظة والحذر الكاملين. ويظهر لنا الرئيس الشهير لقراصنة المعمورة منوزيك (Mainwaring)

في مذكراته كيف كان القراصنة يأخذون حذرهم في الصباح الباكر حتى يكونوا متأكدين من رؤيتهم للغير قبل أن يراهم ؛ «إنهم كانوا قبل الشروق بقليل يضعون أشرعتهم وقلوعهم ويستمرون فترة من الزمن غير قصيرة في وضعيتهم هذه حتى يمكنهم اكتشاف السفن الفردية، وهي تمر أمام ناظريهم عن كثب، والانقضاض عليها».

وتوا حينما تظهر سفينة ما، كان من الازم التعرف على طبيعة الهدف المرئي، أهو خصم يجب تلافيه أم فريسة محتملة يجب أسرها ؟ ويمكن قراءة هذه الملاحظات التي دونها كاستري (Castrie) في كتابه : «تاريخ أسير مشترى بالمغرب» والتي تظهر لنا أيضا مبلغ الحيطة والحذر اللذين يتخذهما القراصنة قبل الإقدام على أي هجوم لهم» فعند اكتشافهم لشراع يجتهدون في التعرف على ما إذا كانت السفينة صغيرة أو كبيرة وهل هي سفينة ملك أم تأجر ويلحون في سؤال المنشقين عن الأخبار الواقعية لاكتشافهم لأن الخوف يتملكهم بسهولة كما يفكرون مليا هل سيكونون هم الاسرين أو يصبحون هم المأسورين».

وكثيرا ما يخدع القبطان البريء للحيلة. وتبعا لطلب المنشق ترجمان الرايس، يلقي القبطان بزورق صغير في البحر ويصعد لسفينة القرصان ليقدم أوراقه بسداجة. وفي بعض الأحيان يبدى الربان حذره ومقاومته فيرفض مغادرة سفينته لكن قليلا من رشقات المدفع كانت ترده إلى الصواب.

ويحكي مويط (Mouette) في كتابه علاقة الاسر (Relation de Captivité) (الصفحتان 8 و 9 : «أنه في إحدى الحالتين فإن المنظر التقليدي لصعود القراصنة للسفينة المأسورة لا يلبث أن يتكرر بمشهده المرعب والمخيف، إنها جماعة من المغامرين الثائرين الملوحين بأسلحتهم من فؤوس وأسلحة وسيوف، كانت تقتحم سطح السفينة صارخة هائجة، مستعدة لضرب البحارة والمسافرين، دون تمييز بين عمرهم أو جنسهم، وكان القبطان وأهم أفراد الطاقم، من الأوائل الذين يلقون سلاحهم عاجزين عن أية مقاومة وحينما يضع القراصنة غنيمتهم تحت سيطرتهم، يبدأ بتفتيش الأساري حتى المواضيع الأكثر سرية وبعدئذ توضع الأغلال في أرجلهم ويقيد عشرة أفراد مجتمعين في سلسلة واحدة».

وإذا ظهر للقراصنة أن السفينة المأسورة لاقيمة لها فإنهم يحجزون كل مافيها وينقلون ركابها الى سفينتهم وبعد ذلك يدمرونها بالاحراق. وكثيرا ما تقاد السفينة

المغلوبة على أمرها بطاقم من القراصنة، وإذا كانت تنتمي لدولة صديقة للمغرب فإنه يبحر بها الى الجزائر تحت خفر المستولين عليها، ويؤخذ أحسن ما تحتوي عليه من غنيمة، وإذا كان العكس من ذلك فإنها توجه الى ميناء سلا، وإذا كانت الغنيمة ذات أهمية كبرى فإن القرصان يختصر مدة حملته ويرافق السفينة الضحية الى ميناء آمن.

وبعد التعرف على الشاطىء المغربي بالعرائش والمعمورة وخاصة فضالة والاطلاع بحذر على الحالة العامة، فإن القرصان السعيد يتجه نحو ميناء سلا.

وحينما كان يعلن مراقب السفينة رؤية منارة حسان التي كان يهتدي بها البحارة لمعرفة اليابسة، فإن السلاوي الذي ينتظر بفارغ الصّبر اعلان نجاح حملته كان يفرغ مدفعيته علامة على الفرح، وكان يطلق دفعة أخرى تحت القصر قبل مواجهة الجرف. وآنئذ يمتلىء الميناء بجمهور الأندلسيين وتجار سلا وعلى رأسهم مجهز السفينة للحضور في افراغ شحنة الغنيمة. وبعد اتمام إجراءات الرسو كان الجميع ينزل لليابسة ويبدأ الاستعراض المثير للشفقة للاساري في أزقة المدينة، لبيعهم بالمزايدة. وينتشر الطاقم من جهته بصخب كبير في المدينة، مبديا تعطشه للتمتع بلذات الارض الثابتة وتعويض الاخطار التي مر بها، وأنواع الحرمان التي عانى منها في البحر.

ولم يكن سيناريو المعركة يمر دوما ببساطة كما وصفناه آنفا. فقد كان القراصنة يجدون أنفسهم أحيانا أمام خصم عنيد يستطيع بذل كل شيء ما عدا السقوط في أيدى البرابر والوقوع تحت استرقاقهم الاشد رعبا من الموت. وعندئد كان يرفض القبطان المسيحي الخضوع لانذارات القرصان. وإذا كانت تنقصه السرعة ولم تمكنه النجاة بالفرار فإنه يواجه خصمه بشجاعة حتى نفاذ أسلحته ــ وكثيرا ما كان يؤدي الثمن غاليا لمقاومته بتحمل خسائر فادحة. وكان القرصان أمام مثل هذا الوضع يحطم معنوية الخصم بطلقات المدفع ثم برشات بنادق الفتيلة لرجاله المسلحين. وعند فقدانه الأمل في السيطرة على السفينة وعدم إمكانه المخاطرة بنفسه للصعود الى سطحها يحاول عندئذ احراقها واغراقها. وكان هذا الحل المتطرف يتلافى بقدر الامكان نظرا لكون السلاويين يعلقون أهمية كبرى على أسر السفن في حالة جيدة لتقوية أسطولهم ومضاعفة قوتهم البحرية.

وكمثال لهذه المقاومة تمكن الاشارة الى الأحداث التالية :

ففي سنة 1683 التقى القبطان الانجليزي بالامي (Bellami) عابرا البحر من لندن الى مدينة ليفورن بالقرصان السلاوي الذي لايقهر فنيسيا (Venitia). وقد حمي وطيس المعركة بينهما بالمدفعية الى أن نفذ ما عند التاجر الانجليزي من بارود. وقد فقد السلاويون في هذه المعركة ثلاثين رجلا ما بين قتيل وجريح.

وفي 28 ماي 1691 كان القبطان بران دمرسيي (Brunr de Marseille) يقود سفينة سانت كاترين متجها نحو مدينة روان (Rouen) وإذا به يلتقي بسفينة من سلا تحت قيادة الرايس المرعب معيز، ويخوض معه معركة حامية دامت أكثر من خمس ساعات. ورغم جرحه هو ورئيس عماله فلم يعترف بهزيمته حتى فقد ستة من بحارته من بينهم أربعة قتلى من مجموع تسعة رجال كانوا يكونون طاقم السفينة، ومن جهة القرصان فقد أصيب خمسة عشر من رجاله بجروح مميتة كما أصيب جؤجؤ سفينتهم بأعطاب شديدة وخاصة صاريها الامامي وشراع الميزان.

وفي 30 شتنبر 1691 دخل القبطان لاروش من مدينة لاروشيل (La Rochelle de la Roch) الذي كان يقود السفينة لموديري (Le Modéré) المسلحة بثمانية مدافع، في معركة شرسة ضد سفينتي الرايس فنيش والرايس الشهير عبد الله بن عايشة. ولم يستسلم القبطان إلا بعد أن قتل من رجاله ثمانية عشر وأصيب اثنان منهم بجراح.

ونذكر أيضا حدثا آخر، نادرا مايقع، هو الدفاع المستميت لسفينة برتغالية تحمل 20 مدفعا ضد هجوم سلاوي، بتاريخ 20 غشت 1691، على بعد ستين فرسخا من أشبونة. فبعد أن أطلق القرصان المسلح بـ 18 مدفعا رشاته طويلا على خصمه وحاول الصعود إلى سفينته ثلاث مرات بدون نجاح، عاد ادراجه بعد أن فقد ما بين 18 إلى 20 قتيلا في هذه المعركة وفي جانب البرتغاليين فقد فقدوا 7 قتلى و14 جريحا من طاقم مكون من 45 رجلا، وقد جاء في تقرير ليسكول (L'Escolle)، القنصل الفرنسي بأشبونة آنذاك حول هذه المعركة المشرفة بنظره إلى بونتشارتون (Pont chartrain) ما يلي :[3].

«لقد كان على سطح السفينة البرتغالية أربعة باسكيين فرنسيين وانجليزيان وأربعة بسكيين الذين قادوا المعركة بمفردهم تقريبا بينما كان البرتغاليون يريدون

(3) المصادر المخطوطة، السلسلة 2 المجلد 3 ص : 393.

الاستسلام في البداية». ومع ذلك فرح ملك البرتغال «ولفرحه بدفاع أول واحدة من سفنه عن نفسها فقد ربت كثيرا على ظهر قبطان السفينة. ليعطي به القدوة الحسنة للآخرين من زملائه».

وبصفة أساسية ومبدئية فقد كان السلاويون يظهرون قسوتهم الشديدة نحو خصمهم عندما يلاقون منه مقاومة غير منتظرة ومكلفة لهم. وحينئذ كان القباطنة والبحارة المسيحيون معرضين لاخطر أنواع التعذيب. وللأسف فكثيرا ماكانت الظروف لاتسمح بأخذهم كسجناء فيلقى بالرجال والطاقم الماسورين في مياه البحر أو ينزلون مهانين عند أول جزيرة. ويجب الاعتراف بأن الأمر لم يكن أحسن من هذا عندما يقع القراصنة أساري بين أيدي البحارة الأوربيين. ففي سنة 1625 وقعت سفينة من سلا في قبضة الانجليزيين فألقى هؤلاء بالطاقم السلاوي بأتمه في البحر من سطح السفينة وحجزت شحنتها. وفي أغلب الأحوال كان يبعث بالقراصنة المغاربة من بحارة وجنود ورؤساء للعمل في الشراعيات الحربية.

وفي الحقيقة فإن المعارك الواقعة بين القراصنة والتجار بالصورة المومأ اليها أعلاه كانت استثنائية. ففي أغلب الحالات كان ضحايا القراصنة يتحملون قدرهم مع استسلام كامل. وأحيانا يقوم القباطنة بتسليم سفنهم لقراصنة دون التخطيط لأي دفاع يذكر، مرتكبين في الحقيقة جريرة بحرية. وكان مثل ذلك اسحاق بليار (Isaak Beliart) قائد سفينة لارويال (La Royal) من حمولة 120 طنة، والذي كان متجها من دييب نحو أمريكا، حيث استسلم في المحيط الأطلسي في 16 أكتوبر 1670 لأسر قرصان سلاوي دون أن يحاول استعمال واحد من مدافعه الستة. ويحكي مويط عن اسحاق بليار : «لقد باعنا الشقي، إذ أخذ تطمينات كبيرة على سفينتة وأنه سيصبح غنيا عن طريق خسارته». ويذكر مويط هذا الاتهام في مذكراته القيمة عن سنوات الأسر الأحد عشر التي قضاها بالمغرب نتيجة لهذا الحادث السيء.

وبدون البحث عن مثل هذه النوايا الاجرامية فبعض التجار كان يقع فريسة سهلة بيد القراصنة نتيجة لسذاجته. وفي هذا الصدد قدم القنصل الفرنسي بقادس بيد بييردى كاطلان (Perre de Catalan) إلى كولبير (Colbert) تقريرا حول السفينة المسماة اسبرانس (l'Esperance) التي غادرت ميناء الهافر جاء فيه : «لقد تركت نفسها لمفاجأة البرابر بصورة استخدموا فيها الحيلة أكثر من القوة للاستيلاء عليها، فالسلاوي المتنكر في زي قرصان جزائري عرض على بحارتنا الفرنسيين الصعود معه

إلى ظهر سفينته بقصد المتعة. فما كان من طاقم السفينة الفرنسية المكون من اثنى عشر رجلا إلا الانخداع لهذا الاستدعاء إذ قبله ثمانية منهم وصعدوا إلى سطح طريدة القرصان الذي أصبح من السهل عليه أسر سفينة الاسبرانس التي لم يبق بها سوى أربعة بحارة «ويلخص قنصلنا في تقريره : «حقيقة لقد ارتكب تجار روان (Rouen) خطأ جسيما بشحنهم لسفينة صغيرة بسلع ثمينة القيمة وتركها تغادر الميناء منفردة وبتجهيز سيء»

وبالرغم من جيمع الاحتياطات المتخذة من طرف القرصان فقد كان يجد نفسه أحيانا أمام خصم قوي لايستطيع العراك معه. حينذاك يرفع علم البلاد التي يوجد الخصم الخطير معها في سلم ويحث السير فارا بنفسه مقويا شراعه ومضاعفا الملاحة بالتجديف بقصد الافلات من العدو الذي يهدده.

وفي بعض الظروف الاستثنائية كان الخلاص يأتي عن طريق التواطؤ الضمني لدولة صديقة للقرصان. وكان هذا حال قرصان سلاوي أخذ على غرة من طرف فرقاطتين فرنسيتين بشواطىء البرتغال خلال شهر يونيو 1681، فاضطر للنجاة بنفسه وانضم إلى اسطول انجليزي لان انكلترا كانت في سلم آنذاك مع قراصنة سلا.

وإذا كانت حالة القرصان تدعوا لليأس فإنه لايتأخر بالقاء نفسه على الشاطىء مفضلا أي شيء على الأسر. وهكذا كان الطاقم يحتفظ بأمل النجاة من الوقوع في أيدي العدو المسيحي.

ونتجية لذلك فقد هلك العدد الكثير من سفن القراصنة بارغامها من طرف العدو المتفوق على الجنوح الاضطراري.

وختاما نشير إلى الحصانة الغريبة التي كانت تتمتع بها السفن التي تنقل رجال الدين المسيحيين من فريق الثالوت أو هيئة الرحمة. فقد كان هؤلاء الرسل يحصلون من ديوان سلا أو حتى من السلطان على تصريح بالأمان يخول لهم الدخول إلى ميناء سلا لاشتراء الأساري الذين كان بإمكانهم العودة إلى أوطانهم في كامل الأمن والطمأنينة. وكان هؤلاء الرسل يأخذون أيضا جوازات من ملك فرنسا تشهد لهم بميزة آباء افتدائيين ما يجعلهم محترمين من لدن القراصنة البربر يسكيين.

ولم يكن وراء هذه الحظوة الخاصة شعور آخر سوى الطمع. فقد كانت فدية الأساري تكون المغانم الرئيسية للقرصنة. وكان القراصنة سواء منهم الجزائريون أو

السلاويون، يبذلون أقصى جهودهم لتشجيع حركة واخلاص الآباء الثالوثيين أو الرحماء الذين يسعون لافتداء الأساري ودفع المال اللازم بين أيدي القرصنة لشراء العبيد المسيحيين.

الـفـصـل الـثـامـن
الحركة الزجرية للبحريات الأوروبية

تـصـمـيـم

توسع القرصنة البربرية ــ الإجراءات الأولى للدفاع ــ انزعاج العالم البحري الأوروبي ــ الحملات البحرية ضد سلا ــ الظروف العامة لمحاربة القراصنة ــ ضرورة الحصول على السفن الخفيفة ــ تجهيزها وقيادتها ــ مهمة القوات البحرية ــ إجراءات الحصار ــ فعاليتها النسبية ــ القنبلة ــ محاولات الهجوم المباشر على القواعد السلاوية ــ مشروعات الرسو واحتلال النقط الاستراتيجية ــ ضعف النتائج المحصل عليها ــ الرحلات البحرية ضد القرصنة ــ صعوبة العمليات ــ التحرك الدبلوماسي ــ الحصار الاقتصادي ــ عجز البحريات الأوروبية في حركاتها الزجرية.

لقد ساهمت معارك قراصنة سلا في بداية القرن السابع عشر بقسط وافر في فتح صفحة جديدة من تاريخ القرصنة. وإلى هذا التاريخ، مع بعض الاستثناءات، كان عملهم محصورا في البحر الأبيض المتوسط الذي يكون المجال العريق والتقليدي لعملياتهم، إلا أنهم من الآن فصاعدا أخذوا يغامرون بدون حدود في المحيط الأطلسي. ما جعل المواصلات البحرية نفسها فجأة مهددة، وجعل الأمن ينعدم بصفة عامة في البحر.

وأمام هذه الوضعية ـــ التي يمكن أن تشبه إلى حدٍّ ما الوضعية التي ظهرت خلال الحرب الكونية الأولى بسبب النمو الغير المنتظر للحرب تحت البحار ـــ تبنت الإمارات البحرية سلسلة من التدابير الدفاعية المحضة : من تسليح السفن التجارية، والابحار الجماعي، وتكوين فرق الخفر والمطاردة.

وشيئا فشيئا تسلحت أغلبية السفن التجارية لمواجهة القراصنة حاملة على ظهرها مدافع من مختلف العيارات وبعدد يتناسب وأهمية حمولة السفينة ـــ فالبعض منها ـــ بلغ تسليحه إلى ثمانية قطع مدفعية ـــ وحملت الاطقمة البنادق المتنوعة، وأخذت الفروق بين السفن التجارية والحربية تختلف بعضها عن البعض نوعا ما.

وعمت الملاحة الجماعية وصارت موضوع تقنين محدد يوما بعد يوم. وأدت إلى ظهور عقد خاص من بين التزاماته «ربط سفينة بأخرى بواسطة حبل» وبمقتضاه يتعهد واحد أو كثير من القباطنة بالسير مجتمعين وتبادل المساعدة فيما بينهم.

وكانت السفن الثمينة بطبيعة شحنتها تخفر بواسطة سفن حربية. وكانت هذه الطريقة يحتفظ بها لبعض الاسفار ذات الفائدة المتميزة مثل رحلات الغليونات القادمة من البرازيل أو الهند أو ناقلات البضائع من رواء البحار[1].

وعلاوة على ذلك فقد كانت التجارة البحرية تؤمن أيضا بتكوين وحدات من مختلف البحريات مهمتها القيام بدوريات لحراسة المناطق الأكثر تعرضا لهجوم القراصنة.

---

(1) من المفيد التذكير هنا بأن الملاحة الجماعية المخفورة بمحل بها ابتداءً من سنة 1917 خلال الحرب الكبرى وفي بداية الحرب الكونية الثانية كوسيلة لحماية التجارة البحرية 76 من اعتداء القراصنة الجدد الممثلين في الغواصات.

وفي نطاق هذه المقتضيات تدخل الرحلات البحرية التى أمر بتنظيمها بوكنكام (Buekingham) أميرال أنكلترا الكبير على طول الشواطىء الانجليزية، منذ سنة 1625 حينما أخذت سفن القراصنة السلاويين تعلن عن وجودها في بحر المانش. وقد استمرت هذه الرحلات المنظمة طيلة عشر سنوات دون التوصل إلى أية نتيجة تذكر. وفي سنة 1636، كان كونت لرتمبر (Northamber) يجوب البحر بحثا عن القراصنة في شواطىء رأس لاندس أند (Caps Land's End) وفي جزر سورلنك (I les Sorlingnes).

وقد خفت فعالية هذه الاجراءات عندما أخذ الهولنديون يبذلون مساعدتهم للقراصنة. وقد كان فرنسيس ستوارت (Francis Stuart) الذي يعتبر من أوائل رؤساء الأسطول المكلف بمهمة حراسة شواطىء المانش من عبث البرابر يؤكد لبوكنكام (Buckingham) بأن هذه الشواطىء ستظل هدفا لغاراتهم ما دام قراصنة الأقاليم ــ المتحدة (Provinces-Unies) يزودونهم بالمواد الغذائية وغيرها.

ومع ذلك فقد ظل العالم البحري مذعورا من الجرأة المتنامية للسلاويين. وما لبثت البحريات الأوروبية أن أخذت تتلقى مذكرات وعرائض يطالب فيها البحارة والقناصل والتجار والصيادون باتخاذ إجراءات فعالة لتطهير المحيط الأطلسي من القراصنة الذين كانوا يخربون التجارة في البحر. وإذا كانت الاقتراحات المقدمة بواسطة هذه العرائض والمذكرات مختلفة فجميعها كان متفقا على مطالبة البحريات الأوروبية بالهجوم على القراصنة في قواعدهم التي ينطلقون منها ومياههم التي يبحرون فيها قبل تمكنهم من غاراتهم المؤسفة على الصيادين والتجار الأبرياء.

وفي سنة 1623 كان ألبرت رويل (Albert Ruyl) يدعو الولايات العامة لهولاندا لارسال سفينتي حرب للقيام برحلات بحرية بين مدينتي سلا وأكادير للوقاية من قراصنة سلا وبطرهم.

وقد حررت في سنة 1626 مذكرة في هذا الصدد لتسهيل تجارة فرنسا مع الأجانب تطالب بإرسال «ستة سفن بحرية للرسو بمياه سلا من شهر ماي إلى بداية شتنبر[2]».

---

(2) المصادر المخطوطة : السلسلة 1، فرنسا، المجلد 3 ص 147 والمذكرة 1.

كما أن إسحاق دى رازيلي (Isaak de Razilly) رئيس اسطول الملك ونائب أميرال القوات البحرية قدم أيضا سنة 1626 مذكرات عديدة إلى الكاردنيال دى ريشليو (Cardinal de Richlieu) «بهدف العمل على استقرار التجارة البحرية» ويلاحظ فيها اتساع مدى الأضرار التي تتسبب فيها» سفن سلا ورعايا امبراطور المغرب الذين يأخذون سفنا كثيرة من هذه المملكة للاضرار بتجارتنا»آ ويطالب «بارسال ستة سفن تتجه نحو سلا لمنع السلاويين من الدخول أو الخروج من مينائهم حتى يتسنى لنا القبض على أية سفينة تريد مغادرة هذا الميناء».

وتحت ضغط رأي عام يتزايد قلقه يوما عن يوم، أخذت حملات الهجوم على السلاويين تظهر للوجود، وتتابعت طيلة أكثر من قرن. فمن سنة 1629 (أول حملة لرازيلي) إلى 1765 (حملة دى شوفولت) فإن القوات العظمى الثلاث بأوروبا أنئذ فرنسا وإنجلترا والبلاد الوطيئة ــ بعثت بقواتها البحرية إلى الشاطىء المغربي بقصد تحطيم القراصنة أو على الأقل إرغامهم على طلب العفو.

إلا أنه مع ذلك استمرت أوهام كثيرة ولمدة طويلة حول طبيعة وأهمية الوسائل التي يجب استعمالها «لرد السلاويين إلى الصواب» والذين كتب عنهم سنة 1636 قائد السلاح البحري هنري دسكوبلودي سوردى Leur de Sourdis Henri d Escoub) «بأنه مع هذه السفن الصغيرة وهؤلاء المارقون يكفى إرسال سفينتين ملكيتين للقضاء على كثير من سفنهم وإرسال أربعة اخرى لاقرار القانون واحترامه مع هؤلاء الذين يعتقدون بأن السلم الذي أبرمناه معهم[3] هو ناتج عن خوفنا منهم».

وأظهرت التجربة، بعكس ذلك، كل الصعوبات التي تلاقيها عمليات مواجهة خصم ظاهره الضعف والهزال وباطنه القوة والذكاء في الإفلات والانسحاب من أية معركة، ربي عدم امكان القبض عليه عمليا. وأن التكوين الطبيعي للقوات البحرية الأوروبية لم يكن في الحقيقة متكيفا مع الظروف الخاصة لمحاربة البرباريسكيين كان يتحتم ادخال تعديلات عليها سواء من حيث المعدات أو من حيث التأطير.

فالدينامية القصوى للقراصنة كانت تتطلب قبل كل شيء الاستعانة بكثير من السفن الخفيفة والسريعة لمواجهتهم.

(3) يتعلق الأمر بمعاهدة 18 يوليوز 1635 بين لويس الثالث عشر ومولاي الوليد.

فالتاجر البحري لميناء بريستول جيل بين (Gils Penn) المحرك لأول حملة انجليزية ضد سلا كان يطالب سنة 1636 (إمارته البحرية بتزويد أسطوله بالسلاح والخفافات وزوارق إنقاذ بسكانية[4] يمكنها النزول ليلا بقرب جرف سلا لمراقبة العدو. ولم يفتأ كذلك وليام رينسبورك (William Rainsborough) الذي تولى قيادة هذا الأسطول يطالب بقوة وحماس ارسال مثل هذه الزوارق الانقاذية التي لايمكن بدونها تحطيم السفن السلاوية بل حتى منعها من التحرك. هذا و أن جميع قواد البحرية الذين أنيطت بهم مهمة محاربة قراصنة سلا كانو يقومون بنفس الملاحظة.

ففي سنة 1649 وتبعا لطلب رئيس الأسطول الهولندي جورى فإن كانت (Joris Van Cant) المقدم إلى إمارة امسterdام فان هذه الأخيرة قامت ببناء يختين خفيفين مجهزين بالمجاديف قصد تزويد أسطول البلاد الوطيئة الذي كان يستعد في الربيع القابل لردع القرصنة السلاوية.

كما بعث بالكونت جان دسترى (Jean d'Estrees) سنة 1670 نائب أميرال فرنسا على ستة سفن لدراسة وسائل القضاء على القراصنة. وكتب في 27 أبريل إلى لويس الرابع عشر «لاشيء يمكنه أن يجعل الحرب صعبة مع القراصنة غير علاقاتهم بالبواخر الكبيرة» واقتناعا منه برأيه وبناء على تجربته صرح فيما بعد إلى كولبيرت «ومن الصعب مغالبة القراصنة بدون فرقاطات خفيفة» لكنه توهم مضيفا : «لقد عرفنا على الأقل بأنه من السهل دحر القراصنة في الحملة القابلة إذا أراد صاحب الجلالة أن يضيف أربعة أو خمس فرقاطات خفيفة من حمولة 80 إلى 100 طنة إلى اسطول البواخر الكبرى والتي يسعد جلالته أن يجهز بها عمارته بالمحيط الأطلسي».

إذن فنوع السفن المطلوبة في هذا الصدد كانت هي الفرقاطات التي يمكن أن تحمل على الأكثر 100 طن والتي لها مجاديف. وحول هذه النقطة كان الاجماع كليا، فعميد شرطة البحرية لوى بيكودي كاستين (louis Bigot de Gastines) طلب تزويده بسفن مجهزة بأحسن المجاديف. والتي بدونها لايمكن وضع صابورة[5]. وكان القنصل الفرنسي بالمغرب هنري برات (Henri Prat) قد كتب إلى كولبير (Colbert) بتاريخ 10 اكتوبر 1671 بأنه يجب «اضافة أربعة سفن أخرى للاسطول تكون من نوع

(4) نوع من الزوارق الطويلة التي كانت تستعمل في خليج بسكاي (Bscaye).

(5) مذكرة 4 نونبر 1680، مصادر مخطوطة السلسلة 2 فرنسا، مجلد 1 ص : 517.

الفرقاطات الخفيفة والمزودة بأثنى عشر مجدافا لكل جانب والمسلحة بـ 10 إلى 12 مدفعا ويكون طاقم كل واحدة منها مابين 80 إلى 100 رجل « وبدوره أكد القنصل الفرنسي بسلا.«ج.ب استيل» (J.B Estelle) فيما يخص سفن الرحلات البحرية : « يجب أن تكون خفيفة ومزودة بأحسن المجاديف حتى تستطيع الاقتراب من القراصنة في هدوء هؤلاء الذين يبحرون بقليل من الرياح بسبب أشرعتهم الكبرى التي تغطيهم[6]».

وكان تزويد السفن الخفيفة الموجهة لردع القرصنة بالرجال يتطلب أيضا عناية خاصة. وهكذا قبل أن العدد الطبيعي للاطقمة يجب تقويته ولو ادى ذلك «إلى أن يكون محيرا، إذا كان عليه أن يغنم مركبا ويراقب الأطقمة الكبرى التي كان يضعها القراصنة في سفنهم[7]».

وبالمقابل فلم تكن هناك حاجة ماسة لتكون الأركان العامة كثيرة الأفراد لان كثرة الضباط غير ملائمة لهذه الحرب نظرا لما يتطلبونه من التزودبكميات كبيرة من المواد الغذائية وما يصاحب هذا من أثاث مما يربك جدا هذه السفن الصغيرة[8].

وكان من اللازم أن لايترك اختيار قواد السفن إلى الصدفة، وفي هذا الصدد بعث كولبير إلى كو لبيردي تورون،مصدرا تعليماته «فمن أجل ردع القراصنة ودحرهم يجب أن نحتاط ــ لكي تكون لنا سفن أخف من سفنهم وأن تكون تحت قيادة رجال جريئين لايخشون الصعود إلى مراكب القراصنة. وأضاف لوى دى كاستين قائلا : « يجب ارسال قباطنة يتقنون المناورة ولايحبون اليابسة قط، لكن من اللازم أيضا أن يكون القائد حاذقا ودقيقا». وهذا الانشغال نفسه هو الذي أدى بتجار مدن دوفون ودورسي (Devon et Dorset) وسوتامبتون (Sonthampton) إلى مطالبة المجلس الخاص «بأ تكون السفن المبعوث بها لزجر القراصنة موضوعة بالخصوص تحت قيادة رجال أهل للانتقام الشخصي الذي يجب عيلهم ممارسته[9]».

ولتبرير هذه الاحتياطات الحذرة فمن المفيد التذكير بالاشاعات التي كانت

---

(6) مذكرة ج.ب. استيل بتاريخ 26 شتنبر 1698، المصادر المخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 4 ص : 669.

(7)و(8) مذكرات لوي دي كاستين (Mémoires de Luis de GWastines).

(9) مصادر مخطوطة، انجلترا، المجلد 3، ص : 259.

رائجة وسط الأطقمة الأوروبية في موضوع «الحيل والرُّقي المؤذية للاتراك» وهكذا كانت فرائص البحارة المسيحيين ترتعد رعبا أمام القراصنة المغاربيين وخاصة منهم السلاويين الذين يعتبرون أكثر ارهابا من الجميع. ولذا كان يبحث عن رؤساء يتمتعون بالقوة والجرأة للسيطرة على الرعب الخرافي الذي كان رجالهم فريسة له.

وكانت القوات البحرية الموجهة للشواطىء المغربية تتلقى أوامر للقيام بتنفيذ مهمتين :

1 ــ محاصرة القراصنة في قواعدهم الرئيسية بسلا.

2 ــ البحث عن تدمير سفن العدو بالبحر.

فمحاصرة سلا ــ التي تعتبر هدفا أساسيا لكل العمليات ــ كان يتم تنفيذها بطرق مختلفة.

وكثيرا ما كان رؤساء العمارة يتلقون الأمر بالوقوف أمام الميناء منذ فصل الربيع قبل التحرك العام لاسطول القرصنة من أجل منع القراصنة من خروجهم لحملتهم السنوية. وكانت تناط مهمة المحاصرة المقربة إلى فرقاطات خفيفة عائمة في مرسى، ومسندة بسفن لحراستها تبحر على بضعة أميال من الشاطىء. وقدر صدت بعض السفن للقيام برحلات بحرية ما بين رأس سبارتيل (Cap Spartel) وسانت ــ كروا (اكادير) تنحصر مهمتها في مراقبة نقط الشاطىء والملاجىء المحتملة للقراصنة مثل المعمورة (المهدية) وفضالة والوليدية وأسفي.

واعتمد كولبير دائما هذا النوع من التصميم للعمليات. ففي تعليماته بتاريخ 5 غشت 1670 كان قد أمر الاميرال ديستري (d'Estrées) بمحاصرة مدينة سلا بدون انقطاع وذلك بوقوف سفن حربية مع ثلاث سفن صغيرة أمام المدينة الى أن تتراجع سفن القراصنة أو تمنعهم من الدخول الى الميناء أو الخروج منه دون القبض عليهم». وفي سنة 1671 ارتأى أيضا «أن الوسيلة الأكثر ضمانا لدحر هؤلاء القراصنة الى أن يجنحوا للسلم، هي الحصار لمينائهم». وأضاف «لقد اعتقد صاحب الجلالة من المفيد ارسال سفينة سان لوى (le Saint Louis) والقرقاطتين (Les jeux) ولا فريبون (La Friponne) تحت قيادة الفارس شاتو ــ رونو (Chateau Renaud) والتي يجب أن تذهب من مرسى وادي دى شرانت (de Charente) في اليوم الاول من شهر مارس المقبل لترسو أمام ميناء سلا قبل أن تتمكن سفن القراصنة من الخروج منه.»

وكانت للاميرال ديستري طريقة مختلفة لم ينجح مع ذلك في تبيان جدواها وفائدتها. وقد كتب الى كولبير مايلي : أنه يحز في نفسي الاعتقاد بأنه تمكن محاولة شيء ما بنجاح، ذلك أن سفن سلا لاترسو دائما إلا داخل الجرف الذي يصعب الدخول اليه. وهؤلاء القادمون من البحر عليهم الانسحاب الى حيث تصلهم أنباء الشاطىء والبقاء في أمن حتى يمكنهم المرور.» ويقترح بناء على ذلك «بترك القراصنة يخرجون من جرفهم بدون أي حذر أوريبة، حتى يمكن بعد ذلك اغلاق مدخل الجرف وهكذا لايمكن افلاتهم ويتم تدمير هم دفعة واحدة : وتكفي لذلك فقط، فرقاطتان خفيفتان لحراسته. ويجب في نفس الوقت أن تكون هناك فرقاطتان من نفس النوع للتجوال قريبا جدا من اليابسة واحدة بشواطىء فضالة والاخرى بشاطىء المعمورة، إلا أنه على البواخر الكبيرة الباقية التي تجوب البحر على بعد 6 ، 7 فراسخ من الشاطىء أن تكون مستعدة للانقضاض على جميع القراصنة، برأس سان فانسان ورأس سبارتيل وإذا لم يمكنها القبض عليهم فعلى الاقل توقعهم في الفخ الذي ينتظرهم بجرفهم حيث لايمكن الدخول اليه مع جزر البحر دون التعرض للغرق.

وعلاوة على ذلك فقد فكر جان ديستري «في قطع الطريق كليا على القراصنة وأملهم في النجاة بأنفسهم وذلك باغلاق مدخل الميناء بواسطة اغراق سفينة معدة لذلك «لكنه كان يعترف بصعوبة تحقيق هذا المشروع، رغم أن الفكرة كانت مغرية مما جعل التفكير في انجازها يتكرر عدة مرات. وهكذا نجد في مذكرة لزجر القرصنة رفعها تجار باريس الى الملك بتاريخ 14 يناير1680 يطالبون فيها :

«ان ترسل إلى الجرف في نهاية مارس خمس فرقاطات تحمل ما بين 16 إلى 40 مدفعا، مع اثنين أو ثلاث عتاديات ضخمة مشحونة بمختلف المواد لاغراق هذه الاخيرة عند مدخل الجرف وذلك لمنع القراصنة ذوى الاعداد الضخمة من الخروج منه أو منعهم من الدخول اليه إذا كانوا قد خرجوا منه» وقد أخذ لويس الرابع عشر بعين الاعتبار هذا المقترح حيث دعا في تعليماته الموجهة بتاريخ 23 مارس 1680 إلى شاتو، رونو، (Chateau Renaut) «بسد الميناء عن طريق اغراق عتاديات مملوءة بالحجر أو بأي وسيلة أخرى يمكن تطبيقها تبعا للمعلومات المستقاة في عين المكان».

وفي سنة 1687 عرض قبطان السفينة جان دي جان (Jean des Jean) الباروفي

دي بوانتي (de Pointes) على سنيلاي (Seignelay) ان يتكفل باغلاق مداخل سلا والمعمورة عن طريق ملئها بالاحجار وبعض السفن القديمة التي يمكن أخذها من موانىء النورماندي[10] (Normandie).

ولم ينفذ أي واحد من هذه المشاريع ذلك أنه مهما كانت عظمتها ومهما أمكن التغلب على الصعوبات التي تكتنفها فإن فعالية مثل هذه السدود كان مشكوكا في نتائجها فممرات الدخول الى كل من مصب أبي رقراق ومصب سبوالتي تنعرج بين مصطبات الرمال والمعرضة لتغيرات دائمة نتيجة للتيارات النهرية وحركة المد والجزر كانت تتطلب باستعجال فتح ممر قابل للابحار بالرغم من جميع العوائق المتراكمة.

وسواء تحملت أساطيل المراقبة المتواجدة أمام سلا عناء سد الميناء لمنع أي خروج للقراصنة أو الترصد لهؤلاء العائدين من حملاتهم وقطع الطريق أمامهم لأي انسحاب فإن الملاحظة التي فرضت نفسها هي أن هذا الحصار البحري بمظهريه لم يؤد إلا الى نتائج هزيلة وضعيفة. وحتى في الفصول الجميلة، فإن ظروف الطقس والبحر السائدة على الشاطىء المغربي تجعل الحصار عسيرا وخطيرا. وكان من اللازم على السفن الراسية بميناء سلا أن تتخذ اكبر قدر من الحيطة واليقظة نظرا لعوامل العمق الغير الكافي للرسو ونظرا كذلك للامواج الصاخبة والتيارات العنيفة للشاطىء المغربي.

إلا أن وجود البواخر الحربية أمام مصب أبي رقراق كان يضايق القراصنة دون ريب لا لكونه يمنع تزويد المدينة بالمواد الغذائية عن طريق البحر فحسب بل لانه كان يمنع تحرك السفن الكبرى للقرصنة. ولم تكن تتحرك في الميناء سوى زوارق الانقاذ والفرقاطات المسيرة بالتجذيف والتي كانت تستطيع الافلات تحت جناح الليل مساحلة لليابسة وعائمة في أعماق لاتستطيع الفرقاطات الاوروبية متابعتها فيها.

وقد اعترف ويليام رينسبوروع (Rainsborough) سنة 1637 بأن سفينتين صغيرتين استطاعتا اللحاق بالمياه العالية حاملة معها التموين الغذائي اللازم لخمسة أو ستة أسابيع وناجية من ملاحقة السفينتين هركول (L'Hercules) ولاماري (La mary)

(10) مذكرة بوانتر، مصادر مخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 3 ص : 76، و ص : 77.

الراسيتين أمام سلا. وكان يؤمل الحصول على زوارق انقاذ وعدت بها أمارة البحر لإحكام حصاره على القراصنة.

ولم يكن السلاويون أقل دهاء وهم يعودون الى قاعدتهم عن طريق البحر، في افشال مراقبة أعدائهم لهم. فإذا ما اكتشفوا سفنا مشكوكا في هويتها ترسو أمام الميناء فكثيرا ما يعودون الى الابحار في المياه العالية، وقبل أن تأخذ سفن الاسطول الثقيلة الوقت لرفع مرساتها، فإن القراصنة يكونون قد نجوا بأنفسهم والتجأوا الى نقطة أخرى آمنة بدون أي عائق أو عناء وخاصة ميناء فضالة. وكانوا في ظروف أخرى لايترددون في كسر الحصار بجرأة نادرة، إذ يستغلون درايتهم الفائقة بمناطق الشاطىء المغربي ويستعملون مؤهلاتهم النادرة في المناورة وبكفاءة عليا والمسحوب القليل من الماء لسفنهم فيحاذون الشاطىء على مدى رمى بندقية ما لاتستطيع السفن الكبرى القيام به»[11] ويعبرون الجرف تحت أنظار خصومهم العاجزين. وهكذا يروى شاتو رونو (Chateau Reneaut) انه بتاريخ 19 غشت 1671 نجح قرصان سلاوي قادم من المعمورة بمناورة وجرأة ...رتين أن يفلت من مطاردة سفينتين فرنسيتين كبيرتين له ما اضطرهما الى ضربه بالمدفع من بعيد دون أن يمس بأي أذى كبير.

ولم تكن الامارات البحرية الاوروبية تجهل عدم فائدة حصار سلبي، لذلك أخذت تحت رؤساء الاساطيل لاغتنام أي فرصة للقيام بعمليات تكميلية ذات صبغة هجومية صرفة.

ولم يفت كولبير في خطابه لشاتور ونو وديسترى أن يأمرهما «بمعرفة مداخل الميناء ما أمكن ذلك والاطلاع على السهولة أو الصعوبة التي يمكن مواجهتها للقيام بعملية مهمة كهذه «مثل احراق السفن وإحراق المدينة نفسها» وحتى النزول إلى الارض إذا سنحت الفرصة بالنجاح فيه»[12] لكنه من السهل اعطاء مثل هذه الاوامر من بعيد والتي يصعب تنفيذها في عين المكان، فحينما استشير شاتور ونو، الذي لايشك في قيمته ومقدرته، من طرف كولبير حول «ما يمكن القيام به لدحر قراصنة سلا» لم يخف أمله الضعيف في نجاح هذه المشاريع المليئة بالمخاطر وأظهر نفسه «قليل

---

(11) مذكرة جان ديستري (Jean d'Estrees) إلى كولبير بتاريخ 22 يونيه 1670، المصادر المخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1 ص : 308.

(12) المصادر المخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 1، ص : 147.

الاهتمام بالبحث عن الوسائل للقيام ببعض الاعمال الخارقة للعادة» وفيما يخص الاميرال ديستري الذي استفاذ من دورس حملته الاولى فقد كتب إلى لويس الرابع عشر مبينا له جميع الصعوبات التي تواجهها القنبلة والهجومات القوية والنزول إلى اليابسة و«الاعمال الجريئة» التي تضمنتها توجيهات كولبير والتي كان يأمر بالقيام بها.

وكانت كل حملة ضد سلا تتضمن القنبلة المحتملة للمدينة إلا أنه تبين أن مثل هذه العمليات غير ذات جدوى.

فحول هذا الشاطىء الخطير حيث رياح البحر العاتية لم يكن بامكان السفن الاقتراب من اليابسة كما أوضح ذلك جان ديستري (J- d'Estrées) ذلك «نه إذا تقدمت السفن نحو الشاطىء يكون من الصعب اخراجها كما أنه إذا تركت على مسافة بعيدة استجابة للحيطة والحذر تكون عديمة النفع». فالتمايلات العنيفة التي تتعرض لها السفن العائمة بمرفأ سلا تزيد من عدم دقة الرماية وضبطها.

وبناء على هذه المقولات يشير ديستري في تقرير له : «عندما اقتربت السفينة لوتيكر (le Tigre) من الشاطىء تدفعها التيارات والرغبة في فعل شيء خارق للعادة، كان من المستحيل عليها أن تفتح كواتها لمدفعيتها المنحدرة لان البحر يندفع بقوة على هذه المسافة من الارض، ولو غامرت بفتح كواتها آنذاك لكانت فريسة سهلة لتغمرها المياه».

وكانت المصطبات القوية للقصر والاسوار التي تحجب رؤية المدينة من عرض البحر تساهم مجتمعة في التقليل من فعالية القنبلة البحرية وكان من السهل اصلاح الاضرار الضعيفة التي تحدثها عرضا بالبناءات المشيدة بالتراب المدكوك.

وفي 30 غشت 1671 تعرضت سلا لأعنف الغارات وأقساها، فقد القت اربع سفن من أسطول الاميرال ديستري على المدينة خلال ساعة ونصف 1100 من طلقات مدفعيتها «ولم يكن لها من أثر سوى الاستيلاء على مصب صغير بشاطىء البحر[13]»، مما أكد التشاؤم الكبير لدى الأميرال الفرنسي.

---

(13) مويط (Mouette) تاريخ مفتوح مولاي العرش. المصادر المخطوطة السلسلة 2، فرنسا، المجلد 1، ص : 349.

وبعد قرن من الزمن لم يحصل دي شافو (Du Chaffault) على نتائج أفضل رغم توفره على وسائل أكثر قوة وحداثة. ففي 2 يونيو 1765 قنبلت السفينة لوتيل (L'Utile) التي كانت على رأس الاسطول مدينة سلا على مسافة قريبة وطيلة الصباح، وبعد الزوال أطلقت الغليوطتان إتنا (La Salamandre) عبثا أكثر من 40 قنبلة على مدينة القراصنة. وكانت النتيجة النهائية لهذه القنبلة القوية جد هزيلة. ولم تكن محاولات الايام التالية بأحسن حظا من سابقاتها. وقد عزى دي شافو فشله حقا إلى رداءة معدات مدفعيته.

ان القنبلة المتعددة التي تعرضت لها مدينة سلا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يكن لها من أثر سوى تهديد وتخويف أهلها حيث كانت تجعل القراصنة يخافون من اخراج سفنهم وتضع نفوس البورجوازية في انذهال وذعر كبيرين، لكن هذه العمليات الباهظة التكاليف لم يكن لها من تأثير قط على نمو القرصنة.

وللحصول على نتيجة ايجابية كان من اللازم النجاح في بعض العمليات الكبرى التي تضرب في عمق مدينة القرصنة.
واقتناعا من كولبير بهذه الضرورة فقد أصدر أوامره مرات متعددة بالدخول إلى الميناء لتحطيم سفن القرصنة الراسية فيه، ففي 27 مارس 1671 كان قد أعطى أمره خاصة إلى ديستري بأن يدخل إلى الميناء إذا أمكن «الحراقات تحت خفر الفرقاطات الخفيفة والقوارب الطويلة وزوارق الأنقاذ للاسطول مدعومة بغطاء المدفعية للسفن الكبرى[14] لكن الاميرال الذي ثمن الوضعية كما هي لم يقتنع بانجاز مثل هذا المشروع لانه غير قابل للتحقيق. «ان احراق السفن داخل الميناء من السهل تصوره» كما كتب بذلك إلى لويس الرابع عشر «لايمكن للحراقات ولا للفرقاطات الخفيفة أن تدخل إلى الميناء بدون ربابنة بما أن سفن القراصنة نفسها لم يكن بامكانها الدخول اليه أو الخروج منه دون معونة زوارق الانقاذ التي تقودها وتمنعها من الازورار».

ولما كانت الاساطيل الاوروبية تحوم حول الشاطىء المغربي خاصة حينما يكون المرفأ محاصرا بالسفن العائمة أمامه كان قراصنة سلا يأخذون كامل حذرهم وحيطتهم حتى لايكونوا عرضة للمفاجأة ويدفعوا عند الاقتضاء كل محاولة للخصم ضدهم.

---

(14) تعليمات موجهة لجان ديستري بتاريخ 27 مارس 1671، المصادر المخطوطة، السلسلة 2، فرنسا المجلد 1، ص 349.

فعلى سطوح سفنهم الراسية بالواد كانت الحراسة مشددة من طرف رجال مسلحين ومرفقين بكلاب في مستوى يقظة وجرأة الحراس.

والمحاولات القليلة جدا لتجاوز ممرات أبي رقراق قد انتهت كلها إلى فشل ذريع.

فحين وصول ويليام رينسبوروك إلى مرفأ سلا سنة 1637 على رأس قوة بحرية انكليزية مهمة، حاول احراق السفن السلاوية في الميناء، وكانت العملية متوقعة يوم 19 ماي، لكن رئيس الاسطول وصل إلى علمه في الوقت المناسب أن كل سفينة سلاوية يسهر عليها كل ليلة عشرون رجلا مسلحون ببنادق الفتيلة، فما كان منه إلا أن تخلى عن مشروعه بحكمة وهدوء. وبعد وصول الخفافين بروفيدانس (Provedence) وإكسبديسيون (Expedicion) اللتين انتظر مجيئهما طويلا، اعتقد ريسبورك أنه يمكن القيام بهجوم جديد. ففي ليلة 14 غشت وفي ظروف مناخية مواتية انسلت إلى الميناء زوارق انقاذ مسلحة بالحراقات ومدعومة من طرف الخفافين واقتربت من القراصنة وهم في رسوهم، بينما أخذ كلاب الحراسة المذعورون بضجيج التجديف ينبحون معلنين ناقوس الخطر. وتوا اختلط النباح الجنوني برشات البنادق واكتشف أمر المهاجمين الذين اضطروا اللانسحاب بسرعة وتركوا في قبضة المغاربة بحارا بريطانيا أثناء هذه المغامرة الفاشلة.

ولم يحاول قط كل من الاميرالين الفرنسين ديستري وشاتو رونو اليقظين جدا للاخطار التي يمكن الوقوع ضحيتها، أن يقوما بمثل هذه المغامرة رغم جميع الطلبات التي قدمت اليهما في هذا الصدد.

كما أن المتحمس دي شافو (Du Chaffault) الذي كان يحترق شوقا للقيام بصنيع يمحو فشله المتكرر لقنبلة مدينة سلا، لم يحاول قط القيام بهجوم مباشر داخل ميناء القراصنة سنة 1765. لأنه كان متيقنا بأن صعوبات الدخول لأبي رقراق وتصميم المدافعين عن القصر يجعلان من محاولته هذه مجرد مجازفة وتهور كبيرين. ولسوء حظه لم يتخذ نفس الحكمة بعد أيام قلائل أمام مرفأ العرائش، إذ دخل الوادى الذي يحتمى به القراصنة محاولا تحطيم سفنهم وأذا به يتعرض يوم 27 يونيو لواحدة من أكبر الهزائم الدامية التي ألحقها المغاربيون بالقوات البحرية الاوربية [15].

---

(15) اعتبرت هذه المعركة من طرف بعض المؤرخين المغاربة المعاصرين : معركة وادي المخازن الصغرى مقارنة لها بمعركة وادي المخازن الكبرى التي مضت عليها أربعة قرون ونيف. المترجم

ونعتقد أن العملية الوحيدة التي كللت بالنجاح هي تلك التي نفذتها سفن انجليزية في يوليوز 1685 بوادي المعمورة (واد سبو) إذ نجحت زوارق انقاد تحت جنح ظلام الليل أن تحرق سفينتين للقراصنة واحدة من فئة 30 مدفعا والأخرى من فئة 16 مدفعا، وكان الامر يتعلق في الحقيقة بسفن مجهزة لحساب السلطان حيث كانت حراستها أقل يقظة منها على ظهر السفن المسلحة من طرف قراصنة سلا.

كما أن ظروف الدخول إلى سبو ووسائل الدفاع في عين المكان لم تكن تصطبغ بنفس الصعوبات الموجودة بسلا. ومع ذلك لم يفت قنصل البلاد الوطيئة أن يصف ضربة المعمورة هذه بأنها «صنيع حقيقي يفوق خيال الرواية».

وفي النهاية استمر ميناء سلا «محروسا بعناية الله» كما كان يصفه السلطان مولاي زيدان بأبّهة وفخر.

وخارج الغارات ضد مخابىء القراصنة فقد كان النزول إلى اليابسة مقترحا في عدد من التعلميات الموجهة إلى رؤساء الاساطيل المنوط بها الحصار مع التركيز على هدف أساسي يتمثل في تخليص الاساري. ولم يظهر ديستري أي اهتبال بهذا النوع من العمليات لقوله : «بأن الشاطىء من رأس سبارتيل إلى رأس كانتان وعرفي كل مناطقه والبحر يجري فيه بسرعة لايمكن معها رسو السفن أو اقلاعها دون أن تتعرض لجسيم الاخطار».

ويذكر القرصان الفرنسي جان دوبلي (Jean - Doublet)في مذكراته وملاحظاته التي قام بها على طول الشاطىء المغربي من مدينة العرائش إلى سانت كروا (Saint - Croix) مسجلا بدوره بتاريخ 28 دجنبر 1699 : «أن النزول على طول الشواطىء المحيطة بسلا لايساوي شيئا، نظرا لصعوبة الرسو وصعوبة الاقلاع في بحر وعر وقوى الهيجان».

ومقابل ذلك نجد سكان هذا البلد يكونون جماعة من المحاربين والدليل على ذلك أنهم يحرسون مدنهم وساحاتهم. وقد شاهدتهم يقومون بهذه العملية كثيرا مما يدل على قوتهم وصلابتهم».

إن انزال بعض الرجال بنقطة مختارة من الشاطىء المغربي، ربما لم يكن يستدعى مثل هذه الصعوبات الكبيرة لكن فائدة مثل هذه العملية كانت جد ضئيلة. ولم يكن بالامكان الحصول على نتائج إيجابية إلا في حالة الاحتلال الدائم.

وبعد التجربة المكلفة جدا للبرتغاليين والاسبانيين في هذا الباب لا أحد كان يمكنه أن يفكر منطقيا في إقامة دائمة فوق تراب يتميز سكانه بمعارضتهم القوية للمسيحيين مثل مغرب القرن السابع عشر، وذلك من أجل دحر القرصنة بخاصة.

وتظهر لنا أكثر فائدة وأهمية — وإن كان هذا إلا لمجرد التوثيق — بعض المشروعات التي تهدف إلى احتلال بعض القواعد ذات الفعالية الاستراتيجية كنقط دعم للعمليات ضد القراصنة.

ففي سنة 1626 كان اسحاق دي رازيلي (Isaac de Razilly) قد اقترح في مذكرة رفعها إلى الكاردينال دي ريشليو (de Richlieu) احتلال موكادور (الصويرة) قائلا : «إنها جزيرة سهلة للتحصين حيث يمكن وضع ستة مدافع مع مائة رجل مزودين بحاجتهم من البسكويت وعدد من ألواح الخشب لبناء بعض الدور» ويؤكد أنه يمكن بذلك الحصول على قاعدة ممتازة للعمليات وساحة «لتجارة الحديد والقماش ومختلف البضائع والسلع».

وهكذا وباختصار يكون بوسعنا «وضع اقدامنا في افريقيا للذهاب إلى أبعد من ذلك». ورغم أن هذا المقترح نال موافقة ريشليو ألا أنه لم ينجز أي شيء منه. فبعد مرور قرن ونصف على ذلك أسست حاضرة موكادور (الصويرة).

ولنفس الغاية والاهتمام كان قبطان سفينة استفال وقائد سفينة لودوفان (le Dauphin) في أسطول الاميرال ديستري، بعد أن بين الفوائد التي توفرها فضالة لقراصنة سلا، يؤكد بأنه «من السهل الاستيلاء على جزيرة فضالة وبناء بعض الحصون بها... وحينها تكون صالحة للدفاع تمكن حراستها بقليل من الرجال، وحينئذ لن يكون بامكان القوات الافريقية كلها الاساءة اليها.»

«وإذا احتفظ خلال الصيف كله باثنين أو ثلاث سفن صغيرة فلن يمكن لقراصنة سلا الظهور بالشاطىء دون القبض عليهم كما لايمكنهم الرسو بأي ميناء دون الهجوم عليهم مما سيؤدي إلى تحطيم قرصنتهم كليا وارغامهم في القريب العاجل على البحث عن السلم مع فرنسا.»

«وستكون هذه الوسيلة بيد الفرنسيين الذين اعتادوا مع سلا أن يقوموا بنفس التجارة مع فضالة بسهولة أكبر بدون أن يكونوا موضوع الهجومات المتكررة عليهم

من طرف المغاربة، علاوة على الاخطار التي كانت تحيق بهم عندما يؤسرون في البحر[16]».

إن هذا المشروع المغري مثل مشروع دي رازيلي بقي حبرا على ورق في ملفات وزارة البحرية، ولم يكن كولبير أكثر ميلا من ريشليو في عدم الاهتمام بتحمل مسؤولية بناء مؤسسة على الارض المغاربية.

ولمختلف الأسباب التي قمنا بعرضها والنتائج الهزيلة المحصل عليها فقد أجلت العمليات المراد القيام بها ضد السلاويين، إلى أجل غير مسمى. فكل حملة ضدهم كانت تحمل إلى الإمارات البحرية الأوربية خيبة جديدة وفشلا ذريعا، وكان الملوك يغضبون بشدة من عجز أساطيلهم التي يكلفهم الاحتفاظ بها على الشاطىء المغربي نفقات باهظة. فلويس الرابع عشر الذي أعطى لمكافحة البرابر اصرارا وعنادا خاصين لم يفتأ يعبر أكثر من مرة عن نفاذ صبره. فبعد النتائج الهزيلة للحملات الأولى : 1670 و 1671 كتب إلى الأميرال ديستري بلهجة عنيفة : « ومع ذلك لا أنسى أن أقول لك بأنه لايروقني الابقاء على حالة الحرب، وبالقوات الكبرى التي توجد الآن في البحر، ضد خصوم ضعفاء مثل قراصنة سلا.« وكان يحثه باستعجال «على تنفيذ بعض الأعمال المجيدة لاسلحتنا والتي يمكنها إنهاء هذه الحرب لفائدة رعايانا[17]».

ومع ذلك فلم يكن ينقص ضباط القوات البحرية الأوروبية الشجاعة ولا الحماس في علمياتهم بشاطىء من أو عر شواطىء الأرض والله وحده يعلم الجهود والمشاق التي يجب تحملها لمواجهتهولا أدل على ذلك من الصنيع الذي تميز به السيد دي بوجي لوكو (de Beaugeay le Gou)، ضابط من رتبة فارس بـ Sebeville في أسطول شاطو ــــ رونو. فقد لاحظ هذا الشاب العوامة لمرساة سفينة قرصنة راسية أمام سلا، فاتجه إلى العوامة الطافية بدون أي تردد والتي بواسطتها رفع مرساة السفينة حاملا لها في زورقه، بعد أن تعرض لعدة طلقات نارية من القرصان الذي لم يكن من يسنده من بين يديه ولا من خلفه ما جعل السفينة لتوها تتحطم عن آخرها وتتمزق شر ممزق[18].

---

(16) مذكرة القبطان استيفال (d'Estivalle) بتاريخ 11 أكتوبر 1670، المصادر المخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1 ص : 335 و ص : 336.

(17) رسالة لويس الرابع عشر الى ديستري بتاريخ فاتح أكتوبر 1671، المصادر المخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 4، ص : 385.

(18) شاتو رونو بتاريخ 2 شتنبر 1671، المصادر المخطوطة، السلسلة2، فرنسا، المجلد 1، ص : 377.

كما تميز شاطو رونو نفسه في اقتناصه للسفينة السلاوية المرعبة «الجبار» التي أرغمها على الغريق بمرسى أنفا (الدار البيضاء) مسببا بذلك حرمان أسطول القراصنة من أجود شراعياته.

ومهما بلغت هذه الأعمال المسلحة من بريق ولمعان فلم تكن كافية لتغيير مسار القرصنة بصورة جدية وصارمة.

لقد كانت حصيلة الحصار الشديد ولشهور عديدة، للشاطىء المغربي تتمثل في اغراق بعض سفن القراصنة أو حرقها أو تدميرها كما تتمثل في بعض طلقات المدافع التي يرمي بها المغاربة أو قصر سلا صدفة.

وبينما كانت الأغذية والأسلحة تصير إلى نفاذ، كانت معادلة الليل للنهار تقترب مع مواكب رياحها العاتية وأمواجها العظيمة، اما نزوة جرف سلا فإنها تمنع الدخول إلى الميناء الذي يصبح غاضبا مزمجرا.
أما هديره فيصير في نفس الوقت مهددا ومحزنا. وفي نهاية شتنبر أو أواسط اكتوبر يرى البحارة الأوربيون الأكثر عنادا و تصلبا في الرأي نفسهم مضطرين لرفع الحصار بعد أن أضاعوا قوتهم ومراسيهم وحبالهم في مرفأ سلا «الذي لا يساوي شيئا»، كما كتب ذلك رازيلي إلى الأساري الفرنسيين يوم 24 شتنبر 1629 لتبرير مغادرته لهؤلاء الذين تركوا لمعاناة قدرهم المحزن ـــ وبارتياح ممزوج بالعجب والخيلاء كان السلاويون المحصنون بالمحيط الغاضب وبحصونهم الفقيرة، ينظرون من على القصر ابتعاد السفن الكبرى والفرقاطات الأجنبية عنهم في اتجاه الشمال بعد أن خلخلها ـــ وبقساوة ـــ الموج العظيم للمحيط الأطلسي. كما أنهم ويشعرون من الآن فصاعدا في مخابئهم بالأمن من كل سوء وهم يوجدون خلف ذلك السد الطبيعي الذي لايمكن عبوره والمتكون من الأمواج الحلزونية المزبدة والتي تغلق الميناء. ولقد كانوا يذهبون آنئد وفي كامل الطمأنينة لاعادة تجهيز مراكبهم وجلفظتها، وبكلمة وجيزة لاعادة بناء اسطولهم المشلول لبعض الوقت والذي انهك قليلا من طرف هؤلاء الكلاب المسيحيين. وبعد ظهور الأيام الجميلة الأولى سيكونون على كامل الأهبة والاستعداد لاستيناف حملاتهم بإصرار وعزم جديدين بحثا عن الغنائم والاسلاب.

وبينما كان العدد الأكبر من القوات البحرية الأوربية يؤمن الحصار على القاعدة الرئيسية لسلا فقد كانت هناك مجموعة مهمة تقريبا من الفرقاطات الخفيفة مدعومة

ببعض السفن الحربية مكلفة بالإبحار في جميع المجال الطبيعي لعمليات القراصنة.

وقد كان برنامج هذه الرحلات البحرية الذي يتغير من حملة إلى أخرى يتكون أساسا من مراقبة الشواطىء الأكثر بروزا، اعنى ابتداء من شواطىء الجزيرة الايبرية، من مضيق جبل طارق إلى رأس بانياس وحتى شرق رأس ارتكال. وكان يتوقع هذا البرنامج بصفة عامة ثلاث مناطق للقيام بدوريات فيها.

ــ الاولى من جبل طارق إلى رأس سان فانسان، لاعتراض تحركات القراصنة القادمين من البحر الابيض المتوسط أو المتوجهين اليه.

ــ والثانية من رأس سان فانسان إلى رأس فنستير لضمان أمن السفن التجارية المنطلقة من مختلف الموانىء الاوروبية والمتجهة نحو الجنوب، فشواطىء بايونا واشبونة وبرلنك كانت موضوع حراسة خاصة.

ــ والمنطقة الثالثة للدوريات كانت تقع في المجال الموجود بين رأس فنستير في اتجاه الشرق على طول شواطىء كاديس وأستوري.

ومن جهة أخرى وفي نهاية الحملة كانت تتم الرحلات البحرية في نواحي الجزر الخالدات.

وكانت مهمة سفن الرحلات البحرية تتمثل في «البحث في كل مكان عن قراصنة سلا ومحاربتهم وأسرهم أو اغراق سفنهم[19]».

وكان المطلوب من قواد السفن أن يأسروا القراصنة أحسن من أن يحطموهم ويقتلوهم. «إذا قبض قرصان واحد فإن ذلك يلحق خسارة أكبر من اغراق عشر قراصنة في الشاطىء، ذلك أن السفن الحربية لاتنقصهم ولكن ينقصهم السلاح والبحارة وذلك ما لايتأتى من اغراق أية سفينة في الشاطىء»[20] كانت هذه هي وجهة النظر التي فصلها لاشبو سير (La Chabossiere)، الضابط باسطول شاتورونو، في مذكرته بتاريخ 31 أكتوبر 1680. ولويس دكاستين (Louis de Gastines) الذي تحدث بدوره عن الرعب الذي كان يصيب القراصنة من السفن الحربية ولم

---

(19) تعليمات موجهة لبانتيي (Pantié) بتاريخ 26 يناير 1681. المصادر المخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 1 ص : 527.

(20) المصادر المخطوطة، Ibid ص : 514.

يتردد في التأكيد : «لو اعتقلت السفن الملكية مرة واحدة مائيتن أو ثلاثمائة من هؤلاء البؤساء فمن الاكيد أن مجهزي سفن القرصنة لن يجدوا في بلدهم من يقوم بهذا العمل»[21] وقد وقع هذا بالفعل في يوليوز 1681 لكن القرصنة السلاوية استمرت رغما عن ذلك.

وبما أن لويس الرابع عشر كان على نفس الرأي فقد اصدر أمرا صارما إلى مورتمارت (Mortemart) جنرال السفن الحربية : «أريد منكم السيطرة على جميع سفن رعايا ملك المغرب التي ستلاقونها في البحر وأن تبعثوا بها إلى مرسيليا بعد اقتناصها»[22].

ورغم جيمع هذه الانذارات الرسمية القوية فإن قراصنة سلا لم يكونوا تلك الفريسة السهلة التي يمكن اقتناصها. اذ كانوا يتوفرون على مؤهلات وميزات للسير بثبات في البحر كانت تفتقدها أجود السفن الاوربية والتي كان يصعب عليها منافسة سفن القرصنة.

وحسبما يقرأ في مذكرة حول استعمال الاساطيل بتاريخ 24 يناير 1681، فإن محاربة القراصنة تتمثل في صيانة «السفن الحربية وجعلها في حالة تسير أسرع منهم بالشراع حتى يمكن القبض عليهم في البحر»[23]. وكان من اللازم على جيمع رؤساء الاساطيل وقواد وضباط السفن الموجهة ضد المغاربيين ان يبذلو اقصى جهودهم للتقليل بما أمكن من هامش التفوق في السرعة التي كان يتمتع بها القراصنة.

فقد اختيرت الفرقاطات المخصصة للرحلات البحرية من بين «أجود الشراعيات» للاسطول كما طلب من المسؤولين عن الاسطول ان يقوموا بصيانة هياكل سفنهم بكامل العناية حتى تكون في مستوى السفن السلاوية. «التي تعتبر نموذجا للصيانة الدائمة. وقد أرتأى القواد أنه يلزمهم تنظيف الغائص من سفنهم مرة واحدة كل شهرين على الاقل كما طالب القواد بأن توضع رهن اشارتهم حول الشواطىء الاسبانية قواعد استراحة منظمة كقواعد لعملياتهم. وهكذا خصصت مراسي فيكو

---

(21) رسالة لويس الرابع عشر إلى مورتمارت بتاريخ 31 ماي 1686 المصادر المخطوطة السلسلة 232، فرنسا المجلد 2 ص 517.

(22) المصادر المخطوطة. السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1، ص : 526.

(23) المخطوطة. السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1، ص : 526.

(Vigo) وقادس (Cadix) وجبل طارق (Gbrlatar) لأمرين الاول تنظيف غوائص الفرقاطات العاملة في الرحلات البحرية والثاني استقبال العتاديات ــ سفن الشحن ــ التي يمكن أن تستغل كمخازن ومستودعات للأطقمة. وتكون مهمتها الأساسية تزويد الاسطول بكل حاجياته من الاغذية وعدة الصواري والقلوع كما سيكون من بين مهامها تعويض المستخدمين العاملين في الاسطول وكذلك تعويض المرضى.

وبذلك يمكن تخفيف حمولة السفن العاملة في البحر أكثر ما يمكن وتسليحها في أحسن الظروف المطلوبة للقيام بمهمتها الصعبة. إلا أن هذه المقتضيات الحكيمة لم يكن لها من أثر مهم وكثيرا ماكانت نتائج الرحلات البحرية محزنة للنفس ومثبطة للعزيمة.

ففي مناطق الدوريات كانت الفرقاطات الخفيفة والسريعة معرضة لرداءة الطقس المستمرة، حتى في فصل الصيف، بينما كانت السنابك ومربعات الاشرعة السلاوية الاكثر فعالية وتحملا للمكاره تسيطر على البحر دون أي ارهاق يذكر، وبناء على ذلك اقترح عقيد سفينة شبوسيير (la Chabossiere) تزويده ببحارة ماهرين لتحسين فعالية الفرقاطات المستعملة ضد القراصنة «وكتب مضيفا : بما أن البحار جد صعبة في رأس فنستير فمن اللازم بالنسبة إلى الفرقاطات ذات الجسر الواحد اضافة جسر صغير من الخشب مفتوح على الوسط لوضع زورق انقاذ في الاسفل وسداً لمنع الناس من السقوط في البحر» «وبتوفرها على هذا الجسر الصغير يمكنها السيطرة على هيجان البحر كأجود سفن العالم ولن تكون أقل فعالية من الشراع»[24].

وحسب مشروع أعد سنة 1683، فقد فكر في تجهيز سفن تجارية من نوع القوارب او الطرائد تحمل 50 جنديا، حيث لا تثير عدم ثقة القراصنة وانتباههم والتي يمكنها الرسو عند الحاجة بمراسيها، وتترك نفسها تطارد من قبل المراكب المغربية الصغيرة كحيلة للاستيلاء عليها فيما بعد عند الاقتراب من الشاطىء. لكن هذا

(24) مذكرة من لاشابوسيي (LaChabossier)، المصادر المخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1، ص : 514، وص : 515.

النوع من السفن ــ المصيدة ــ مع تصديقنا أنها استعملت، وهذا أمر مشكوك فيه جدا، لم يسمح بتسجيل أي انتصار يذكر.

وبالرغم من المهارات المستعملة والمشاريع المحضرة واستمرار الجهود المبذولة فإن نتائج الرحلات البحرية الاوروبية ظلت دائما هزيلة وضعيفة. فكثيرا ما نجح القراصنة في النجاة من طلقات أعدائهم النارية. وعلى كل حال فقد وقع عدد قليل منهم بين ايدي السفن الحربية التي كانت تطاردهم بلا هوادة. وهكذا اعتبر أسر سفينة سلاوية مهما كانت صغيرة انتصارا باهرا.

فحينما استولى، في يوليوز 1671 شانو دي لاكلو شتيري (chateau de la Clochetterie) قائد الفرقاطة لاموتين (La Mutine) في رحلة بحرية بين رأس اسبشيل (Cap Espichel) وجزربايونا، على سفينة قرصنة سلاوية تحمل على ظهرها 65 رجلا، لم يفت لويس الرابع عشر أن يعبر عن ارتياحه ورضاه في مذكرة بعث بها إلى كولبير دي طيرون (Colbert de Terron) وفي 22 ماي 1680 استطاع الفارس دي فلاكور de Flacourt بعد معركة ضارية ضد قرصانين سلاويين أن يأسر واحدا منهما رفقة 35 مغربيا، لكنه مما لا ريب فيه أن شهرى يونيه ويليوز 1681 كانا من اخصب الشهور، من حيث النتائج المحصل عليها منهما، في جميع الحملات الموجهة ضد السلاويين. فجان بارت (Jean Bart) كان يقود فرقاطتين من فئة 18 و 30 مدفعاً «مجهزتين في دونكرك (Dunkerque) بأمر من الملك المسيحي للقيام بمحاربة قراصنة سلا» وقد استولى الفارس دي بيتون (de Buthume) والماركيز دي لانجرون (de lanjeron) في أسطول شاثورونو على 3 سفن قرصنة وأسر 300 مغربي، ــ والذي كان من بينهم ابن أخ عامل سلا على معنينو ــ لكن لانجرون وحده هو الذي استولى في البحر على سفينة خصمه الرايس على بودرى من فئة 5 مدافع وطاقم مكون من 45 مغربيا و15 عبدا.... ميسحيا كما استولى على غنيمة هذا القرصان. وارغمت سفينتان آخريان بعد الهجوم عليهما على الجنوح إلى الشاطىء البرتغالي أما اطقمتهما التي نجت إلى اليابسة فقد سلموا إلى جان بارت بناء على تدخل من سفيرنا باشبونة. وفي نفس التاريخ فان الفارس دى كويتلوكون (Coetlogon) أغرق سفينة قرصنة رابعة بقرب المعمورة وارسل اليها من يحرقها، لكن طاقمها نجا بنفسه إلى اليابسة(25).

(25) كزيط فرانس (151 ــ 7 ــ 1681). المصادر المخطوطة. السلسلة 2. المجلد 1 ص : 556. وهذا النوع من العمليات لم يكن يخلو من مخاطر فالعملية التي قام بها عقيد السفينة كويتلو كو، انتهت بصورة

وعلى هامش الرحلات البحرية المعدة بصورة منتظمة من طرف رؤساء الاسطول فقد شارك قراصنة فرنسيون في الكفاح ضد البربريين. مثل جان بارت (Jeau Bart) وكان هؤلاء القراصنة اكثر سعادة ويمنا من سفن الملك. فالسيد ديستفال (d'Esteval سفير فرنسا باشبونة كان قد انهى إلى علم سيلاي (Seignely) بوساطة رسالة مؤرخة بـ 8 شتنبر 1690 ان السفينة لامتيي (l'Amitié) كانت قد اسرت بقرب جزر برلنك (Berlingues) سفينة سلاوية يتكون طاقمها من 100 رجل. وفي 14 نونبر من نفس السنة استطاع قرصان صغير من سان مالو أن يأسر سفينة سلاوية أخرى مسلحة بـ 3 مدافع وتحمل 40 «تركيا» وقد حمل أساري الغنيمتين إلى مدينة بريست Brest) ثم سيقوا منها عن طريق بوردو وقناة ميدي (Midi) إلى السفن الحربية بمرسيليا[26].

وقد كان الأسطول الفرنسي هو الذي يقوم كثيرا بمهمة تأمين الملاحة التجارية بواسطة رحلات بحرية موجهة بخاصة لزجر القرصنة ودحرها. كما أخذت بعض السفن الانجليزية على عاتقها نفس المهمة، أما البرتغاليون فبالرغم من أن شواطئهم كانت هي المعرضة اكثر من غيرها وبصفة خاصة لغارات وتخريب القراصنة السلاويين والجزائريين على حد سواء، فلم يبدوا أي حماس لتأمين حراسة شطآنهم. وتقارير موظفينا الدبلوماسيين ناطقة بصحة ما نقول في هذا الموضوع. فالسيد دى ليسكول (de l'Escolle) قنصل فرنسا في اشبونة كان قد كتب بتاريخ 12 يونيه 1691 إلى بونتشارتن : «انه لمن ضياع المال أن يستعمل في ارسال البرتغاليين للقرصنة، لانهم حينما يشاهدون الجزائريين من جانب يتجهون إلى الجانب الآخر متظاهرين بانهم لم يروهم.» انه لمن المخجل للبرتغاليين أن يتركوا شواطئهم معرضة للنهب والتخريب ولست أدري ماذا يعملون بفرقاطاتهم الأربعة الجميلة من فئة 50 إلى 60 مدفعا التي تجوب البحر منذ ثلاثة أشهر بين رأسي فنستير وسان فانسان دون أي صنيع يذكر». أما فيما يخص حصون المناطق البحرية للكارف(des Algares) فلم يكن لهم بها حسبما قاله الريس ديسترى الذي خلف ديسنفال d'Esneval) في السفارة الفرنسية باشبونة لا أسلحة ولا مدافع.

= مخزنة، فالزورق أرسل لاغراق السفينة المغربية، امتلأ بالصخور البحرية وانقلب على رأسه، فغرق كثير من رجاله وأسر الذين نجوا إلى اليابسة من طرف المغاربة.

(26) المصادر المخطوطة ـــ السلسلة 2 فرنسا ـــ المجلد 3 ص : 350 والمذكرة 3.

وأن الحملات البحرية ضد القراصنة البربريسكيين مهما بلغت تنظيماتها من دقة وأحكام ومهارة في التسيير فإنها ظلت باستمرار عقيمة ومؤسفة.

وحينما فشل الانكليز في مفاوضاتهم مع سلطان المغرب اخذوا يعملون بقوة وإصرار على اقتناص السلاويين، فقد كلف سنيلاي (Seignelay) قنصلنا بفاس بيير دى كاطلان (Pierre Catalan) بشراء جميع الأتراك للانجليز «الذين يمكن استخدامهم في السفن الحربية المكلية، إلا أن كاطلان أكد يقينه بان «هذه الفرص جد نادرة» وفي 31 مارس 1687 كان يؤكد بأن السفن البحرية الانجليزية التي تجوب الشواطىء بحثا عن السلاويين لم تأسر أي واحد منهم».

كما اضطر شاتورونو للاعتراف في نهاية حملته لسنة 1687. «إني لم ألتق قط بالجزائريين ولا برجال سلا إني لم ألتق أي نبأ منذ مغادرتي لقادس[27].

وكان تعهد الفرق العاملة في الرحلات البحرية يكلف نفقات باهظة، ولمواجهة هذه النفقات وجب فرض ضرائب على التجارة البحرية. وقد رضي تجار أوروبا عن طواعية بهذه الضرائب لانهم لم يكونوا يقبلون أن تترك سفنهم معرضة لهجومات يكون أثرها جد سيء على اعمالهم. إلا أن القرصنة مع ذلك لم تخفها هذه الوسيلة الزجرية التي كانت تظهر عدم فعاليتها سنة بعد أخرى.

وبما أنه لم يكن التوصل إلى دحر القراصنة عن طريق السلاح، وفق الأمل المنشود دائما والمخيب باستمرار، فقد اضطر ملوك أوروبا للتفاوض مع سلا مهما كلف ابهتهم ذلك من ثمن. لكن السلاويين المتجرئين والمتمتعين بعدم التعرض لأية عقوبة، كانوا يظهرون أنفسهم كل يوم أكثر ادعاء وأكثر امتناعا عن التفاهم. فالمفاوضات كانت تدوم طويلا. سواء مع عمال مدينة القراصنة أو مع الشرفاء، الذين يبدون اتفاقهم كلما تعلق الأمر بالتخلص من مطالب المسيحيين. وكان السلاويون يعلمون حق العلم أنه في فصل الخريف على الأكثر ستتكلف رداءة الطقس والبحر بتخليصهم من خصومهم الذين كانوا يدعون إملاء شروط غير مقبولة للسلم تحت تهديد سفنهم الحربية.

ولا يمكننا التفكير هنا في معالجة موضوع العلاقات الدبلوماسية بين

(27) حملة دي تورفيل، المصادر المخطوطة، السلسلة 2 — فرنسا — المجلد 3 ص : 123.

امبراطورية المغرب والبلاطات الأوربية، دون الخروج عن الاطار الذي رسمناه لانفسنا[28] ولكن نقول فقط بأن العمل الديبلوماسي لم يكن أقل كرها من التحرك العسكري، فحينما كان المفاوضون الأوربيون يتوصلون بعد لأي وجهد إلى وضع مشروع لمعاهدة تسبقها عادة محادثات لاتنتهي ويتخللها كثير من حيل ومراوغات المبعوثين المغاربة، لايجدون كثيرا في نهاية المطاف إلا سوء الاستقبال من طرف رؤسائهم.

وهكذا رفض شارل الأول للمملكة المتحدة، سنة 1627 التصديق على معاهدة أبرمت من طرف هارسيون (Harrisson) قائلا «أنه من غير الشرف التفاوض مع المتمردين والقراصنة».

وقد تعرض سنة 1633 بريام دي شارلار (Priam du Charlard) المكلف من طرف لويس الثالث عشر بالتفاوض مع السلاويين لشراء أساري الفرنسيين، إلى حادث سوء جد خطير. فهذا الرجل المهذب الذي اعتبر أنه انفق كثيرا إلى حد الاسراف من أجل أداء مهمته، وضع في سجن الباستيل بعد رجوعه لانه «تجاوز — بافراط — حدود أوامر جلالة الملك».

كما كان على لويس الرابع عشر أن يظهر أيضا صرامة شديدة تجاه قبطان سفينة والمسمى لوفيفردى لابار (Le Fevre de la Barre) فالبرغم من أن هذا الأخير كلف بامضاء معاهدة سلم مع السلطان مولاي اسماعيل، رأى نفسه يسام سوء العذاب بانكار صاحب لتوكيله لانه أمضى اتفاقا لم يرق الملك العظيم. وقد اطلعه على ذلك كولبير بدون أي تحرز : «اني اعترف لك بأن الملك فوجىء جدا بالمعاهدة الغريبة التي اطلعتني عليها والتى أرى من خلالها انك لم تنس كرامة الملك فحسب بل اصبحت مستعطفا للحصول على هدنة سيئة... وكان الوزير قد ختم شتمه الصاخب مستدعيا بغلطة القائد دي لابار بالعودة توا «للذهاب مع الفارس شاتو — رونو ومحاولة النجاح في حرب أحسن مما قمت به في مجال السلم»[29].

---

(28) لقد وضع شارل بنز (Charles Penz) تحليلا قيما للمفاوضات بين فرنسا والمغرب في القرن السابع عشر في كتابه «الأسارى الغربيون بالمغرب في القرن السابع عشر» الرباط، المطبعة الرسمية 1944.

(29) رسالة كولبير إلى لوفيفر دي لابار بتاريخ 26 غشت 1681 المصادر المخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1 ص 363.

وقد اتخذت تدابير حصار اقتصادي ــ لم يتعد الاطار النظري ــ علاوة على العمل العسكري والعمل الدبلوماسي. وبما أن المغاربيين لن يمكنهم الاستغناء عن الوردات الأوروبية، فإن ضغطا فعالا على التهريب سيكون له أثر حاسم على مستقبل القرصنة، لكن هذا الضغط لم يمارس قط بقوة وروح المقررات اللازمة.

وقد تلقى سنة 1631 كل من رازيلي وشامر الأمر : «بأخذ جميع السفن المسيحية التي تحمل السلاح والبارود والسير بها نحو مسلمى الشاطىء الافريقي». وكان لويس الثالث عشر في معاهدته سنة 1635 مع مولاي الوليد يطالب «بمنع أي انجليزي أو أي دولة أخرى تجارية من حمل السلاح أو أي بضاعة أخرى للرعايا المتمردين لامبراطور المغرب».

وباجراءات صادرة عن لويس الثالث عشر بتاريخ 20 أكتوبر 1634 كان قد منع بواسطتها «على كل رعاياه والتجار الأجانب العاملين بفرنسا شحن أية بضاعة في موانىء ومراسي مملكته بقصد حملها إلى موانىء المغرب وشواطىء افريقيا ثمانية أشهر» ومد هذا المنع بأمر من ريشليو بتاريخ 29 يوليوز 1635.

وقد منعت هولاندا أيضا بواسطة أمر مؤرخ بـ 17 اكتوبر 1624. ــ ومؤكد يوم 27 نونبر ــ على كل رعاياها بأن يبعثوا أو يحملوا إلى مملكة فاس والمغرب «بنادق الفتيلة والبنادق العادية والمسدسات وجيمع أسلحة الحرب[30] وقد كان الأمر الصادر عن الولايات العامة للبلاد الوطيئة بتاريخ 14 أكتوبر 1641 أكثر تهديد أو خاصة في فصله 12، الذي كان يمنع على أي كان أن يشحن أو يحمل إلى مدن سلا والجزائر وتونس، الأشرعة والمجاديف وبارود المدفع أو أي أسلحة حربية أخرى بدون إذن قانوني. وكذلك أخذ هذه البضائع من سطح بواخر اخرى سواء بالبحر أو باحدى الموانىء وحملها إلى المدن المومأ اليها اعلاه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة وتحت أي ذريعة كان ذلك تحت طائلة الإعدام ومصادرة الأموال حتى ولو كان المخالف لم يكتشف إلا بعد سنوات عديدة... ويحكم القانون يعفى عن مبلغي المخالفات ولو كانوا شركاء ويكافأ الآخرون بنفس المكافأة.»

إنه مما يثير الاستغراب والحفيظة في آن واحد أن نرى الحكومة الهولندية تجتهد

---

(30) المصادر المخطوطة، البلاد الوطنية، المجلد. ص : 26.

في اصدار أوامر لمنع أي تعامل مع المغاربيين وفي نفس الوقت تعرف بصورة شائعة بمجاملتها لهم. ولا حاجة لاعادة القول بأن البلاد الوطيئة ومثلها كذلك انجلترا ـــ لم ترفض قط تجارة الأسلحة المربحة مع امبراطورية المغرب وحتى لفائدة «الرعايا المتمردين على السلطان» بالرغم من قناع التحريم الرسمي والصارم لهذه التجارة.

ولا ريب أن لويس الرابع عشر كان من بين الملوك الذي أظهر اهتمامه القوي بزجر تهريب الأسلحة الحربية.

ففي 28 مارس 1681 كان سنيلاي (Seignelay) قد كتب إلى الكونت دافو (D'Avaux) سفير فرنسا في البلاد الوطيئة : «بما أنه بلغ إلى جلالة الملك بأن كثيرا من الهولانديين يقومون بالتهريب لفائدة قراصنة طرابلس وسلا في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ويحملون لفائدتهم جميع المعدات الضرورية لتجهيز سفنهم والمواد الغذائية لاطقمتهم إنه يأمرني بابلاغك اهتمامه الشديد بالأمر ويأمرك بالاتصال مع الولايات العامة للاقاليم المتحدة لمنع هذه الفوضى التي تلحق ضررا بالغا برعايا جلالته كذلك وبالرعايا الهولنديين[31] وفي نفس الوقت كان قد صدر أمر لشاتورونو وديكسن (Duquesne) الذي كان يقوم بعملياته أمام مدينة الجزائر «باعتقال جيمع السفن التي يلاقونها ذاهبة أو قادمة من طرابلس أو سلا مهما كانت جنسيتها».

إلا أن أهمية القوات البحرية لم تكن تسمح بتنفيذ مثل هذه التعليمات ببعض الفعالية والجدوى.

وبأمر ملكي بتاريخ 24 يوليوز 1687 جدَّد لويس الرابع عشر على رعاياه منع أي تعامل تجاري مع رعايا ملك المغرب. لكن لم تكن لهذا المنع أية نتيجة سوى اعطاء الفرصة للمهربين الأجانب على حساب التجار الفرنسيين. وهكذا فلم يجف مداد الأمر الشهير لسنة 1687 حتى عرف خروقات كثيرة جعلت منه عديم الأثر بصورة محسوسة. ففي 22 دجنبر 1687 كان بإمكان توماس لوجاندر (Thomas le Gendre) ان يرسل من روان إلى سلا بواسطة السفينة لي ترواماري (Les Trois Maries) شحنة من الحديد والصلب للسماح باتمام بناء سفن كان السلاويون يعدونها في دار الصناعة.

(31) المصادر المخطوطة السلسلة 1، فرنسا، المجلد 1 ص 531.

وخلال هذه الفترة كان الانجليزيون يتفاوضون من أجل استرداد أساراهم وافتدائهم مقابل «مدافع وبنادق وكور المدافع ورصاص وبارود وبنادق الفتيلة وكل ما كان السلاويون بحاجة اليه من معدات» (32).

وقد كان ج.ب. استيل يؤكد بأن «الوسيلة الوحيدة لمعاقبة السلاويين تتمثل في ايقاف التجارة معهم لسببين قويين الأول أنه لايمكنهم بتاتا الاستغناء عن سلع الدول الأجنبية والثاني انهم يقتطعون عشرة في المائة عن البضائع الداخلة إلى الميناء مثل البضائع المصدرة منه» لكنه كان يصرح «بأن ذلك كاد أن يكون عاما، وبما أن هذا غير واقع فعلي ملكنا أن يفعل مثل الانجليزيين وغيرهم من الأمم الأخرى» .

وفي النهاية فأن الحركة الزجرية للبحريات الأوروبية لم تعرف سوى التثبيط والاحباط بالرغم من أهمية التضحيات المبذولة وقوة الوسائل التي وضعت حيز التنفيذ لهذه الغاية.

ولهذا نجد في التاريخ، من غير أن نفاجأ أن اسماء بحارة لمعت نجومهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثل سوردي (Sourdis) ورويتر (Rayter) وبلاك (Blake) وديستري (d'Estrées) وشاتورونو (Chateau Renaut) وجان بار(Jean Bart) وتورفيل (Tourville) ودى شافور (Du Chaffaut) وكراس (Crasse) وسيفرين (Suffren) يتورطون في حصارات عقيمة وحملات بحرية مضنية ضد قراصنة سلا والحقيقة أنه كثيرا ما كانت هذه العمليات لا تهدف إلى ردع القرصنة بصورة فعالة بقدر ما كانت تعمل على إسناد ودعم المفاوضات من أجل شراء الأسرى أو ابرام معاهدات تحالف وهمية.

والخلاصة أن السلاويين استطاعوا خلال قرن ونصف من الزمن أن يشعروا كل سنة من هذه الحقبة الطويلة بتفوقهم المستمر نتيجة لحيرة خصومهم وخور قواهم، ويمكنهم من أعلى مراكبهم السريعة الحركة أن يحتقروا السفن الكبرى للأساطيل الأنجليزية والفرنسية والهولاندية التي انتدبت نفسها لملاقاة القراصنة من مياه المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما كانوا يدعونه.

---

(32) مذكرة من طرف ج.ب. استيل بتاريخ 15 شتنبر 1688، مصادر مخطوطة، السلسلة 2، فرنسا المجلد 3 ص : 202.

الفصل التاسع
موجز تاريخي

القرصنة السلاوية ــ القرصنة السلاوية تحت المراقبة الشريفة القرصنة الإمبراطورية.

إذا نحن تركنا جانبا الجولات المتفرقة والحملات المتباعدة للقرصنة المغربية التي سبقت القرن السابع عشر واقتصرنا على دراسة النشاط الخاص لقراصنة سلا المتميزين يمكننا أن نقسم تاريخ هذا الفرع الخاص من القرصنة المغاربية إلى ثلاثة حقب :

ــ **الحقبة الأولى** : من سنة 1610 إلى 1668 ــ وهذا هو العصر الذهبي للقرصنة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، والذي ساد تحت نظام الجمهورية الموريسكية لسلا. وتشتمل هذه الحقبة على ثلاث مراحل متتابعة :

أ) من سنة 1610 إلى 1626، وكانت هذه مرحلة التنظيم التي إكتست القرصنة خلالها مظهر القوة والشدة بإغراء وتحريض من الموريسكيين الذين كانوا على هامش السلطة الشريفية.

ب) من سنة 1626 إلى 1641 وتميزت هذه المرحلة بالتحرر من أي تبعية للسلطة المركزية الشريفة حيث أخذت جمهورية القراصنة شكلها النهائي وأصبحت تمارس سلطاتها بكامل الاستقلال. كما صار القراصنة الجريئون والشرسون يوسعون كل سنة من مجال عملياتهم. مما أدى بأروبا إلى أن تتحرك وتظطر للقيام بردة فعل لهذه الظاهرة التي تهددها.

ج) من سنة 1641 إلى سنة 1668، واصطبغت هذه المرحلة بتبعية الجمهورية الموريسكية وخضوعها للزاوية الدلائية. وتتابع فيها نشاط القرصنة وعرف حيوية أكثر من ذي قبل، وبلغت القرصنة السلاوية قمة مجدها وأوج عظمتها.

الحقبة الثانية : من سنة 1668 إلى 1667، واتسمت بانتصار السلطان مولاي الرشيد على جميع المتمردين واستتباب الأمر له على مجموع تراب الامبراطورية. كما إتسمت أيضا باختفاء جمهورية قراصنة سلا واطفاء شعلتها. ومن الآن فصاعدا أصبحت القرصنة تحت مراقبة الشرفاء وبقيت مزدهرة خلال بضع سنوات، إلا أن انهيارها ازداد بصورة سريعة ومتلاحقة.

الحقبة الثالثة : من سنة 1667 إلى 1668، وكانت هذه مرحلة القرصنة الامبراطورية.

I ـــ القرصنة السلاوية (1660 ــ 1668)

منذ 18 أبريل 1610 كان فوسلاس قد بلغ إلى هنري الرابع مايلي : «أعمال قرصنة رجال سلا» لكن لم يكن الأمر يتعلق حينئذ إلا ببعض الوقائع المعزولة.

ويمكننا أن نحدد بالضبط بداية القرصنة السلاوية بمعناها الحقيقي حوالي سنة 1617 ففي 8 غشت 1617 كتب القبطان الهولندي ابي ويلمز (Abe Willemsz) إلى إمارة البحر لروتردام مايلي : «منذ سنة لم يكن يملك المغاربة أية سفينة والآن يملكون أربع سفن عاملة بالبحر : وإذا لم يؤخذ الحذر والاحتياط منهم فسيصبحون أقوياء جدا. وبما أنهم غير خاضعين لسلطان المغرب فسيهيمنون على كل ما يمكن أن يقع تحت أيديهم»[1] وقد أكد هذا التاريخ بمذكرة 26 نونبر 1616 التي بعث بها درازيلي إلى ريشليو حيث نصت حرفيا على مايلي : «هؤلاء الرعايا لمملكة المغرب، لقد شرعت سلا وتطوان في تجهيز سفنها البحرية منذ ثمان سنوات وقد أسروا ستة آلاف مسيحي وخمسة عشر مليون ليرة وكان نصيب فرنسا من هذه الخسارة يمثل ثلثها، رغم أنهم لم يبدأوا عملياتهم إلا بتجهيز طريدة واحدة والآن يملكون أكثر من 60 سفينة إلا أنها غير مجهزة بصورة جيدة من حيث التسليح والتأطير إذ يمكن تدميرها بإرسال ست سفن حربية كبرى من حمولة 300 طنة للواحدة. وهم يتدربون الآن على الحرب شيئا فشيئا وإذا لم يوضع علاج سريع وحاسم لهذه الظاهرة فسوف يصبح من قبيل المستحيل غلبتهم أو قهرهم»[2].

ومنذ السنوات الأولى أخذ السلاويون يبذلون مجهودا ضخما ونشاطا ملحوظا وكانت ضرباتهم قبل كل شيء تكتسي طابع العمليات المتكررة على الشواطىء الإسبانية وبينما كانت ممرات المحيط الأطلسي قليلة الحراسة والمراقبة فقد كان القراصنة يستغلون بقوة أثر مفاجآت الخصم إذا انطلقوا من قواعدهم وبجرأة نادرة في عملياتهم على مسافات بعيدة واضعين على الفور تحت سيطرتهم مجالهم البحري الجديد على سعته.

---

(1) مصادر مخطوطة، البلاد الوطيئة، المجلد 3 ص : 65.

(2) مصادر مخطوطة، السلسلة الأولى، فرنسا، المجلد 3 ص 115.

وفي سنة 1622 أخذ القراصنة السلاويون مصحوبين بنظرائهم الجزائريين يغامرون بصورة عادية في بحر المانش ـــ وخلال السنوات الموالية تعددت الهجومات المغاربية على الشواطىء الانجليزية. وكان صياد والأرض الجديدة هم المرمى الرئيسي والفريسة المفضلة لدى القراصنة بصورة خاصة.

وفي سنة 1627 قام القرصان الشهير مراد الرايس، خلال أبعد رحلة للسلاويين بالنزول على يابسة اسلاندا والاستيلاء على مدينة ركجاويك[3]. وفي سنة 1631 توغل هذا القرصان في شواطىء ايرلاندا مغيرا على إحدى القرى.

ومن سنة 1620 إلى سنة 1630 أسر السلاويون أكثر من ألف سفينة مسيحية من مختلف الجنسيات. وقد كان الفارس ديرازيلي يصرح بحنق شديد وهو يخاطب ريشليو : «إن الزنابق مهانة في كل مكان».

وقد قلقت الدول الغربية من جراء الانتصارات المدوية التي حققها هؤلاء النوتيون المبتدئون الرهيبون في البحر، كما عجزت السفن الحربية المتعددة التي وضعت لخفر الشواطىء المهددة عن تأمين الحماية اللازمة للتجارة البحرية، مما اظطر الرأي العام الشاعر بخطورة الحالة أن يطالب بأعلى صوته، بالقيام بردة فعل قوية وصارمة.

وفي 27 يونيو 1629 خرجت من لاباليس أول قوة بحرية بعثت بها أوربا ضد سلا لاعادة القراصنة إلى رشدهم وصوابهم. وقد وضعت القوة البحرية تحت قيادة الفارس إسحاق دي رازيلي مصحوبا بالمستشار بريام دي شالار وقد وصل الأسطول المكون من سبع سفن حربية وخفارتين إلى مرفأ سلا يوم 20 يوليوز مع بزوغ الشمس ولم تكن مهمة الأسطول والحق يقال تكتسي طابع هجوم عنيف، فقد صدرت تعليمات لرازيلي أن يستميل جمهورية القراصنة إلى إطلاق سراح العبيد الفرنسيين وإبرام هدنة معهم في انتظار القيام بالتفاوض من أجل التوقيع على معاهدة سلم تشتمل بنودها على افتداء آخر الأساري الذين مازالون يئنون في أغلالهم تحت قبضة المغاربة ورحمتهم وقبل كل شيء لم يعترض ديوان سلا إلا على التحدي البطر لمطالب دي رازلي الذي تبنى حصار الميناء وتشديد الخناق عليه، وقد سمح تحرك مهم

(3) ركجاويك (Rey-kjawick) المدينة التي احتضنت قمة العظميين : كرباتشوف عن الاتحاد السوفياتي وريكان عن الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1987. — المترجم —

للاسطول الفرنسي يوم 6 غشت باحراق وتدمير سفن سلاوية، من بينها سفينة الاميرال من حمولة 300 طنة، مسلحة بـ 24 مدفعا وعلى ظهرهـا طاقم مؤلف من 180 رجلا علاوة على سفينة نائب الاميرال التي هي من نفس الحجم لسابقتها. وقد أدى هذا الانتصار الجزئي إلى إبرام هدنة لخمسة شهـور وقعت في 12 أكتوبر 1629 بين القائد دي رازيلي أميرال اسطول صاحب الجلالة الراسي بالشواطىء المغربية وعبد القادر حرون «الحاكم والقبطان العام لثغر سلا».

ومع ذلك فقد اضطر رازيلي لمغادرة ميناء سلا قبل أن ينجح في تلبية رغبته باستلام الأساري ولم يرتح لنتائج حصاره التي اطلع عليها رشليو في عبارات مشوبة بالتبجح والتباهي : «لقد أعدت السفن الحربية الملكية إلى رشدها وصوابها بحيث لم يستطع القراصنة أن يخرجوا قرابة ثلاثة أشهر أي واحدة من سفنهم مما نسف مخططهم الأول علاوة على السفن التي كانت عاملة لحسابهم في البحر، إذ دخلنا ميناءهم وأسرنا البعض من سفنهم وأغرقنا البعض الآخر[4].

وفي السنة الموالية اضطر رازيلي للعودة إلى الشاطىء المغربي على رأس فرقه عسكرية مكونة من سفينتين حربيتين (لليكورن) تحت قيادة رئيس البعثة، (ولا رونومي) تحت قيادة شالار بالاضافة إلى خفارة، (لابتيت مركريت) تحت قيادة القبطان بالو إذ غادر سانت مارتان دي ري يوم 20 يونيو ورسا أمام مرفأ سلا يوم 23 يوليوز ونجح في نفس اليوم في مفاجأة وأسر ثلاث سفن سلاوية ولم تجرؤ على الخروج إلى البحر سبع سفن قرصنية كاملة التسليح كانت راسية بالواد.

وبعد هذا العمل العسكري الهام اتخذت المفاوضات الجارية مع ديوان سلا لتحرير الأساري منعطفا جيدا لصالح مائتين من هؤلاء الأساري الأشقياء حيث أمكنهم امتطاء السفن الفرنسية التي كانت بانتظارهم وبينما كانت المفاوضات جارية بين الطرفين أتيح لعشرين سفينة مغربية كانت بعرض البحر الدخول إلى الميناء دونما أي قلق أو خوف.

وفي 3 شتنبر 1630 فإن «القائد العظيم ديرازيلي أول قبطان لامارة الملك وسلطة قداسة الكاردنيال يوقعان باسم ورعاية الملك وسلطة قداسة الكاردنيال هدنة لمدة

(4) مصادر مخطوطة، السلسلة 1، فرنسا، المجلد 3 ص : 20.

سنتين مع القائدين العظيمين أحمد بن بكسيل وعبد الله بن علي القصري القبطانين الحاكمين لقصر ومدينة سلا. وكانت بنود هذا الاتفاق تضمن للسفن الفرنسية حق التجارة مع مدينة القراصنةل بكل طمأنينة وأمان.

وقد أبحر دي رازيلي متجها إلى مدينة اسفي تاركا لشالار مهمة متابعة المحادثات مع السلاويين لشراء الماسورين، وفي 13 أكتوبر من نفس السنة حول اتجاهه نحو فرنسا حيث وصلها بتاريخ 23 نونبر حاملا معه ثمانين أسيرا. بينما كان مائة وعشرون منهم قد أعيدوا إلى وطنهم رفقة القبطان بالو (Pallot).

وبعد الهدنة الموقعة بين درازيلي وديوان سلا كان السلطان مولاي الوليد قد وقع بدوره بتاريخ 17 شتنبر 1931 معاهدة سلم مع لويس الثالث عشر، لكن بخطا من يهودي هولندي يسمى دافيد بالارش والذي لم يحسن اختياره كوسيط في هذه القضية، فإن السلطان لم يخطر بالمصادقة على هذه المعاهدة من طرف ملك فرنسا ما جعل السلطان يعتبر أن السلم أصبح في خبر كان ويعطي الأمر للقراصنة بالعودة إلى نشاطهم بالبحر.

وقد تضررت حملة القراصنة سنة 1632 بصورة خطيرة من جراء الهجومات العنيفة التي قام بها الولي العياشي ضد القصبة، لكن منذ سنة 1633، استأنف القراصنة من جديد، اقتناص السفن المسيحية استجابة لأوامر الشريف بصورة استثنائية.

وبالرغم عن كل شيء فإن فرنسا كانت ترغب في التصديق على معاهدة 1931، وتسهيلا لاستيناف المفاوضات فإن مولاي الوليد بدوره أعطى أوامره في أبريل 1634 بإيقاف القرصنة لمدة ستة أشهر، والتضحية بحملة أخرى للقراصنة : ولم يرهب هذا الايعاز خوف السلاويين الذين كانوا لايخضعون لأوامر السلطان إلا إذا كانت في ذلك منفعة لهم كما أشار إلى ذلك شارل بنز[5].

وبعد هذه المفاوضات التي استمرت قرابة أربع سنوات، فإن معاهدة السلم وقعت أخيرا في 18 يوليوز 1935 بين مولاي الوليد ولويس الثالث عشر طبقا للأصول الواجبة والقواعد المرعية.

---

(5) «الأسارى الفرنسيون بالمغرب في القرن التاسع عشر» ص 46.

لكن مغاوير افريقيا العتاة كانوا غيورين جدا على استقلالهم أكثر من قبولهم لشروط المعاهدة الجديدة والخضوع لها دون تكتم أو إخفاء. فقد كانوا يدعون بأنهم في سبيل التفاوض مع فرنسا لامضاء معاهدة خاصة بهم. وفي انتظار تحقيق ذلك فقد كانوا يتابعون مغامراتهم البحرية بلا كلل ولا ملل.

وبينما كان دي شالار De Chalard يناقش شروط افتداء أساراه والمبالغ المستحقة الأداء عليه، غادرت مرفأ سلا اثنان وعشرون سفينة قرصنية، بعضها يتجه نحو الشواطىء الاسبانية والبعض الآخر سار في اتجاه جزر الكناري Les canaries ولتوه تقع خمس سفن محملة بالسكر والقمح تحت قبضة القراصنة وتساق إلى ميناء سلا مأسورة مهينة ولم يبد حكام المدينة والقصر قبولهم ـــ الذي يعتبر نظريا بكل ما في الكلمة من معنى ـــ بالمعاهدة المبرمة بين ملك فرنسا والشريف إلا في فاتح شتنبر من سنة 1635.

ونظرا للنية المبيتة للسلا وبين فيما يتعلق بتنفيذ شروط المعاهدة فإن قائد القوات البحرية هنري ديسكوبلودي سوري Henri d'Escoubleau de Sourdis، تلقى أمرا بتاريخ 20 أبريل بالاتجاه نحو مرفأ سلا و«إخضاع المدينة المذكورة إلى العمل على تنفيذ بنود معاهدات السلم بين جلالته وملك المغرب» وفي حالة رفض المدينة ستعلن الحرب عليها من قبل الملك وتحرق سفنها أنى وجدت محتجا، كيفما كان الأمر، بأن جلالته لايريد قط خرق بنود السلم وكذلك خرق المعاهدة الموقعة بينه وبين ملك المغرب[6].

وفيما وصل سوردي إلى مرفأ سلا كان له الحظ المواتي لأسر قرصان سلاوي مع غنيمته[7] ـــ إذ استولى على 100 رجل من طاقم السفينة المأسورة وأطلق 50 أسيرا انجليزيا كانوا تحت قبضة القراصنة. وبما أنه كان مقيدا بتعليمات محزنة فقد أضاع فرصة استغلال هذا النصر إلى أبعد حدوده وبقيت عملية سوردي هذه دون فعالية وجدوى.

وبالرغم من أوفاق السلم الرسمية بين الامبراطورية الشريفة والدول الغربية ـــ إذ

(6) تعليمات لسوردي ـــ مصادر مخطوطة ـــ السلسلة 1، فرنسا، المجلد 3 ص 15.

(7) ويتعلق الأمر بما في

وافقت جمهورية القراصنة في الأخير بتاريخ 3 غشت 1636 على بنود المعاهدة الممضاة سنة 1610 بين البلاد الوطيئة ومولاي زيدان — فإن سنتي 1638 و1636 كانتا تعتبران ألمع السنوات لمغامرات القرصنة السلاوية. وهكذا كانت حملات القراصنة على الشواطىء الأوروبية وخاصة منها الشواطىء الانجليزية متعددة ومتوجة بأعظم الانتصارات وأروعها وهكذا أيضا عرف تجار ومجهزو سفن كورنواي Cournouailles وبلاد الغال المأساة التي الحقتهم بها جرأة السلاويين إذا أصبحت حالهم تدعو للرثاء من جراء التضحيات التي كان يجب عليهم القيام بها نحو عائلات الضحايا الأشقياء للقراصنة المغاربيين. وكان الخيال الشعبي نشيطا. في تضخيم عدد الأساري الذين يسقطون بين يدي القراصنة. فقد ذكر عمدة بليموت Plymouth أنه في يوم واحد من سنة 1636 أسر مائتا عبد وسيقوا إلى مدينة سلا. وكان يؤكد بأنه يوجد قرابة ثلاثة ألاف أسير بريطاني يئنون في غيابات المطامير المغاربية.

ولم يكن باستطاعة إمارة البحر البريطانية أن تظل مكتوفة الأيدي أمام هذه الحالة المزرية، إذ قررت إرسال أسطول باتجاه الشواطىء المغربية، وأعطت بتاريخ 27 فبراير 1637 للاميرال ويليم رنيسبوروك قيادة بعثة تتجه مباشرة إلى سلا لتحطيم سفن القراصنة وافتداء الأساري الانجليزيين كما أعطته الأمر بإغراق جميع سفن القراصنة التي يمكن أن يلتقي بها في البحر.

وقد وصل رينسوروك بتاريخ 3 أبريل إلى مدينة سلا على رأس أسطول يتكون من أربع سفن حربية كبرى وهي ليوبار (Le Leopard) ولانتيلوب (L'Antilope) وهرقل (Hercule) ولاماري (La Mary) ووجد المدينة غارقة في النيران والدماء. فالأندلسيون الذين طردوا الهورنتشورس من القصبة كانوا يهاجمون سلا القديمة التي كان يدافع عن حماها الوالي سيدي العياشي. لقد كانت مدينتا أبي رقراق تعيشان فترة غليان وجيشان قويين. فما كان من الأسطول الانكلترى إلا أن يحاصر قراصنة سلا في مينائهم ويبذل مساندته بالمدافع للولي سيدي العياشي وفي 13 ماي وقع رينسبوروك، باسم شارل الأول ملك انجلترا معاهدة سلم مع العياشي «ولي سلا» وبمقتضاها حرر الأساري الأنجليزيين ورفع الحصار عن المدينة وأبحر منها بتاريخ 30 غشت 1637 تاركا وراءه الجمهورية المورسيكية تعاني من تمزقها ودسائسها واستقلالها يتدحرج نحو الأفول.

وتحت تأثير الحصار الذي طوق مدينة سلا سنة 1637 والاضطرابات الداخلية المصاحبة له والتي استمرت حتى سنة 1638، فقد انقطعت عمليات القرصنة لمدة سنتين. ولم تكن نتائج سنوات العقد الأخير أقل من أفضل النتائج في تاريخ القرصنة. إذ حصلت جمارك مدينة سلا خلال هذه الفترة كرسوم على الغنائم على سبعة وعشرين مليون دوكا.

ونتيجة لانشقاق فئتي الهنورنتشوس والأندلسيين سنة 1641 فقد وقعوا تحت سيطرة الزاوية الدلائية. وعاد الهدوء للمدينة ونهضت القرصنة من جديد بدينامية جديدة وخلال ربع قرن من الزمن هاجم السلاويون دون هوادة ولا رحمة جميع السفن التجارية المسيحية متسببين في أفدح الأضرار للتجارة البحرية. فبالإضافة للاخطار العادية للملاحة من أعاصير وعواصف كان الخطر الأعظم الذي لا يمكن قهره أو التغلب عليه يتمثل في ملاقاة قرصان من سلا، وعرفت أسعار التأمين عن البضائع المنقولة بواسطة البحر أرقاما خيالية بحيث أصبحت تمثل 40 % من قيمة الشحن — ولم يعد بإمكان المجهزين قط أن يوظفوا بحارة من أجل أطقمتهم.

وبالرغم من أن هذه الوضعية المفجعة، فإن رد الفعل الأوربي ضد خطر القرصنة ظل يتسم بالضعف والضحالة. فبدلا من أن تلجأ الدول الأوربية للقيام بعمل حاسم ومنسق فضلت طريق التفاوض لحل إشكالية الأوفاق والمعاهدات مؤملة التخفيف من خساراتها بالبحر.

وأمكن للسلاويين خلال عقود من السنين أن يتابعوا عملياتهم دون خوف من أي عقاب أو أية مطاردة من لدن خصومهم.

وقد اضطرت البلاد الوطيئة سنة 1649، التي لم تكن تظهر قط أي حماس لمناهضة القرصنة، إلى القيام بردة فعل ضد سلا.

فقد «بعث رئيس العمارة جوري فان كات (Joris Van Cats) لمراقبة المياه الواقعة بين رأس سان فانسان والشاطىء المغربي وكذلك داخل وأمام مضيق جبل طارق» في مهمة لمحاولة مفاجأة وأسر وتخريب سفن الجزائر وتونس وسلا، كما أمر بخاصة بمحاصرة مرافىء سلا والمعمورة، ولم تكن نتائج هذه الحملة غير ذات فعالية وجدوى إذ أسرت أو دمرت خمس سفن سلاوية من طرف السفن الحربية الهولندية، وكان من بين السفن الماسورة والمدمرة عتادية من فئة 22 مدفعا يقودها منشق انجليزي،

ومن بين مائة وثلاثة رجال من طاقم السفينة قتل 33 وبيع الآخرون كعبيد، (120 ريال ملكي كثمن للواحد.)

وفي السنة الموالية بعث بعمارة هولندية جديدة تتكون من أربعة سفن حربية من بينها يخت واحد إلى الشواطى الإسبانية والمغربية. وتحت القيادة المتتابعة لجوهان فان جيلان (Johon Van Gaelen) وجيدون دي ويلت (Gedon de Wildt) رست هذه القوة البحرية بمرفأ سلا. وضيقت الخناق عليه بصورة اعاقت السلاويين عن التزود بالمواد الغذائية الضرورية والقيام بممارساتهم اليومية وأدت في النهاية لخضوعهم إلى طريق التفاوض، وادت المفاوضات التي عملت على تأخيرها الاضطرابات السياسية التي كانت تسود مدينة القرصنة، إلى التوقيع في الأخير على معاهدة 9 فبراير 1651. لكن سلما كهذا لم تكن له إلا صبغة مهزوزة. اذ تعرض لتوه لخروق متعددة لبنوده حيث تابع السلاويون بالرغم عن المقتضيات الصريحة للبند 4 فتح مينائهم في وجه قراصنة تونس والجزائر وطرابلس وتسهيل بيع الغنائم الهولندية بسلا وأكثر من ذلك ففي سنة 1654، أسرت سفن تحمل علم البلاد الوطيئة من لدن قراصنة سلا. ما جعل الإمارة البحرية المغتاظة لاسترداد تطلب من الولايات العامة أن تعطي أوامرها للسفن الحربية الهولندية بمطاردة السفن السلاوية مثلما كان عليه الأمر من ذي قبل، وبتاريخ 15 و 16 يونيو 1654 ذهب أسطولان أحدهما تحت قيادة نائب الأميرال دي رويتر (De Ruyter) لخفر السفن التجارية العاملة بالبحر الأبيض المتوسط والآخر تحت أوامر نائب الأميرال كورنولي ترومب (Cornelis Tromp) لمرافقة السفن التجارية المتجهة إلى إسبانيا والبرتغال واقتناص السفن البربريسكية. وقد عمل حجز عتادية سلاوية واسر ثلاث سفن أخرى من سلا من طرف القرصان الهولندي لين براندت دي زيالاند (Lyn Brandt de Zelande) على تدهور الأوضاع بصورة نهائية، إذ اعتقل كل من القنصل دي فري (De Vries) واعتقل كذلك جميع قباطنة ونوتيو السفن الهولندية الراسية بمرفأ سلا.

ولاعادة الأمور إلى نصابها وتصحيح الأوضاع المتردية أعطت الولايات العامة بتاريخ 21 يونيه 1655 أمرها للاميرال رويتر بتجهيز ثمان سفن حربية والسير عاجلا في اتجاه مرفأ سلا والدخول في مفاوضات مع ممثل «سلطان سلا» سيدي عبد الله بهدف تحرير المساجين واستعادة السفن المحجوزة. وعلاوة على ذلك كانت تتحتم

مراجعة بنود معاهدة 1651 وإذا لم يتم اتفاق بين الطرفين المعنيين فإن نائب الأميرال وقباطنته سيلحقون بالسلاويين كل أذى تمكن ويعاملونهم كباقي القراصنة البربريسكيين[8].

وقد وصل روتير لميناء سلا في فاتح أكتوبر 1655 وتوا استؤنفت المفاوضات وتميزت بالبطء والتماطل. وكان على الأميرال الهولندي الذي خطط لاتمام مهمته خلال 15 يوما لا أكثر ولاأقل، أن لايغادر الميناء إلا في 2 نونبر من نفس السنة، بعد أن أرسى عن طريق اتفاقية 22 أكتوبر 1655، قواعد مشروع معاهدة بين البلاد الوطيئة ومدينة سلا وعهد باتمام المشروع مع سيدي عبد الله إلى القنصل الهولندي دي فري (De Vries) ولم يفت سيدي عبد الله أن يستغل محادثاته هذه ليطالب «ولمرات متعددة السماح له وعلى نفقته الخاصة باستيراد ألف رطل من بارود المدفع من هولندا وتحت طائلة وعد صريح من طرفه بعدم استعمالها إلا دفاعا عن القصبة وأيضا بعدم استعمال أي رطل منها في البحر»[9].

أما انكلترا فقد امتنعت عن إرسال أي قوة عسكرية ضد سلا منذ حملة رينسبورك إذ كانت لها علاقات تجارية جد متميزة مع مدينة القرصنة. ومع ذلك فلم يكن القراصنة السلاويون يحرمون أنفسهم منْ مهاجمة ومطاردة السفن الانجليزية ونتيجة لذلك كان عدد الأساري الانجليزيين في تزايد مطرد.

وكانت انكلترا بالرغم من عجرفتها تريد حماية شواطئها بهدوء وسكينة عن طريق رحلات بحرية غير مجدية بل بدلا من أن تقطع بصورة مكشوفة علاقتها مع السلاويين كانت مضطرة لتستسلم إلى مساومات مهينة لها وهي تناقش أسعار شراء أساراها. ففي سنة 1645 فإن رسم 1/4000 الذي حُول فيها بعد إلى 1/2000، قررت الزيادة فيه على جميع البضائع المنقولة بواسطة البحر بهدف أداء الفدى. وقد سعر ثمن كل عبد حسب درجته. وقد حددت الأثمان كالآتي : 30 جنيها للنوتي و60 جنيها لضابط من درجة ثانية وكان تحرير ضابط كبير يخضع لصفقة بالتراضي، وقد حرر عشرة عبيد انجليزيين بمبلغ إجمالي قدره 580 جنيها.
لكن النفوس كانت تشعر بالهوان من جراء هذه الممارسات سواء من حيث طابعها

(8) مصادر مخطوطة، البلاد الوطيئة، المجلد 4، ص : 30.
(9) مصادر مخطوطة، البلاد الوطيئة، المجلد 4 ص : 212.

المادي المرهق أو من حيث تجافيها مع مبادىء الأخلاق وما كان يؤدي في النهاية إلى الاعتراف المشروع بقانونية القرصنة. وقد صار المجلس الخاص يتلقى أكثر فأكثر عرائض تلح شديد الإلحاح على ارسال عمارة إلى سلا وتطالب بالافتداء السريع للعبيد.

ففي غشت 1656 تلقى الأميرال روبيربلاك (Robert Blak) الأمر بفك الحصار عن قادس والتوجه نحو سلا لاسترداد المواطنين الأساري ومحاولة الاتفاق مع سيدي عبد الله على إبرام معاهدة سلم شبيهة بتلك التي عرف كيف يتوصل إليها مع ولايات الجزائر وتونس بعد انتصاره على الأسطول التونسي.

وفي 14 غشت من نفس السنة وصل إلى مرفأ سلا الأميرال الانجليزي الشهير كونت دي ساندويشت برفقة سيرادوارد مونتكو، وبمعية غالبية قطع أسطوله. وبالرغم من تحطيمه لاربع سفن سلاوية والتي فضلت الجنوح إلى صخور الشاطىء بدلا من أن تقع فريسة بيد الانجليزيين، فإن القراصنة بحثوا عن ربح الوقت كعادتهم. وبعد 15 يوما من المراوغة والمواربة رفع بلاك مرساته من الميناء يوم 30 غشت تاركا به ثلاث قطع بحرية بهدف مواصلة الحصار. وإلى يوليوز 1657 فقط رضى السلاويون بالتوقيع على معاهدة سلم مع انكلترا وإطلاق سراح اسراه.

وخلال هذه الأحداث عادو رويتر من جديد إلى سلا إذ رسابها يوم 16 إبريل 1657 وبمعيته خمس سفن حربية كبرى. وكان قد أمضى اتفاقا في 22 مارس بين البلاد الوطيئة وحكام سلا، لكن سيدي عبد الله أرجأ التصديق عليه. فوجب الإنتظار أكثر من سنة والتهديد بقنبلة المدينة للوصول في النهاية وبالضبط في 10 غشت 1658 إلى توقيع ومصادقة الطرفين على معاهدة السلم بين سلا وهولندا.

وقد كاد أن يؤدي حادث لايتنافى وأعراف هذه الفترة «التاريخية» بالأضرار بسلم يتسم بالهشاشة واكتسب بعد عناء ومعاناة لامزيد عليها.

وفي 6 أكتوبر 1658 التقت بعثة سفن خافرة لسفن تجارية ذاهبة من قادس إلى راس فنستير، باخرة القرصنة السلاوية لوسلاي (Le Soleil) تحت قيادة الرايس أحمد القرطبي مرفوقا بلجنة مؤشرة بانتظام من لدن قنصل البلاد الوطيئة فبعد أن فتش من طرف إحدى السفن الخافرة هوجم القرصان لتوه وفجأة من طرف سفن البعثة المو ما

إليها. وقتلت البروفيت دانييل بعض أعضاء طاقم (لوسلاي) واعتقل الآخرين ومن بينهم الرايس بعد أن أحرق السفينة ونهّب ما فيها.

فهذا الحادث المتفرد الذي كان موضوع تاويلات متباينة، أثار دويا عميقا وخلف صدى واسعا سواء بالمغرب أو البلاد الوطيئة. وقد طالب السلاويون باصلاح الأضرار الناجمة عنه كما أن إمارة البحر الهولندية المهتمة بالمحافظة على سلم لما يجف مداده مع السلاويين، أخذت القضية بكثير من الاعتبار. وقد أحيل القبطان لوبيك بتاريخ 9 يناير 1659 على المحكمة، وحكم عليه باداء مبلغ 9500 فلورين للرايس كتعويض عن الحادث. وقررت أمارة البحر علاوة على ذلك ارسال سفينة من نفس الحمولة والتجهيز بالمعدات والأسلحة للسفينة المدمرة إلى مدينة سلا على حساب هولندا. وقد بيعت السفينة لوبرفيت دانييل لفائدة الرايس القرطبي.

وكان على الدول الأوروبية خلال عشر سنوات أن توقف عملها الحربي ضد السلاويين تحت غطاء خادع من المعاهدات المتعددة. وبذلك أصبح السلاويون أكثر استعدادا وقابلية لممارسة عملياتهم العادية لولا الهيجان الذي أصاب من جديد مدن أبي رقراق. وبما أن السلطة الوصية لوالي الزاوية الدلائية أخذت تخور وتضعف نتيجة لما أحدثه الخلاف من ثلم في صفوفها بدت على السطح من جديد لعبة الجسورين في الجمهورية الموريسكية التي عرفت فتنا مستمرة و قد أدى بها ذلك في النهاية أن تدق بنفسها نعى استقلالها. وبالتالي كان انهيار القرصنة السلاوية.

II ـــ القرصنة السلاوية تحت المراقبة الشريفة

(1757 ــ 1668)

لقد بويع المولى الرشيد كسلطان سنة 1664 وعمل على توحيد الإمبراطورية الشريفة بصورة سريعة. وبعد استيلائه على الزاوية الدلائية بتاريخ 24 يونيو 1668 تخلص من المشاغب غيلان وأخضع تحت سلطته الجمهورية السلاوية واضعا بذلك حدا نهائيا لاستقلالية قراصنتها.

ومالبث مولاي رشيد المعروف بشدته وارتيابه أن ثار غضبه وسخطه على موقف الدول الأوروبية فأقسم على الانتقام لنفسه من بعض تصرفاتها الشائنة والتي

كان يعتبر نفسه هدفا لها «فأعطى أمره لقراصنته بمضاعفة نشاطهم حتى يشعر المسيحيون بثقل غضبه عليهم».

وبعد انكماش دام عدة سنوات عرفت القرصنة السلاوية ازدهارا مهما بفضل تدخل السلطات الشريفة. وهكذا صارت البحار الأوروبية من جديد مسرحا لعمليات السفن السلاوية من سنابك وغيرها وسقطت تحت قبضتها كثير من السفن التجارية الأوروبية.

ولم يكن أسطول القرصنة يكتسي أهمية كبرى، فلم يكن يحتوي سنة 1669 إلا على تسع سفن كانت من أعظمها فرقاطة بنيت بأوراش سلا من فئة 24 مدفعا وطاقم يتألف من 300 رجل.

وأمام هذا النمو المطرد للقرصنة قرَّ عزم الدول الأوروبية على تحريك قواتها البحرية تجاه سلا دون أن يتخذ هذا التحرك صبغة عمليات زجرية.

وفي 10 دجنبر 1669 كلف الكونت جان ديستري نائب أميرال فرنسا، من طرف لويس الرابع عشر بقيادة أسطول حربي مكون من ست سفن في البحار الغربية. وكانت غاية جلالته من هذا الاجراء أن يؤمن تجارة رعاياه في مجموع المحيط الأطلسي وأن يحمي الملاحة البحرية أمام قادس وتنقل الغليونات وأساطيل إسبانيا الجديدة وأن يحارب قراصنة الجزائر وتونس وطرابلس وسلا وتكلفت سفينتان بحراسة مضيق جبل طارق لمنع مرور القراصنة أو عودتهم منه وأنيطت ببقية الأسطول مهمة زجر سلا.

وفي 28 ماي 1670 وصل الأميرال الفرنسي لمدينة القراصنة رفقة ثلاث سفن حربية وحراقة وقد وجد في مرفأ سلا أسطولا هولنديا يتكون من ست سفن حربية تحت قيادة العقيد العام فان جان وكان قد وصل للميناء قبل بضعة أيام. وكانت مهمة هذا الأسطول بالدرجة الأولى هي إسناد المفاوضات التي يجريها قنصل البلاد الوطيئة بسلا لتجديد معاهدة 1658 ودعمها.

ولم يمكث ديستري بمياه سلا سوى 15 يوما إذ كان عليه أن يلتحق رفقة أسطوله بميناء قادس يوم 18 يونيه حيث سيكون موعد وصول الغليونات إليه. لكنه ترك لمقاومة السلاويين سفينتين كبيرتين وفرقاطتين خفيفتين.

وفي سنة 1671 قرَّ عزم الملك على متابعة الحرب ضد قراصنة سلا فجهزت (روشفور) أسطولا قويا يتكون من عشر سفن حربية وثلاث فرقاطات خفيفة وعتادية واحدة وحراقتين وعهد بقيادته من جديد للكونت ديستري. وتحت أوامر الفارس (دى شاتورونو) في نهاية شهر أبريل، أبحرت ثلاث سفن هذا الأسطول وهي : لوسان لوي والفرقاطتان ليبو ولامرتين هادفة مرفأ سلا ومحاصرته في انتظار التحاق بقية الأسطول بها بعد شهر. ويوم 27 ماي 1671 التقت السفن الفرنسية العاملة بين المعمورة وسلا بثلاثة قراصنة كانوا يحاولون الدخول للميناء فهاجمتهم ونجحت في تدميرهم حيث أرغمتهم على الارتماء على الشاطىء. وقد دافعت أقوى السفن السلاوية، التي كان طاقمها يتكون من 130 رجلا، دفاعا مستميتا مدة خمس ساعات لكنها اضطرت في النهاية للهزيمة بعد أن احرقت بكاملها.

وفي 18 يوليوز 1671 وصل الأميرال ديستري إلى ميناء سلا. وغادرها يوم 3 غشت نحو قادس تاركا أمام الجرف الفارس دي شاتورونو رفقة ثلاث سفن.

وقد أسفرت حملة سنة 1671 عن تدمير أربع سفن قرصنة واسترداد سفينتين ماسورتين. ولم ترض هذه النتيجة الملك لويس الرابع عشر وأبلغ بذلك الكونت ديستري.

إلا أن هذه الحصارات والحملات المنظمة منذ سنتين لم يكن لها في الواقع أي أثر حاسم على سير القرصنة. فقد أثار أسر الفرقاطة لارويال بتاريخ 16 اكتوبر 1670 دهشة عظمى لدى أعضاء مجلس مدينة دييب ما جعلهم يشعرون بها (دى كولبير). كما أسرت السفينة لاكاترين بتاريخ 28 ماي 1671 من طرف السلاويين وهي في طريقها من لاورشيل إلى جيان مما يدل بوضوح على أن التدابير الوقائية المتخذة لزجر القراصنة كانت تنقصها الفعالية والجدوى. وفي يناير 1672 ارست أربع سفن فرنسية أخرى من طرف القراصنة.

وفي 4 مارس 1672 تولى (شاطور ونو) قيادة عمارة مكونة من ست سفن حربية «التى كان جلالة الملك قد جهزها بروشفور للعمل بالبحار الغربية ابتداء من المضيق إلى بحر المانش»[10] كما طلب من شاطورونو «العمل على أسر واقتناص جميع

(10) تعليمات القاطورونو، مصادر مخطوطة Ibid ص : 417.

سفن قراصنة سلا التي تخرج من هذا الميناء لتجوب في البحار المعهود اليه بحر استها» و «إذا استمر ملك فاس في عدم الإصغاء لمقترحات السلم التي ستعرض عليه وأصر السلاويون على متابعة قرصنتهم فستتخذ جميع التدابير لشن حرب شعواء ضدهم». بيد أنه في هذه الأثناء أخذت تنشب بوادر حرب بين هولندا وفرنسا، وأصبح الهدف الرئيسي لاسطول شاطورونو يوم 6 أبريل 1672 يتمثل في مهاجمة السفن الهولندية سواء منها الحربية أو التجارية. وبذلك اصبحت القرصنة السلاوية في مأمن من أي اعتداء عليها من طرف القوات البحرية الفرنسية.

وفي تاسع أبريل 1672 توفي السلطان مولاي رشيد بصورة مأساوية من جراء سقوطه من فرسه خلال لعبة بالرماح. وقد خلفه على عرش أمبراطوريه المغرب أخوه المولى اسماعيل.

وتحت امرة هذا العاهل العظيم تابعت القرصنة نشاطها لكن مالبثت ان سارت بسرعة نحو الانهيار.

وقد أخذ استقلال القراصنة يتقلص يوم عن يوما إلا أن الدول الأوروبية ما فتئت تعتبر السلاويين هم المسؤولون الوحيدون عن القرصنة، ولذلك كانت تمتنع من التفاوض معهم لابرام اتفاقات غير ذات مضمون فيما كانت تتابع محادثات رسمية مع السلطلة المركزية لافتداء الأساري.

وهكذا وتحت ضغط تدخل أسطول القبطان (جون ناربوروك) توصل من العميدين الانجليزين (جيمس ليسلي وجون بلاند) في شتنمبر 1676 إلى امضاء معاهدة سلم مع السلاويين لمدة سنتين. وفي نفس الاتجاه قام كولبير بتاريخ 2 ماي 1679 بتوجيه نسخة من المعاهدات المبرمة بتاريخ 17 ماي 1666 مع الجزائر و28 يونية 1672 مع تونس إلى الكونت (ديستري) مناديا إياه أن يستلهم منها شروط السلم التي يجب فرضها على قراصنة سلا ومؤكدا عليه أن تمضى الاتفاقية من طرف السيد أميرال سلا[11].

(11) رسالة كولبير إلى جان ديستري، مصادر مخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 1 ص : 471.

وفي السنة الموالية أنيطت بشاطوررنو مهمتان عسكرية ودبلوماسية في أن واحد، حيث عين قائدا لاسطول يتألف من سفينتين حربيتين وثلاث فرقاطات وحراقة وكان الهدف الرئيسي من تعيينه هو تأمين سلامة وحرية جميع شواطىء المملكة من كل القراصنة ومغامري البحر. وكانت التعليمات الموجهة اليه من الملك تحثه على تنظيم حملات بحرية لاقتناص القراصنة وحصار مرفأ سلا. كما كان قد تلقى الأمر في نفس الوقت بالتفاوض مع حاكم سلا، وتحت تحفظ المصادقة النهائية من طرف ملك فاس والمغرب، لابرام معاهدة بمقتضاها تتوقف جميع أنشطة القرصنة واعمال الحرب ويحرر كل العبيد الفرنسيين دون استثناء أي واحد منهم، وبالرغم من الأمر الملكي بانهاء الحرب بسرعة وتدمير جميع السفن القرصنية واخضاع القراصنة لشروط السلم التي يقترحها عليهم جلالة الملك، فإن المهمة المزدوجة لشاطورونو منيت بالفشل الذريع.

إلا أن الحملة الجديدة لردع القراصنة سنة 1681 كانت أكثر فعالية. فقد نجح جان باروقباطنة أسطول شاطورونو في تدمير أربع سفن قرصنية وأسر ثلاثمائة نوتي ملحقين بذلك خسارة فادحة بأسطول سلا. وكان لهذا الانتصار تأثير على سير المفاوضات التي لم توقف العمليات الجسورة لسفن الملك. وبعد الإتفاق المزعج للمعمورة — الممضى بتاريخ 13 يوليوز 1681 مع القائد عمر والقبطان لوفيفرى دي لابار والمرفوض من لدن لويس الرابع عشر عاد السلم في النهاية بين فرنسا والمغرب بإمضاء معاهدة سان جرمان أنلي بتاريخ 29 يناير 1682 باسم امبراطور فرنسا وملك المغرب ومع الحاج محمد تامين سفير امبراطور المغرب.

ونظرا لرغبة انكلترا بدورها في الاتفاق مع الإمبراطورية الشريفة فقد توصلت في نفس الفترة إلى عقد اتفاقية سلم — وايت هول بتاريخ 2 أبريل 1682، كان قد أمضاها باسم ملك المغرب سفير المولى اسماعيل احمد بن حدو. ولكن هذه الاتفاقية لم تضع حدا لهجومات القراصنة السلاويين. فبعد رجوع مفاوض السلطان إلى المغرب أسرت ثلاثون سفينة انجليزية خلال سنة 1682. وكان من اللازم على فرقاطات انجليزية أن تداوم حملاتها لمدة سنتين ما بين سلا وأسفى للضغط على الشريف وحمله على احترام بنود اتفاقية (وايت هول). بينما كانت الحكومة الانجليزية تغض الطرف عن حركة تجارة الأسلحة التي كان يقوم بها التجار الهولنديون والانجليزيون معا. كما ظهر أن تنفيذ اتفاقية سان جرمان بالنسبة لفرنسا لم يكن سهلا ميسورا، إذ كان المولى

اسماعيل يلح في طلب تحرير رعاياه بينما كان يستعمل كل الطرق المتخيلة لاجتناب اطلاق سراح الاساري الفرنسيين، وقد استنفذ السفير الفرنسي لدى السلطان البارون دى سان أمان، جيمع طرق التفاوض دون جدوى وبذلك كان يطالب دوما بارسال سفن حربية للشواطىء المغربية ابتداء من تطوان إلى سلا لزجر السلاويين. ولم يكن هؤلاء يظهرون بصورة مكشوفة قرصنة السفن الفرنسية لكنهم كانوا يشجعون بكل قواهم عمليات القراصنة الجزائريين مما كان يؤدي الي تنامي نشاط حركة القرصنة واستمرارها.

وما فتئت خروق معاهدة 1682 تتسع يوما بعد يوم ليصبح من العسير وقعها على الراتب وتنتهي بنفاد صبر الملك لويس الرابع عشر — ففي 29 ماي 1686 طلب ملك فرنسا من المريشال (ديستري)، حيث كان أسطوله متواجدا بقادس، بتوجيه فرقاطة إلى شواطىء المغرب والسير بنفسه رفقة بعض السفن الحربية لمحاربة القراصنة وإيقافهم عند حدهم، لأنه ليس هناك من وسلية أخرى لزجر الذين لايحترمون نصوص المعاهدات سوى الاستيلاء على سفنهم، والضغط عليهم لاسترداد الاساري الفرنسيين ومبادلتهم بمغاربة[12] وفي نفس الوقت وجه الأمر إلى الدوق مورتمارت، جنرال الشراعيات الحربية، باقتناص وأسر جيمع القراصنة المغاربة. وكان يتميز من بين هؤلاء بجراته وصنائعه، عبد الله بن عايشة جنرال سفن سلا. وكانت التعليمات الموجهة إلى مورتمارت بتاريخ 9 ماي 1687 تتسم بالصرامة والحدة. وأضيف اليها اعلان حرب مستمرة ومدمرة ضد السلاويين بمساندة اسطول مكون من خمس سفن كان قد جهزه (شاطورونو) بمدينة بريست.

وفي 22 يونيه 1687 كان قد بعث (مورتمارت) ماركيز (أمر فيل) للقيام بغارة بحرية لمدة عشرة أو اثنى عشر يوما من رأس سبارتيل إلى مدينة سلا في محاولة لاقتناص بعض القراصنة والاستيلاء على سفينة هولندية مشحونة بمختلف انواع الأسلحة الحربية والتي كان قد بعث بها يهودي من أمستردام إلى مدينة طنجة.

ولم تسفر الحملات البحرية التي قادها كل من مورتمارت وشاطورونو عن أية نتيجة مرضية وكذلك كان الأمر بالنسبة للمحادثات النهائية في موضوع الأساري.

(12) رسالة لويس الرابع عشر إلى المارشال ديستري Ibid ص : 578.

وفي 4 غشت 1687 أناط موتمارت (Mortemart) الذي كان عليل الصحة، قيادته بالفارس دي تورفيل الذي كان يقود «العمارة القوية لجلالة الملك والتي جهزت باحسن المعدات لمحاربة قراصنة سلا والجزائر «وقد تلقى دى تورفيل الأمر باعلان حرب قوية ومستمرة» ضد الجزائريين واغتنام الفرصة للقيام بشبه حرب ضد قراصنة المغرب. إلا أن الفرص لم توات قائد أسطول جلالة الملك. فمنذ اعلان مجيء دي تورفيل كان القراصنة قد اختبأوا بمكانهم ولم تلتق السفن الحربية الفرنسية قط في مسارها بأي قرصان سلاوي.

وظهر شاتورونو مرة أخرى من بين يدي مرفأ سلا بتاريخ 20 غشت 1688 «لحفز المولى اسماعيل على عقد الصلح» لكنه اضطر للجوء إلى ميناء قادس بتاريخ 26 شتنبر بعد أن تبين له العقم الكلي لحملته البحرية.

وفي هذه الأثناء كان يوجد تحت قبضة المولى اسماعيل 265 أسيرا فرنسيا كانوا قد اسروا من على ظهر 42 سفينة فرنسية ومع هذا اعطى لويس الرابع عشر موافقته لابرام معاهدة صلح مع السلاويين بتاريخ 20 ماي 1689.

إلا أن الأسطول القرصني آنئذ لم يكن يشمل إلا على ست سفن بينما كانت سفن فرقاطات من فئة 18 مدفعا في طور البناء بسلا. وكان السلطان يعتمد في الحصول على المعدات اللازمة لبنائها وتسليحها بالمدافع والكور والقلوع والصواري، على استيرادها من مدينة امستردام ومقابل ذلك وعد السلطان قنصل البلاد الوطيئة باطلاق سراح آخر العبيد الهولنديين.

وكان «الأميرال الكبير بن عايشة يفتخر باستطاعته الخروج قريبا مع جيمع سفنه لقرصنة البحر والانتقام من الفرنسيين».

وفي خريف 1692 كان السلاويون حسبما أورده القنصل ج.ب. استيل في تقاريره : «يتوفرون على ثلاث عشرة فرقاطة» «جيملة جدا» تحمل ما بين 18 إلى 20 مدفعا وأطقمة تتكون من 100 إلى 120 رجلا من أحسن النوتيين وبالرغم من كونهم جنودا بواسل فقد كانوا سيىء التجهيز فيما يتعلق بمعدات الحرب[13].

(13) مذكرة ج.ب. استيل بتاريخ 12 شتنبر 1692. مصادر محفوظة السلسلة 2، فرنسا، المجلد 3، ص : 1528.

وكان لويس الرابع عشر جد منشغل بحربه ضد جامعة أوكسبورك (La ligue d'Augsbourg) حتى يمكنه، وخاصة بعد كارثة دي لاهوك (La Hougne) سنة 1692، أن يلتزم بالقيام بعلميات عسكرية شاملة ضد البربر يسكيين. وبينما بقي باب المفاوضات السلمية مفتوحا كانت القرصنة تتابع علمياتها الجريئة بوتيرة تتقلص سرعتها يوما بعد يوم، هادفة بالأساس إلى اقتناص التجار الانجليزيين ومحاصرتهم بعد ما ذاقت من ضغوطهم عليها الأمرين.

وفي سنة 1693 وقعت محاولة أخيرة للصلح مع المولى اسماعيل بهدف ايجاد تسوية سلمية للنزاعات المترتبة عن إمضاء معاهدة 1682 إذ تكفل السيد فرانسوا دي سان أولون (François de St Olon) بمهمة سفارية لدى السلطان كان الهدف الأساسي منها يتمثل في «ابرام معاهدة سلم بمقتضاها تكون السفن الصغرى المتاجرة بشواطىء البرتغال والجزر التابعة لها والغير المخفورة، آمنة من أي اعتداء عليها من لدن قراصنة سلا»[14].

ولم تسمح مطالب المولى اسماعيل الملحة وخاصة منها المتعلقة باسترجاع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة لسفيرنا بالنجاح في مهمته ونتيجة لهذا الفشل الذريع، انقطعت المفاوضات بين المملكة المغربية ومملكة فرنسا لمدة ست سنوات دون أن تنقطع اعمال ردع القراصنة ومنازلتهم.

إلا أن مواقف المولى اسماعيل اخذت تتسم شيئا فشيئا بالصرامة والعناد في علاقاته مع أوربا. ففي أبريل 1694، تسممت بصورة مفاجئة المفاوضات الجارية بشأن تحرير الأساري الفلامان كما تسممت المساومات المتعلقة بتزويد المغرب بما يحتاجه من السلاح والمعدات. وكان المولى اسماعيل قد أعلن الحرب على البلاد الوطيئة «بسبب عدم وفاء القنصل الهولندي بما وعد به والتزم».

وفي يونيه ظهرت في مياه سلا ست سفن حربية انجليزية لكنها لم تقم بها إلا قليلا وسرعان ما غادرتها، وبعد فترة وجيزة قدمت عمارة برتغالية مؤلفة من ست سفن حربية كبرى لتبحر في المياه الواقعة بين المعمورة وسلا ولتدعم المفاوضات الجارية بشأن اطلاق سراح حاكم جزر الأسور السيد ملشيوردي توري (D. Melchiore de

(14) رسالة من بونتشارترن Pontchartrain إلى سان ألون بتاريخ 1 أبريل 1693 ص : 572.

(Torre الذي أسر من طرف الرايس الروسي والذي بقي باستمرار سجينا من سجناء السلطان.

وفي هذا الصدد يحكي ج.ب. استيل «بأن السفن البرتغالية التي تحاصر سلا كانت في حالة تستحق الشفقة عليها والرثاء لها، ذلك أن أربعة من سفن القراصنة تحت قيادة الرؤساء عبد الرحمان وعبد الله بن عايشة والروسي وفنيش دخلت في يليوز 1694 مرفأ سلا تحت مرأى ومسمع من البرتغاليين الذين اقتصر دورهم على أكبر تقدير في قنبلة القراصنة من بعيد دون أن يلحقوا بهم أي أذى أو يصيبوهم بسوء. وأمام هذه الحالة المزرية للبرتغاليين كان حاكم سلا يؤكد بأن سفنهم يهودية وكان الأطفال يصرخون بأعلى اصواتهم : «انظروا ماذا يفعله دجاج البحر... وهكذا كان المغاربة يدعون البرتغاليين »[15].

ولم تكن تفاهة الحصار البرتغالي مدعاة للسخرية فحسب، بل لم تستطع كذلك أن تعدل من مجرى نشاط القراصنة الذي كان يشرف عليه الرجل الذي لا يقهر عبد الله عايشة. وفي سنة 1696 نظمت البحرية البرتغالية من جديد حملة بحرية لم تكن احسن من سابقاتها، اذ قدمت باخرتان حربيتان، واحدة تحمل 64 مدفعا والأخرى تحمل 30 مدفعا بقصد الرسو أمام سلا، بينما كانت سفينتنان أخريتان تراقبان مياه المعمورة بتاريخ 30 ماي. واستمر الحصار البرتغالي المزري إلى غاية 10 اكتوبر حيث لم يكن له أي أثر يذكر على حركة القراصنة. هؤلاء الذين كانوا يسخرون من البرتغاليين وينعتونهم بدجاج البحر احتقارا لهم واهانة لها ما يبررها، وقد قام الأسطول البرتغالي بقنبلة مدينة سلا مرتين واحدة يوم 23 يونية والأخرى يوم 14 يوليوز وكان القنصل ج.ب. استيل، الذي كان قاسي الحكم على القوات البحرية البرتغالية، يعلق على اعمالهم كالآتي «إنها شجاعة ضد الزمن اذ يرمي البرتغاليون بارودهم في الهواء ما يدعو للسخرية منهم والرثاء لحالهم[16]، وكان القرصان الفرنسي جان دوبلي (Jean Doublet)الذي كان يحضر هذه العمليات يؤكد هذا الراى قائلا : «إن البرتغاليين لايطلقون نيرانهم الا على الطيور البحرية[17].

(15) مذكرة ج.ب. استيل بتاريخ 26 غشت 1694 Ibid من ص : 293 إلى 295.

(16) مذكرة ج.ب. استيل بتاريخ 30 مارس 1696. Ibid ص : 416.

(17) جريدة جان دوبلي Ibid ص : 447.

وقد غدت وحدات الأسطول المغربي رغما عن ذلك تتقلص اكثر فأكثر، عدد السفن التي مخرت عباب البحر سنتي 1697 و1698 لم يتجاوز الستة، وكانت لقرصنة السلاوية تلفظ أنفاسها. وكان الجنرال عبد الله بن عائشة اميرال بحرية سلا يخوض تقريبا بمفرده المعركة لمنع انطفاء شعلة القرصنة واستمرار جذوتها. اذ حصل من جديد خلال شهري ماي ويونيه 1698 على خمس غنائم جديدة مما أثار حفيظة القنصل الفرنسيج.ب. استيل وجعله يتوسل إلى بونتشارترن Pont Chartrin «لوضع حد لنشاط هذه السفن الست الشقية حتى لاتبقى مثيرة لصرخات أوربا باكملها[18]».

وأمام هذه الوضعية الحرجة كان العاهل الفرنسي لويس الرابع عشر قد أمر بتجهيز اسطول بموانئه الغربية لمحاربة قراصنة سلا واختار لقيادته الفارس دى كوتلوكون الذي أنيطت به مهمة «استعمال جميع الوسائل لزجر هؤلاء القراصنة وارغام ملك المغرب مرة اخرى على طلب السلم مع جلالته».

ولتنفيذ هذه التعاليم لم يطالب عاهل فرنسا قائد اسطوله بأمر خاص مفصل، اذ عليه أن يستغل كل قواه وتجربته[19].

وكانت القوات البحرية التي وضعت رهن اشارة كوتلوكون عظيمة جداً، اذ تتألف من اربع سفن حربية وثلاث فرقاطات، إضافة إلى ثلاث سفن اخرى مجهزة بتولون تحت قيادة القبطان دى بال (de Palles) والتي كان عليها أن تتجه نحو قادس لحماية التجارة البحرية خلال الفترة التي يتم فيها افراغ شاحنات الغليونات المنتظرة من الهند الغربية. وكان كوتولكون، قد تلقى الأمر أيضا بالتوجه نحو قادس «حاملا معه الأشرعة المتوسطة القيمة والاحتفاظ بالجيد منها لدحر السلاويين» وأنيطت ببعثة دي بال بعد أداء عملها بقادس مهمة حملات بحرية في البحر الأبيض المتوسط ضد السلاويين».

وفي فاتح يونيو اقلع الفارس كوتلوكون من مدينة لوريان Lorient دون أن يغفل اعطاء تعلميات دقيقة للقبطان دي شاطو مورند de Chateau Marand الذي كان يقود الفرقاطات المسلحة بمدينة بريست(Brest)، تلك التعليمات المتعلقة بالعمليات

(18) رسالة ج.ب. استيل إلى قضاة مرسيليا بتاريخ 18 يونيه 1698.

(19) تعليمات لكوتلوكون ؛ مصادر مخطوطة، السلسلة 2، فرنسا، المجلد 4 ص : 617.

المرسومة، والحملات الخاصة بالضفاف الإسبانية، وشواطىء مادر وجزر الكناري، والحصار الدائم لمرفاى سلا والمعمورة، معتقدا بكامل الثقة والحماس في احتمال اسر عدد هام من القراصنة، وقد بين الفارس كوتلوكون بدقة متناهية، المسطرة التي يجب اتباعها في هذا الصدد[20] وهي كالآتي «اذا اسرت فرقاطتانا قرصانا يحمل معه «اكثر من مائة مغربي يجب أن يوزع الفائض منهم على الفرقاطات الأخرى ويساق المائة الآخرون إلى مارسيليا مع كثير من اليقظة والحذر، كما يجب وضع الاغلال في ايديهم وارجلهم طيلة مدة الإبحار وعدم نزعها عنهم أثناء الطريق. ولهذا السبب يجب حمل ما يكفي من الاغلال والقيود والتخيف عن سفننا من أي حمل آخر من الحديد، ويجب انشاء فتحات واسعة على حواشي السفن لإخراج أكبر ما يمكن من الأرجل منها، وعلى هذه الفتحات أن تكون مجزوزة من جانبيها حتى لايمكن للارجل الخروج منها. وعلى الحواشي أيضا أن تكون موثقة باقفال وأظافير حتى لايستطيع السجناء تكسيرها، وعلى الحراس مراقبة الأسرى بصورة مستمرة بواسطة دورات حراسة ولهذا الغرض تجب الاستعانة بفوانيس طيلة الليل حتى يمكن التعرف على أقل التحركات المشبوهة للسجناء.

وإذا أسرنا 200 تركي أو 150 فيجب أن يساقوا إلى مرسيليا على ظهر فرقاطتين ضمانا لكامل الأمن كما ويجب الاحتياط منهم.

وإذا كانت لنا حرب مع قراصنة اكثر ضراوة من السلاويين فيجب أن لانضع مائة تركي على ظهر سفينة واحدة خوفا من أن نلتقى اثناء الطريق بسفينة للعدو».

إلا أن نتائج حملة شاتو موران لم تكن ملبية لآمال واحلام دى كوتلوكون، فقد نجح كل من الأميرال بن عائشة وأخوه في النجاة بانفسهم حينما فاجأتهما فرقاطات الملك كما امكن لجميع القراصنة السلاويين اللحاق بمكانهم حينما اكتشفوا الطلائع الأولى للأسطول الفرنسي بمياههم، ولم يكن الحصار الفرنسي ذا فائدة وصرامة بالرغم من النصائح التي كان قد قدمها القنصل ج.ب. استيل والمتمثلة في ترك القراصنة يخرجون من مينائهم وانتظار عودتهم لديارهم في نهاية شتنبر القابل.

(20) التعليمات الموجهة لشاتو فورار بتاريخ ماي 1668، مصادر مخطوطة، السلسلة 2 فرنسا، المجلد 4 ص : 625 و ص : 626.

ومع ذلك فقد بقي بونتشارشرن مهتما جدا بالتسربات المحتملة للقراصنة في البحر الأبيض المتوسط وإذا اعطى أمره للعقيد دى لاميزونيت، قائد الفرقاطة كالاطي Galatée بتاريخ 30 يوليوز 1698 بالتوجه إلى شواطىء افريقيا الشمالية ابتداء من الجزائر إلى بتلاريا Pantellatrir، لمنع السلاويين قبل كل شيء من الدخول للبحر الأبيض المتوسط». ومن جهة اخرى غادر ميناء برست بتاريخ 30 يوليوز 1698، نائب الأميرال الكونت فكتور ديسترى Victor d'Estrées على رأس عمارة تتألف من عشر سفن حربية ورسا بمياه قادس بتاريخ 11 غشت بعد عبور جد سعيد، وقد انضم كوتلوكون ورفاقه من القباطنة إلى إشراف فكتور ديسترى.

أما المولى اسماعيل الذي كان على علم من الاستعدادات الكبرى لحملة تستهدف زجر القراصنة فقد شعر بالحاجة لابداء رغبته الملحة في السلم وهكذا يبدو على سطح الاحداث مشهد مثير للاستغراب يتمثل في مغادرة اميرال سلا عبد الله بن عائشة لمهمته في البحر ليعانق مهمة سفارية لدى عاهل فرنسا، تلك المهمة التي لم يكتب له كامل التوفيق والنجاح في القيام بماموريتها.

وفي 30 غشت قام الفارس دي روسي De Roucy بتقديم أوراق اعتماد امبراطور المغرب إلى الكونت ديسترى، حيث تفوض هذه الأوراق للأميرال بن عائشة التفاوض مع جميع الأمم المسيحية في المادة البحرية، وفي 6 شتنبر كان دي شاتو رونو قائد لوفافوري Le favori قد حمل بدوره مشروع اتفاقية سلم لمدة 8 شهور ابتداء من 15 شتنبر مع الأميرال بن عائشة. وقد أمضى الأميرال ديسترى هذه الاتفاقية على سطح السفينة تونات Tonnat بمياه قادس وذلك بتاريخ 7 شتنبر من نفس السنة وبعث لتوه شاتورونو إلى مرفأ سلا مكلفا بمهمة العمل على امضاء الاتفاقية من طرف عبد الله بن عائشة.

وفي 17 اكتوبر من نفس السنة كان أميرال سلا، الذي ارتقى إلى رتبة سفير قد أبحر على ظهر السفينة فافورى حيث قاده شاتورونو إلى منياء بريست تاركاوراءه كرهينة السيد دى لاجاي de la Jaille طبقا لتعليمات الكونت ديسترى.

وقد أثارت سفارة عبد الله بن عائشة لفرنسا حقا، كثيرا من الصور المثيرة للاعجاب كما رافقتها أحداث جد ممتعة، لكنها لم تود إلى أية نتيجة مرضية. وكانت مشكلة العبيد تكون حجر العثرة الأساس لهذه السفارة. وكان سفير السلطان، فيما

يتعلق بشراء الأسرى الفرنسيين. متشبثا برأيه المتمثل في معارضة التبادل العام للعبيد والذي سيكون من عواقبه السيئة اخلاء بحرية الملك من العاملين بسفنها. وبما أنه لم يحصل أي اتفاق ولم يتوصل إلى أية مراضاة بين ا لطرفين المعنيين، كان على عبد الله بن عائشة ان يبحر يوم 25 ماي 1699 من فرنسا على ظهر الفرقاطة لادوفين la Dauphine تحت قيادة شامبمسلين Champmeslin في اتجاه سلا حيث وصلها يوم 10 يونيه من نفس السنة.

ونتيجة لذلك اتخذت جميع التدابير اللازمة وعلى جناح السرعة لمواجهة اي اعتداء محتمل للقراصنة، ولتوه تلقى الفارس دي مونكون de Montgon قائد الفرقاطة لوتوريتون le Triton أمرا باللحاق بالفرقاطة لادوفين بمرفأ سلا واقتناص كل القراصنة الذين يحاولون الدخول إلى الميناء أو الخروج منه.

كما عين الكونت دى رولنك Relingue بتارخ 3 يونيه قائدا لعمارة تتألف من ست فرقاطات ــ من بينها لاذوفين ولوتريتون ــ جهزت خصيصا لمحاربة السلاويين. ولمراعاة المولى اسماعيل في حالة ما إذا قر عزمه على امضاء المعاهدة المسلمة إلى بن عائشة، فقد كانت المهمة الأولى لهذه القوة البحرية تتمثل في ردع التجارة في المعدات الحربية، أكثر منها في زجر القرصنة السلاوية.

وبالرغم عن كل شيء، فقد كان السلطان يحاول الوصول الى اتفاق مع فرنسا ــ وبطريقة غير منتظرة ــ اظهر السلطان رغبته بواسطة سفيره عبد الله بن عائشة في طلب يد الأميرة دي كونتي de Conti مؤكدا أنه يريد الاضافة الى امجاده هذه المصاهرة «مع اعظم واقوى امبراطور وأن جميع موانئه ومدن امبراطور المغرب ستكون مفتوحة دوما في وجوه وعاياه». الا أن البلاط الفرنسي لم يدل بأي جواب لطلبات بن عائشة، بل بالعكس، فإن العاهل الفرنسي أعطى امره بمتابعة الحملات البحرية ضد السلاويين، واستدعى رولنك للذهاب الى مادر، حيث أخذت الاصابع تشير الى وجود القراصنة بها. كما وقر عزم البونتشارترن على الاحتفاظ باسطول مهم في البحر، طيلة فصل الشتاء وتعويضه بقوة بحرية مماثلة في فصل الربيع إلا أنه طفقت ملاحظة تقلص وتراجع الاعتداءات للقراصنة السلاويين، خاصة منذ أن انسحب ابن عائشة من مسرح القرصنة.

وكان من اللازم أن ينساب اكثر من نصف قرن من الزمن للوصول الى إبرام

سلم دائم ونهائي بين فرنسا والمملكة المغربية. بيد أن الحرب المشتعلة من جديد بأوربا كانت تعرض فرنسا لأخطار جسيمة مما كان يجعل عاهلها يهتم بمشاكل أخطر وأعوص، من السعي وراء اقتناص بعض الباربايسكيين، أو افتداء بعض الأسارى الأشقياء. ويلاحظ مع ذلك أنه في سنة 1737، نظم الماركيز انتان Antin حملة بحرية تتألف من سفينتين بحريتين وثلاث فرقاطات حيث رست امام مرفأ سلا، وعملت على إطلاق سراح 75عبدا مسيحيا.

III — القرصنة الامبراطورية (1757 — 1818)

كان رواد القرصنة واحفادهم من الهور نتشوس العاملون لحسابهم الخاص قد اختفوا منذ فترة طويلة قبل اعتلاء السلطان سيدي محمد بن عبد الله عرش اسلافه الميامين في سنة 1757، ولم يعد أي واحد يغريه تجهيز السفن بهدف القرصنة. وتميزت هذه الفترة بجمود شامل للقرصنة السلاوية بخاصة. ولم يبق من سفن القرصنة آنذاك سوى نحو عشر سفن مرابطة بمرافىء سلا والمهدية والعرائش، إذ كانت تنخر هياكلها المياه الضحلة لانهار أبي رقراق، وسبو، واللكسوس، ويهترىء نسيجها ببطء وأناة.

وما كاد السلطان سيدي محمد يتولى مقاليد السلطة حتى أبان عن اهتمام بالغ ببعث هذا الأسطول وتجهيز سفنه من جديد، لمطاردة السفن المسيحية في نطاق الجهاد المقدس.

وكان يراوده الأمل في أن يكتسي هذا النشاط البحري صبغة رسمية بعد اختفاء القراصنة الخصوصيين. وفي هذا الاطار قر عزمه واستقر على تجديد وتطوير الوسائل المتعلقة بصناعة السفن بالمملكة المغربية فاصدر أوامره ببناء السفن ذات الهياكل المتينة القادرة على مواجهة الزوابع العاتية لاعالي المحيط الأطلسي والكفيلة بمطاردة أقوى الوحدات البحرية للأساطيل الأوربية التي تمخر عباب البحار. غير أنه لم يكن من الممكن بناء مثل هذه السفن من هذا المستوى في المرافىء النهرية التي يغمرها الفيضان في فصل الشتاء وتضحل مياهها في فصول الصيف وسنوات الجفاف، وخاصة بالنسبة للسفن الضخمة، والتي يراد تجهيزها بالمدافع الكبيرة والعتاد الحربي الثقيل. والواقع أن فكرة انشاء الأسطول التي كانت تراود خيال السلطان سيدي محمد،

كانت تتطلب بناء قاعدة بحرية يسهل استعمالها في مختلف الفصول والأحوال. ولتحقيق هذه الغاية تقرر انشاء ميناء الصويرة سنة 1760.

وفي نفس الوقت اظهر السلطان سيدي محمد عناية خاصة بتكوين البحارة والنوتيين واهتماما متزايدا بأحوال رؤسلء البحر. كما سعى في نفس الوقت إلى توظيف عدد هام من البحارة الناشئين. ورقى كلا من الرئيس الرباطي الحاج التهامي لمدور والرئيس الرباطي أيضا العربي المستيري إلى رتبة سفيرين حيث توجه الأول إلى السويد والثاني إلى انكلترا للقيام ـــ من خلال مهمتهما السفارية ـــ بمفاوضات تستهدف الحصول من هاتين الدوليتين على معدات السفن البحرية والكميات اللازمة من الذخيرة لتجهيز الأسطول المغربي وتسليحه.

غير أن هذه الجهود والنوايا الحسنة التي اسندتها، لم تسفر في نهاية المطاف عن أي نتيجة تذكر. والواقع أن هذه القرصنة المصطبغة بصبغة جهاد بحرى رسمي كان يعوزها أمران : الأول يتمثل في حب المغامرة والثاني إغراء الربح والغنيمة. وهكذا باءت بالفشل كل محاولات السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الأوضاع السياسية العامة في أوربا لم تكن ملائمة لتلبية المطامح السلطانية في هذه الحقبة. ذلك أن فرنسا واسبانيا اللتين كانتا في حالة حرب مع انكلترا قد انصرفت جهودهما لتجهيز السفن التجارية وخفرها ضد هجمات القراصنة المغاربة، الأمر الذي عرقل جيمع المساعي المبذولة من طرف السلطان بهذا الصدد. ثم أن العدول عن نظام الحماية البحرية الذي اعقب التوقيع على معاهدة السلم المبرمة سنة 1763 قد ساعد المغاربة على تحقيق بعض الانتصارات في البحر، غير أن استيناف القرصنة من لدن المغاربة تسبب في تفجير رد فعل قوى وعنيف من طرف الدول الأوربية.

ومن الجدير بالذكر أن الفارس دي فابري (de Fabry) الذي انيطت به سنتي 1763 ـــ 1764 مهمة المرابطة بالسواحل المغربية، لم يحصل على النتيجة المتوخاة من مهمته، وهكذا فإن السفينة التجارية الفرنسية المدعوة لاسيرين(La Sirene) قد سقطت في قبضة السلاويين عندما كانت تمخر مياه البحر بقرب سواحل قادس.

ومما يجدر ذكره أيضا أن العاهل الفرنسي، لويس الخامس عشر قد عين سنة

1765 الأميرال شافو (Chaffaut) قائد المجموعة من الأسطول الفرنسي مع تكليفة بمهمة القضاء على القراصنة وردعهم.

وفي يوم 31 مايو وصلت الباخرة الحربية لوتيل (L'Utille) على رأس العمارة الفرنسية إلى مياه مدينة سلا ورست بها. وكانت مرفوقة بست فرقاطات ويتعلق الأمر بالبواخر الآتية : شمير (Chimere) وبليد (Pleide) وليوكورن(Licorne) وهيروين(Hroine) وكلراسيوز (Gracieuse) وتربريشور (Terprichre) إضافة إلى غليو طتين هما إتنا (Etna) وسلاماندار (Salamandare) مع مركب يدعى (Hirondelle). غير أن الغارة التي شنتها العمارة الفرنسية على سلا يوم ثاني يونيه من نفس السنة، توقفت نتيجة لرداءة الطقس واستونفت في الأيام الموالية، واستمرت حتى الثامن من الشهر ولكن دون أية نتيجة تذكر، وهكذا اضطر الأسطول الفرنسي للتخلي عن مواصلة القصف والقنبلة وعاد ادراجه في اتجاه العرائش بالرغم من تعزيزه بسنبكين طولونيين : (Camelion) وسانج(Singe). وكانت هذه الأخيرة تحت قيادة العقيد ديسوفرن (de Suffren. كما رفض وأن يهاجم المرفأ بكامل قواه بعدم جدوى العملية. إلا أن الأميرال شافو وهو يتوجه، بعد رفع الحصار إلى العرائش ترك وراءه قطعتين من أسطوله، هما : شمير ولبليد لمراقبة تحركات القراصنة على مقربة من سلا.

وفي يوم 27 يونيه توغلت وحدات الأميرال شافو داخل نهر اللوكوس فمنيت بهزيمة نكراء وبالرغم من هزيمتها هذه فإن بعض المؤرخين كان يرى أنها لم تكن خالية من كل جدوى.

ويستدلون على ذلك بأن القراصنة المحاصرين بقواعدهم في سلا ومهدية والعرائش قد صاروا منذ ذلك الحين مترددين في مواجهة السفن الحربية الفرنسية باعالي البحار، وقد تمكنت البارجة الفرنسية «لاكراسيوز» من اغراق احد سفن القرصنة التي كانت قد غامرت بالابتعاد عن مرفأ سلا، كما وتمكنت البحرية الفرنسية في نفس الوقت من الاستيلاء على بعض القطع البحرية الهولندية والدنماركية المحملة بالذخيرة والسلاح الموجهة إلى سلطان المغرب وساقتها توا إلى ميناء تولون (Toulon).

وبصورة عملية وضع حد للقرصنة المغربية بعد ما وقع السلطان سيدي محمد بن عبد الله مع فرنسا معاهدة السلام بتاريخ 28 ماي من سنة 1767.

بيد أن السلطان لم يعدل عن تعهد وصيانة الاسطول المغربي وإعادة الاعتبار اليه وذلك رغبة منه في المحافظة على وسائل الدفاع لحماية الشواطىء الوطنية ومواجهة الطوارىء مستلهما في كل تحركاته القواعد الاوربية للتكتيك البحري، كما يشير الى ذلك شنيي إلا أن النتائج المتوخاة في هذا المجال اتسمت بالهزال والضحالة.

وفي شهر شتنبر من سنة 1773، اشتبكت مجموعة من الوحدات البحرية المغربية، مكونة من خمس فرقاطات وسنابك تحت قيادة الرئيس الهاشمي المستيري أمام رأس سبارتيل (Cap Spartel) اشتبكت مع بارجة توسكانية بقيادة الفارس اكطون (Acton) واسفرت المعركة عن تشتيت الأسطول المغربي واستسلام الرئيس المستيري، بينما لاذت أربع من سفنه بالفرار، ونتيجة للاستعجال وربح الوقت جنحت اثنان منها لساحل المحيط. وتمخض هذا الحادث المريع عن عواقب سلبية بالنسبة للسلطان سيدي محمد بن عبد الله تمثلت في خسرانه لواحد من أمهر رؤساء البحر وضياع نصف الاسطول المغربي.

ومن الملاحظ أن خلف سيدي محمد بن عبد الله على العرش المغربي السلطان مولاي سليمان لم يبدأ أي استعداد لاتباع خطة سلفه في هذا المضمار وقد تميز عهده بالانتقاء الرسمي للاسطول الحربي المغربي.

وتعزى الاسباب الكامنة وراء هذا التدبير المتخذ سنة 1818 الى رغبة المولى سليمان في منع رعاياه من تحقيق أي اتصال مع الكفار. وقد علق صاحب كتاب «الاستقصا في اخبار المغرب الاقصى» فأشار الى أن «السلطان المولى سليمان قد تخلى بصورة نهائية عن الجهاد البحري ومنع الرؤساء المغاربة من القيام بأية عملية للقرصنة ضد الدول الاوربية. وتخلى عن عدد من قراصنته لبعض الدول المجاورة إذ سلم فئة منهم للجزائر وطائفة أخرى لطرابلس. كما أمر بتجريد السفن الحربية المغربية من المدافع ومختلف انواع العتاد وهكذا عمل بهذه الطريقة على تصفية أسطوله البحري الذي كان مؤلفا حسب شهادة مانويل (Manuel) من وحدات ذوات العدد تعتبر أجمل وأقوى مما كان في حوزة الجزائر وتونس في تلك الأثناء».

إلا أنه بعد مرور عشرة أعوام، ظهرت بوادر انبعاث الأسطول المغربي من جديد ذلك أن السلطان مولاي عبد الرحمان الذي كان يراوده الحلم في استعادة تقاليد الجهاد البحري قد رخص لقباطنة السفن المرابطة بثغرى سلا والرباط بالتعاون

مع القراصنة المزاولين لنشاطهم بشواطىء المغرب العربي الكبير والشواطىء المجاورة الأخرى.

وأثناء احدى هذه الحملات المنجزة سنة 1829 سقطت مجموعة من المراكب النمساوية في قبضة هؤلاء القراصنة الجدد، لكن سرعان ما تصدى الاسطول النمساوي للرد على هذه العلمية اذ قامت ستة من بوارجه بقنبلة مدينة العرائش واستطاعوا أن ينزلوا 500 جندي نسماوي باليابسة المغربية حيث قام هؤلاء باضرام النار في السفن المغربية. وهكذا مني الاسطول المغربي بهزيمة يعتقد المؤرخون أنها كانت حاسمة لوضع حد للقرصنة البحرية بصورة نهائية.

خـــلاصـــة

وهكذا يظهر لنا بأن التاريخ البحري للقرنين السابع عشر والثامن عشر مصطبغ بالصنائع الكبرى لقراصنة سلا.

ولم تكن القرصنة السلاوية، والحق يقال عملية مغربية محضة. فلاريب أن السلاطين لم يشجبوها إلا مظهريا، وقد عرفوا كيف يستفيدون منها أكثر ما يمكن بل شجعوها وحاولوا تمديد وجودها واستمراريتها رغم هزالة التشجيع وضعف جدواه.

لكن القرصنة الحقيقية التي أعطت لقراصنة سلا صيتهم الذائع كانت بمساعدة الأجانب، وقبل كل شيء، من صنيع المنشقين عن السلطة المركزية. وقد انهارت القرصنة المغربية حينما أفلتت من قبضة الذين أنشأوها أول مرة. وانطفأت شعلتها، واختفت بدون ورجعة على مشارف قرنين من الزمن، دون أن تترك أي أثر لها. ولم يكن هذا الاختفاء باختصار، إلا حدثا عارضا ناتجا عن أسباب خارجية.

الآن وفي هذا الميناء الصغير الهادىء بأبي رقراق، لاشيء يذكرنا بتلك الحضارة الصاخبة للقراصنة، ولا بتلك الانتصارت البحرية الباهرة للسلاويين التي لم تكن تنتهي دون معاناة وشقاء.

وإذا أمعنا النظر في الحقبة الطويلة التي ساد فيها الاسطول السلاوي، وما اكتنزه من خبرات، يحق لنا أن نتساءل : كيف أمكن للدول الاوربية العظمى أن تسمح لشرذمة من المغامرين بمزاولة غاراتهم البحرية طيلة سنوات عديدة.

ولقد لاحظنا سابقا أنه لم يكن من الهين بالنسبة للاساطيل الحربية الاوربية القضاء المبرم على خصم مراوغ، وذكي، لكن هذه الاعتبارات وإن كانت تكتسي طابعا تقنيا، ليس لها ما يبرر امتداد الحقبة الخيالية لعمليات القرصنة السلاوية. إننا نجد أنفسنا أمام لغز تاريخي يجب البحث عن حله في الاطار العام المتحكم في القرصنة المغربية.

إن قراصنة الجزائر وتونس، ثم طرابلس قد سبقوا زملائهم السلاويين في العبث بالمصالح التجارية للدول المسيحية، ولمدة قرون عديدة دون أن تتخذ في حقهم أية متابعة، لذا كيف أمكن لأعظم دول أوربا أن تقبل الرضوخ لاهانة ظاهرة ومعلنة، وتصبح ضحية عدوى القرصنة ؟

إن هذه الظاهرة، يقول عنها أرتولان، تجد جوابها في كون تلك الدول كانت لها حساسيات فيما بينها وكان من المحتمل قيام احداها بمساندة المغاربة حتى لاتتسع رقعة احدى الدول من جراء اندحار احدى الامم الأخرى، ويبدو أن هذا أعجب مثال في التاريخ للعواقب اللامسؤولة في مثل هذه الأحداث الناتجة عن منافسات دولية عمياء.

إن المسمى دوبريف (de Breves ، الذي كان يقوم بتمثيل مصالح فرنسا بالقسطنطينية أبدى تعجبه وذلك خلال مراسلته للويس الثالث عشر من كون الأمراء المسيحيين، خاصة أولئك الذين يحتمل أن تصلهم الخسارة من هؤلاء المغاربة لم يفكروا قط في الالتحام، والتصدي لابادة عدوهم المشترك.

و بعد ذلك، اقترح الأب رينال، القيام بعمل مشترك لوضع حد لتدخلات القراصنة المغاربة حيث قال في مؤلفه : «التاريخ الفلسفي، والسياسي للمؤسسات والتجارة الأوربية لافريقيا الشمالية» ما يلي :

«لايمكن لاية دولة أن تنفرد بالعمل وحدها. وإن أبدت رغبتها، فتجد نفسها محط أطماع الدول الأخرى التي ستخلق لها المصاعب، الظاهرة منها والخفية. لذا ولكي تتخذ صبغة دولية، يجب على جميع الدول البحرية الإسهام في معالجة مستقبلها».

إلا أن أوربا بالقرن السابع عشر كانت منقسمة على نفسها وما كان في إمكانها التوصُّل إلى أي اتفاق، سيما وأن بعض الدول كانت تجد في القراصنة خير معين لها، لتقليص المنافسة البحرية التجارية للدول الأخرى.

وأعجب ما في الأمر، على ما يبدو لنا الآن، أن جميع الدول العظمى الغربية كانت ترى أن القرصنة شر لابد منه ومن الواجب التكيف معها دون مقاومتها. إن الخسارة التي كانت تلم بهذه الدول رغم فداحتها تعتبر أقل أهمية من المعاملات التجارية مع البلدان المغاربية، التي تدر عليهم أرباحا من الصعوبة بمكان التنازل عنها.

أرأيت ما حدث عندما أسر قراصنة سلا احدى المراكب البحرية — في الوقت الذي كان سكان بلاد الغال، تحت وطأة الخسارات المتعددة، وعدم تمكنهم من الاقتراض الجبري لحكومة انجلترا — قام الملك شارل الأول في 22 أكتوبر 1628 بإلقاء تصريح رسمي، أبهر الجيمع، يدعو إلى عدم الضغط على قراصنة الجزائر وتونس، وسلا وتطوان. لما يعلمه من ضرورة استمرار المعاملات التجارية وأهميتها.

ثم إن هولندا، على غرار انجلترا، كانت تمد الإعا نات للسلاويين منها ما يتعلق بالأطر ومنها ما يتعلق بالتجهيز وتقديم الهدايا الفاخرة للسلاطين لنيل عطفهم ورضاهم). ولم تكف هولندا كما هو الشأن بالنسبة لانكلترا، عن تقديم المساعدات الثمينة للسلاويين سواء من حيث الأطر أو المعدات. وكان ملوك فرنسا أيضا عاجزين عن مقاومة التهريب لفائدة البرباريسكيين، إذ كان هؤلاء يتوصلون دوما من أعدائهم المسحيين بكل مساعدة تتيح لهم متابعة عملياتهم الجريئة في البحر.

وفي مثل هذه الظروف فلم يكن بالإمكان التوصل إلى اتفاق بالاجماع على فكرة ردع صارم وفعال. وبدلا من ذلك فقد فضل الملوك المسيحون التنازل عن كل شعور بالكرامة والخضوع للتفاوض مع القراصنة بصورة انفرادية، وخلال سنوات عديدة كنا نشاهد تلك الفرجة المحزنة لملوك أوربا وهم يبعثون بسفارات متتالية للبلاطات البربيسكية مضحين بأساطيل جد مكلفة لحماية الممرات البحرية، وكان هذا عصر المحادثات المخزية والمتعلقة بافتداء الأسارى والمقايضة في العبيد مقابل امداد القراصنة بالسلاح وتقديم الهدايا الفاخرة للسلاطين جلباً لعطفهم وابتغاء مرضاتهم.

فبدلا من أن تتحرك أوربا بصرامة وقة ارتضت، حسب تعبير الكونت دي كاستري «البقاء تحت النظام المخزي للمعاهدات التي كانت تجعل منها دولا تابعة للقراصنة مضطرة لاداء الجزية. وقد كان من السهل المتيسر توقع الطابع الوهمي لمثل هذه المعاهدات. «ويضيف الكونت دي كاستري قائلًا : لو حصلت بحرية ما على الحصانة الكاملة لامكنتها أن تستولى في الواقع على مجموع التجارة الأوربية ولاختفت القرصنة من الوجود لانعدام السفن الممكن اقتناصها. كما أن القراصنة لم يكونوا بالرجال الذين يمكنهم أن يحطموا أنفسهم «ويمكن أن نضيف من جانبنا بأنه لم تكن هناك أية دولة أوربية مستعدة لان تترك لدولة أخرى من نفس القارة تتمتع بمثل هذا الاحتكار للتجارة البحرية». ولهذا فمعاهدات التحالف مع البارباريسكيين كان محكوما عليها حتما أن تظل حبرا على ورق.

ملحق

البيارق االباربريسكية

إن المعلومات التي وصلتنا بخصوص الشعارات والبيارق المتباهى بها من طرف مختلف سفن القراصنة الباربريسكيين، ضحلة وغير دقيقة، وغالبا ما كانت متناقضة وعلينا أن لا نفاجأ بذلك.

وحسب منطق الحقبة التاريخية يمكننا أن نقبل بأن القباطنة البابريسكيين ــ الرؤساء ــ والقراصنة القادمين من كل الآفاق والذين كانوا يعملون بشكل أو آخر لحسابهم الخاص ولم يكونو ملتزمين باحترام مبادىء وقواعد دقيقة سواء في مجال البيارق والشعارات أو في غيره، بل بالعكس من ذلك كانوا يعملون على إخفاء هويتهم ما أمكن والتغرير بضحاياهم حتى يقعوا فريسة سهلة لعمياتهم الذكية. ويشير بول دان بهذا الصدد في فصله المعنون : «طريقة تسليخ وتجهيز سفن القرصنة» وفيما يتعلق بالألوية والبيارق متحدثا عنها بما يلي : «لقد رأيت البعض منها، والذي كان يثمن بألف إلى 1200 جنيه، مرفوعا على سفن القراصنة حين مغادرتها للميناء. وبعد الإقلاع مباشرة ينزعون هذه البيارق ليرفعوا مكانها ألوية فرنسية أو إسبانية أو علم أي بلد يتوجهون إليه حتى يعتقد فيهم أنهم مسيحيون وهكذا كانوا لا يفزعون أي أحد منهم»[1] وفي ظروف أخرى كانو يعملون، عن طريق تغيير ألويتهم، على إيهام خصمهم بأنهم جزائريون، إذا كانوا في الأصل سلاويين أو العكس.

وطالما أن القرصنة لم تكن خاضعة لأية مراقبة أو سلطة وصاية مركزية منتظمة فإن اختيار البيارق البحرية كان أمرا موكولا بدون شك لرغبة وخيال الرؤساء والمجهزين، ولذا وجب اعتبار الألوية ملكية خاصة لهؤلاء أكثر من اعتبارها أعلاما وشعارات وطنية.

---

(1) بول دان، تاريخ المغرب وقراصنته، باريس 1949 ص : 299.

وكيف يمكن الحديث عن أعلام وطنية ونحن أمام قراصنة دوليين ؟

وفي هذا الموضوع تجب الإشارة إلى كتاب «معرفة البيارق أو الأولوية التي ترفعها معظم الأمم في البحر» المنشور بلاهاي سنة 1737 عن جاك فان دين كيبوم (Jaques Van den Keiboom) والذي يعتبر نادرا جدا في يومنا هذا حيث يعطينا إفادات جد مهمة حول هذا الموضوع [2]. ويحتوي هذا المؤلف على تسعة وثمانين نموذجا للبيارق منقوشة بدقة ومهارة متناهيتين، خصصت العشرة الأخيرة منها للشعارات البربيسكية والتركية. وفي بداية الكتاب نعثر على التوضيحات المفيدة لمختلف البيارق والألوية.

وبالرغم من كون المؤلف المجهول لهذا االكتاب يتباهى بمعرفته لعلم الشعارية ويدعى في مقدمته مجاملا «بانتظام ودقة علم الشعارية» ووضوح دلالاته، فيجب الاعتراف بأن هذه التفسيرات والتوضيحات التي قدمها لا تعدوا أن تكون وصفا دقيقا ومفصلا للبيارق عوضا من أن تكون معرفة يقينية، لفن الشعارية.

وفيما يلي، واستلهاما من رسوم الكتاب نعيد رسم هذه البيارق والألوية الخاصة بالبحارة الباربريسكيين والتي تصل في مجموعها إلى 26 رسما، وفيما يخص بيانات المؤلف ارتأينا من المفيد أن نضيف إليها بيانا وأسلوبا شعاريا دقيقا، لمختلف البيارق «المشعرة» (اللوحات 1 و 2 و 3).

وتمثل ثلاثة رسوم ت«بيارق التركي الكبير» وهي مصحوبة بالتفسيرات التالية :

1 ــ إنه مفلوق في شكل قبعة خضراء محملة بثلاثة أهلة فضية تتراءى جوانبها. ولا يمكن حمله الا من طرف سنيور كبير أو بعثة، انه راية صغيرة تحمل ثلاث أهلة فضية والهلالان الرئيسيان متقابلان».

2 ــ «إنه مفلوق في شكل قبعة حمراء يحمل في وسطه أرضية صغيرة خضراء محملة بثلاث أهلة ذهبية متقاربة، يقع الواحد منها ظهرا لآخر.

(2) لقد أعيرت لنا بكامل الممنونية نسخة من هذا المؤلف من لدن القائد ف جاندر (F. Gendre) الذي نعبر له هنا عن أحر تشكراتنا.

3 ـــ «إنه يتألف من 13 سبيبة، تقع الواحدة فوق الأخرى وابتداء من أعلى تكون السبيبة الأولى خضراء متبوعة بحمراء حتى النهاية.

وباللغة الشعارية أنه مخطط يتألف من 13 قطعة، خضراء تتلوها حمراء وقد أعطى نموذجان لبيرق التركي لا يختلفان إلا من حيث لون السداة أو الأرضية.

4 ـــ بيرق أحمر «إنه يحمل ثلاث أهلة فضية تتجه رؤوسها إلى الخارج.

5 ـــ بيرق أزرق، يحمل نفس الأهلة الفضية ونفس وضعها.

6 ـــ بيرق قسطنطينة.

إنه شبه بسابقيه لكنه على أرضية خضراء مع ثلاثة أهلة صفر.

إن له أرضية خضراء وثلاثة أهلة مذهبة الحواشي.

وكانت الشراعيات الحربية التركية ترفعهعلى صواريها،

ـــ **إما راية صغيرة حمراء مع ثلاثة أهلة صفر (رقم 7) حيث يوضحه مؤلف** «معرفة البيارق والأولوية كالآتي :»،

«إنه مفلوق على شكل قبعة، أحمر، ويحمل ثلاث أهلة مذهبة يصطف الواحد منها تلو الآخر وتتجه رؤوسها إلى الخارج.

ـــ أو مجرد راية صغيرة، حمراء وثلاثية الشكل (رقم 8).

وحسب رواية هذا المؤلف فقد كانت ولاية الجزائر تتوفر على ستة بيارق.

9 ـــ بيرق المعركة الجزائري.

إنه أزرق دو ذراع فضي ومعصم محلى بسوار ذهبي لامع ينبثق من سحاب رملي وقابض لسيف فضي مزركش بالذهب.

10 ـــ إنه مؤلف من سبع سبيبات ملون انطلاقا من أعلاه : أبيض وأخضر وأحمر ثم أبيض، أحمر، أخضر وأحمر.

ووضع هذا البيرق لا يتلاءم ومقتضيات القواعد الشعارية، حيث أن الواجهة المؤلفة من ثلاثة طلاءت يجب أن تحتوي على عدد من الأقسام قابل للقسمة على ثلاثة.

11 ـــ إنه يتألف من خمس سبيبات تختلف ألوانها من أعلى إلى أسفل كالآتي : أزرق ثم أحمر ثم أخضر ثم أحمر ثم أزرق.

وأيضا نجد هذا الرسم المسطح غير خاضع لقانون الشعارية.

12 ـــ إنه بيرق يتألف من سبيبتين واحدة عليا بيضاء وواحدة سفلى سوداء.

13 ـــ إن هذا البيرق المتفرد له شكل سداسي أرضيته حمراء وفي وسطه يوجد رأس بعمامته. ما يمكن تشعيرهُ كالآتي :

وجود لرأس مسلم ذي عمامة متجه إلى اليمين.

14 ـــ إنه على شكل مثلث، به ثلاث سبيبات، العليا حمراء والوسطى خضراء والسفلى حمراء محملة بسيفين مذهبين ومتصالبين على شكل القرن.

وكان عدد الألوية الخاصة بولاية تونس ثلاثة :

15 ـــ إن له سبيبات مختلطة بعضها مع بعض وهي من أعلى إلى أسفل : بيضاء ثم حمراء ثم بيضاء ثم خضراء إلخ، وهو في شكل مطابق لمقتضيات فن الشعارية.

16 ـــ ولهذا البيرق التونسي شكل غريب وهو كالآتي : إنه يتألف من خمس سبيبات زرقاء ثم حمراء ثم خضراء ثم حمراء ثم زرقاء.

ويكون رأس السبيبة الوسطى على شكل تقويرة أو لسان، ويعتبر هذا البيرق في وضعه مخالفا لمقتضيات «الشعارية».

17 ـــ لقد كانت السفن التونسية ترفع رايات صغرى خضراء مثلثة الشكل.

وفيما يخص ولاية اطرابلس بإفريقيا الشمالية كان لها بيرقان.

18 ـــ إنه علم ذو أرضية خضراء محمل بثلاث أهلة مذهبة متقابلة مع بعضها. وهو يشبه بيرق القسنطينة فما يتعلق بوضع الأهلة.

19 ـــ إنه مؤلف من سبع سبيبات، حمراء، خضراءء بيضاء، حمراء، بيضاء ثم خضراء ثم حمراء، وهو مخطط غير ملائم شبيه ببيرق الجزائر (رقم 10).

20 ـــ بيرق تطوان في البلاد المغاربية.

يذكرنا هذا البيرق ببيرق الجزائر (رقم 14) ما يجعلنا لا نستغرب بمطالبة

قراصنة الجزائر أن تكون تطوان جزءا لا يتجزأ من ولايتهم ــ وشكله يشبه بيرق تونس (رقم 16) وقد فسر هذا المخطط كما يلي :

«إنه مؤلف من ثلاث سبيبات إحداهن حمراء والوسطى خضراء والثالثة حمراء. وتنتهي الوسطى بتقويرة أو شكل لسان. إنه ثلاثي التخطيط مخضر الوسط.

ويعطينا كتاب «معرفة البيارق والالوية» ثلاث نماذج لبيارق سلا البربريسكية.

21 ــ إنه ذو أرضية خضراء محمل في وسطه بسيف ذي حدين وذي مقبض ذهبي.

وباللغة الشعارية : «علم أخضر به سيف فضي ذو حدين مبرقش بالذهب».

22 ــ إنه يتألف من ثلاث سبيبات تنتهي على شكل قرن الأولى صفراء والثانية بيضاء ثم حمراء. والوسطى محملة بثلاث أهلة مصفوفة صفا متتابعا تتجه رؤوسها للخارج، وعليه فهو مثلث على الشكل التالي :

«ثلاثي مخطط بالذهب والفضة ذو ثلاث أهلة مذهبة مصفوفة ومتتابعة».

23 ــ إنه بيرق أحمر يحمل هلالا ذهبيا يتجه طرفاه للخارج وبينهما يرسم شكل وجه ذهبي يتجه نظره للخارج أيضا.

ويمكن تعويض هذا البيرق الأحمر بالبيان التالي : «اشكال هلالية محشاة بالذهب».

مع هذا التحفظ وهو أنه في الشعار يكون القمر دائما من فضة.

ومن الملاحظ أن سداة هذا البيرق تشبه «بيرق المغول الأكبر» الذي هو ذو أرضية خضراء يتوسطها هلال ذهبي.

24 ــ بيرق ملك المغرب.

تحت هذا العنوان فسر شعار غريب من لدن كتاب «معرفة البيارق والالوية» كما يلي :

«إنه أحمر في جوانبه نقط حمراء وبيضاء يحمل في وسطه مقصا مفتوحا ذا فرعين حادين تتجه رؤوسهما للخارج».

وما يمكن قراءته أيضا :

«أفواه داخلها مقص فضي والنقط المسايرة على الجوانب مسننة وذات أشكال فضية».

ويذكر أيضا كتاب «معرفة البيارق والألوية، بيرقا لمسلمي إفريقيا (رقم 25) حيث تعرف بالضبط أية سفينة يمكنها أن ترفعه فوق صواريها. هذا البيرق البسيط ذو السبيبة الخضراء أرفق بهذا التفسير الذي لا يخطر على بال : «إنه يتكون من سبيبتين العليا خضرا وضيقة والسفلى حمراء وواسعة».

وأخيرا يتحدث الكتاب المرجع (رقم 26) عن نموذج غريب ومعقد لأحد بيارق القراصنة دون أي بيان لنوعيته. وأعطيت له البيانات التالية».

إنه أحمر يحمل في وسطه ذراع بيده سيف أزرق ذو مقبض ذهبي وفوق المرفق رباط ذهبي ذو حواشي زرق وعلى جانبه كيس رمل ذو جناحين أزرقين وفي أقصى الجانب الآخر للبيرق رسم لرأس وعظمى ركبتين لميت، والكل مذهب ومكلل بإكليل النصر».

وما يمكن تشعيره أو قراءته بلغة الشعارية :

«اشكال دراع فضي مبرقش في أعلى مرفقه بسوار ذي حواشي رزق قابض لسيف أزرق مزركش بالذهب ومرفق ذات اليمين بكيس رمل مذهب ومجنح بجناحين أزرقين وفي يساره يحمل رأسا ذهبيا مكللا بالأخضر مسند على ظنبوبين مذهبين.

ان تعدد أنواع البيارق التي كانت ترفعها مختلف الولايات البرباريسكية بما فيها سلا وملك المغرب، ومسلمي إفريقيا تؤكد فرضيتنا السابقة حول الطابع الخاص للبيارق التي استعملتها سفن القراصنة.

وكمثال على ذلك فإنه من الطبيعي جدا أن نرى السلاويين الشهيرين الذين كانوا تقريبا غير خاضعين للوصاية الشريفة، يرفعون على صواريهم بيارق تختلف عن تلك التي لملك المغرب.

وليس من المفاجيء لنا أيضا أن نرى هؤلاء البحارة الجسورين يرفعون في معاركهم بيرقا مرسوما به رأس ميت وظنابيب كعلامات طبيعية للقراصنة.

ونلاحظ أخيرا، باستثناء بعض النماذج الخاصة، مثل بيارق المعركة، بأن البيارق البربريسكية كانت تتشابه إلى حد كبير فيما بينها وذلك بقصد زرع الشك

والالتباس في نفس الخصوم الذين يكونون هدفا لهجوماتهم. وكانت هذه الألوية تنبثق في معظمها من الالوية العثمانية التي تنتمي إلى نموذجين أساسيين :

ـ الأول ينتمي عموما إلى فئة البيارق الحمراء أو الخضراء مع أهلة بيضاء أو صفراء مختلفة الأوضاع.

ـ والثاني يتكون من بيارق تشتمل على سبيبات أفقية متعددة التخطيط حيث يسودها أيضا اللونان الأحمر أو الأخضر.

وكثيرا ما كان يشار إلى صعوبة معرفة اواستطلاع البيارق القرصنية وهكذا فإن دوفول (A Devoule) قد كتب في المجلة الافريقية بتاريخ ماي 1871 ما يلي :

«إن العلم الجزائري كله أحمر ولار تختلف بيارق الأمم البارباريسكية الأخرى عنه الا بإضافة نجمة أو هلال أو سيف ذات لون أبيض على هذا العمق الدموي[3] إن هذه المعلومة المدلى بها غير دقيقة ومشكوك في قيمتها التوثيقية، إلا أنه يبقى مع ذلك من المفيد جدا التأكيد الذي تحمله إلينا فيما يخص التشابه المتعمد للبيارق البربريسكية لتحقيق أغراض تكتيكية وعسكرية.

---

(3) أدوفون والقبطان بريبو، المجلة الإفريقية ماي 1871.

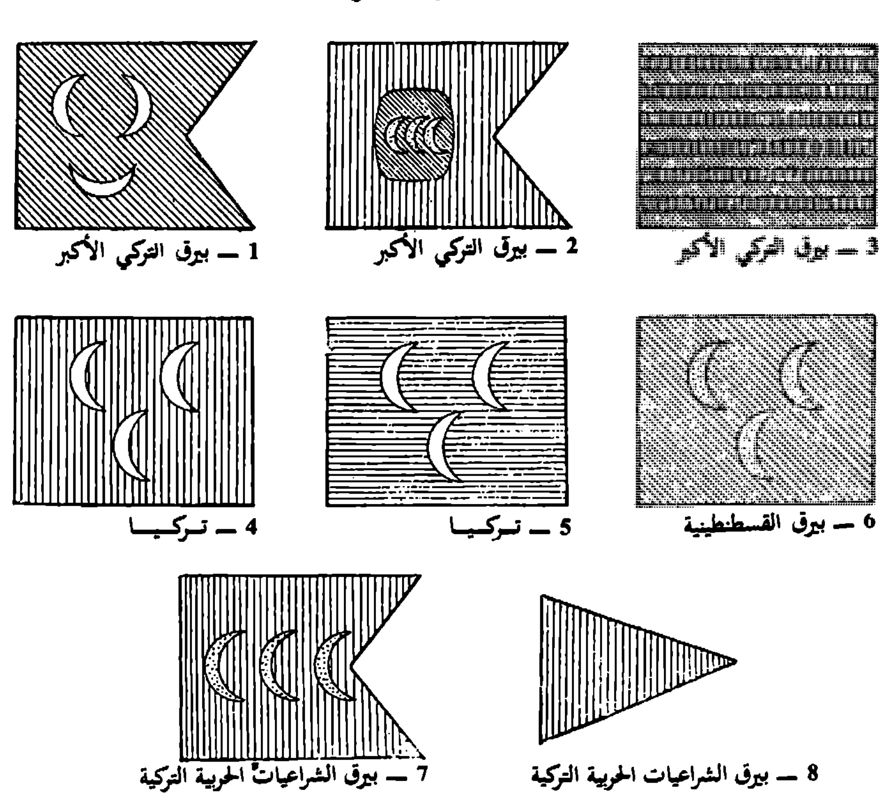
اللـوحـة الأولى

I البـيـارق الـبـربـريـسـكـيـة

كـمـا هـي مـأخـوذة مـن الـمـؤلـف

معرفة البيارق والألوية لاهــاي 1737

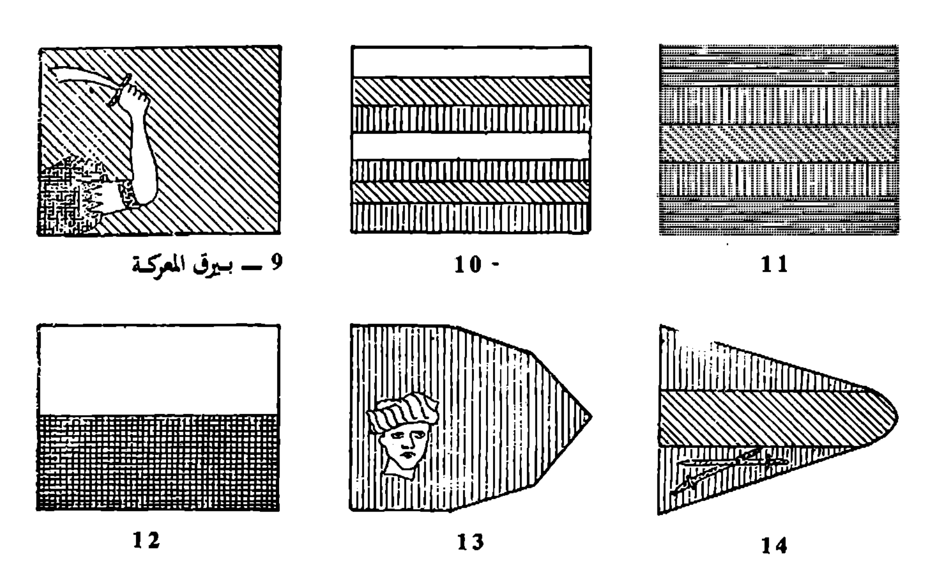
I الـبـيـارق التـركـيـة



1 — بيرق التركي الأكبر
2 — بيرق التركي الأكبر
3 — بيرق التركي الأكبر
4 — تـركـيـا
5 — تـركـيـا
6 — بيرق القسطنطينية
7 — بيرق الشراعيات الحربية التركية
8 — بيرق الشراعيات الحربية التركية

اللوحة الثانية

II بيارق الجزائر



9 — بيرق المعركة

10 -

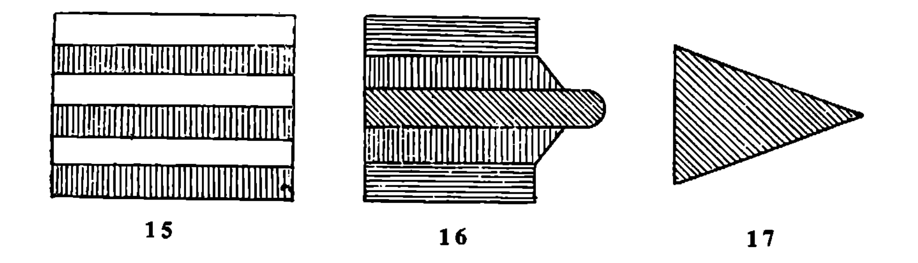
11

12

13

14

III بيارق تونس



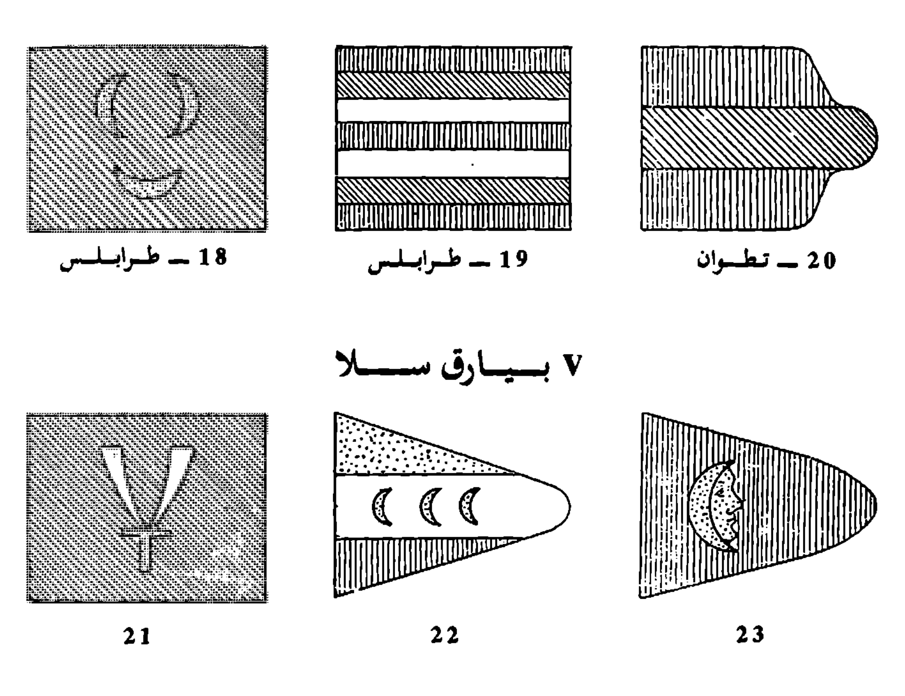
15

16

17

اللـوحـة الـثـالـثـة

IV بـيـارق طـرابـلـس وتـطـوان



20 ـ تطـوان

19 ـ طـرابـلـس

18 ـ طـرابـلـس

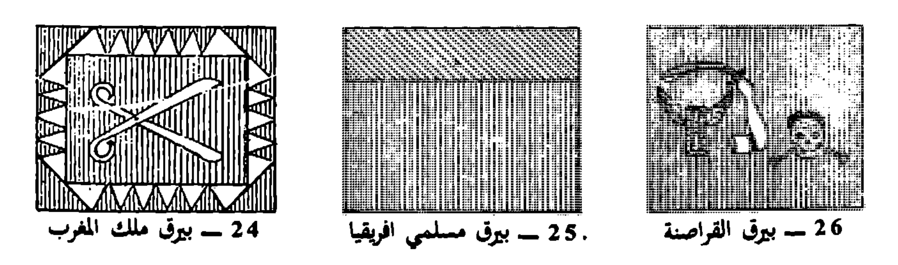
V بـيـارق ســلا

23

22

21

VI بيـارق مـخـتـلـفـة



26 ـ بيرق القراصنة

25 ـ بيرق مسلمي افريقيا.

24 ـ بيرق ملك المغرب

بيبليوغرافية
BIBLIOGRAPHIE

La documentation fondamentale de la présente étude provient des *Sources inédites de l'Histoire du Maroc,* dont la publication fut entreprise par le Comte Henry de Castries et poursuivie par Pierre de Cénival.
Paris, 1960-1936.

Les volumes de cette particulièrement exploités ont été :

Archives et Bibliothèques de *France :*

1re série. Dynastie saâdienne. Tomes II et III.

2e série. Dynastie filalienne. Tomes I, II, III et IV.

Archives et Bibliothèques des *Pays bas* :

1re série. Tomes I, II, III, IV, V et VI.

Archives et Bibliothèques d'*Angleterre :*

1re série. Tomes II et III.

PRINCIPAUX AUTRES OUVRAGES CONSULTES

Archives Berbères (Les).
Publication du Comité d'études berbères de Rabat. Paris.

Archives Marocaines.
Publication de la Mission scientifique du Maroic. Paris.

ABD El Halim (Abou Mohammed Salah Ben)
Roudh el-Kartas. Histoire des souverains du Maghreb et Annales de la ville de Fès. Trad. A. Beaumier, Paris, 1860.

ANTRAYGUES (R).
Abdallah ben Aïcha, corsaire de Salé et Amiral de la Flotte chérifienne. Le Maroc maritime, 15 novembre 1930 et Revue Maritime. Pris, août 1931.

BRUNOT (Louis).
La mer dans les tradition et les industries indigènes de Rabat-Salé. Paris, 1921.

BRUNOT (Louis).
Aperçu historique sur la piraterie salétine. Bulletin de l'Enseignement public du Maroc n° 46 et 47, Février-mars 1923.

BUSNOT (P. Dominique).
Histoire du règne de Mouley Ismaël. Rouen, 1731.

CAPOT-REY.
La politique française et le Maghreb méditerranéen (1643-1685) : Revue Africaine, 1934.

CASTRIE (Comte Henry de).
Le Maroc d'autrefois. — Les corsaires de Salé. Revue des Deux-Mondes, 15 février 1903.

CHACK (Paul).
L'homme d'Ouessant (du Chaffault). Paris, 1931.

CHACK (Paul).
Du Chaffault et les corsaire du Maroc. Revue des Deux-Mondes, 1er mars 1931.

CHENIER (M. de.).
Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire de Maroc, 3 vol. Paris, 1787.

COUR (Auguste).
L'Etablissement des dynasties des Chérifs au Maroc (1509-1830). Paris, 1904.

DAN (le R.P.Fr.-Pierre).
Histoire de Barbarie et de ses corsaires. Paris, 1649.

DEVOULX (Albert).
Le registre des prises maritimes. Revue Africaine, 1871.

DEVOULX (Albert).
Le capitaine Prépaud. Revue Africaine, 1871.

EDRISI.
Géographie. Traduction A. Jaubert, 2 Vol. Paris, 1836-40.

EDRISI.
Description de l'Afrique et de l'Espagne. Traduction Dozy et M.J. de Goeje. Leyde, 1866.

FAYE (P. Jean de la).
Relation du voyage pour la rédemption des captifs aux royaumes de Maroc et d'Alger. Paris, 1726.

GENDRE (Commandant F.).
Pavillons et corsaires du Maroc. La Vie marocaine illustrée. Noël 1931.

GODARD (Léon).
Description et histoire du Maroc. Paris, 1860.

GOSSE (Philip).
Histoire de la piraterie. Traduction P. Teillac. Paris 1933.

HÖST (George).
Nachrichten von Marokos und Fès (1760-1768). Copenhague, 1781.

IBN KHALDOUN.
Histoire des Berbères. Traduction M. de Slane, 4 vol. Alger, 1852-56.

IBN KHALDOUN.
Les Prolégomènes. Traduction M. de Slane, 3 vol. Paris, 1863-68.

JAL (A.).
Glossaire nautique. Paris, 1848.

JEANNEL (J.).
La Piraterie. Thèse pour le Doctorat en Droit. Paris, 1903.

MALO (Henri).
De la piraterie à la course. Mercure de France, 1er août 1907.

MALO (Henri).
La tactique et les équipages des corsaire. Mercure de France, 16 octobre 1907.

MARMOL CARVAJAL (Luis del).
Description general de Africa. Traduction Perrot d'Ablancourt. Paris, 1667.

MAS-LATRIE (Comte de).
Relations et commerce de l'Afrique septenrional avec les nations chrétiennes au Moyen Age. Paris, 1886.

MASSIGNON (Louis).
Le Maroc dans les première annés du XVIe siècle. Alger, 1906.

MONTAGNE (Robert).
Les marins ingigènes de la zone française du Maroc. Hesperis, 1923, pp. 175 à 215.

MORGAN (J.).
Histoire des Etats barbaresques qui exercent la piraterie 2 vol. Paris, 1757.

MOUETTE (Germain).
Relation de captivité dans les royaumes de Fès et de Maroc. Paris, 1683.

MOUETTE (Germain).
Histoire des conquestes de Moulay Archy. Paris, 1683.

NACIRI (Ahmed ben Khaled).
Kitab-el-Istiqça. Traduction E. Fumev. Archives marocaines, volumes IX et X. Paris, 1906-07.

OUFRANI (Mohammed ben Abdallah el).
Nozhet-Elhâdi. Traduction O. Houdas. Paris, 1889.

PAVI (Mgr).
La piraterie musulmane. Revue Africaine, avril 1858.

PENZ (Charles);
Journal du Consulat général de France au Maroc (1767-1785), paraphé par Louis Chénier. Casablanca, 1943.

PENZ (Charles).
Les captifs francais du Maroc au XVII° siècle (1577-1699). Rabat 1944.

PENZ (Abbé).
Les captifs français du Maroc au XVII^e siècle (1577-1699). Rabat, 1944.

RAYANAL (Abbé).
Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans l'Afrique sptentrionale, 2 vol. Paris, 1826.

ROCQUEVILLE.
Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger. Paris, 1675.

ROERIE (La) et VIVIELLE (Commandant).
Navires et Marins, 2 vol. Paris, 1930.

ROUARD de CARD (E).

Traités de la France avec les pays de l'Afrique du Nord. Paris, 1906

Saint-OLON (PIDOU de).

Relation de l'Empire de Maroc. Paris, 1695

SAINT-Yves.

Les pertes du commerce de Marseille, de la rupture de la paix de Nimègue à la paix de Ryswick (1688-1698). Bulletin de Géographie historique et descriptive, 1896, n° 2.

TERRASSE (Henri).

Les portes de l'Arsenal de Salé. Hespéris, 1922, pp. 357 à 371.

X......

La Connaissance des Pavillons ou Banniàres que la plupart des Nations arborent en mer. La Haye, 1737.

Mémoire concernant les Régences Barbaresques. Traduit de l'italien par le Chev. d'Hénin. Venise, 1788.

— Relation des trois voyages faits dans les Etats du Roy de Maroc pour la Rédemption des captifs, par les Religieux de N.-D. de la Mercy (1704-1712). Paris, 1724.

— Voyage dans les Etats barbaresques de Maroc, Alger, Tunis et Tripoly. Paris, 1785.

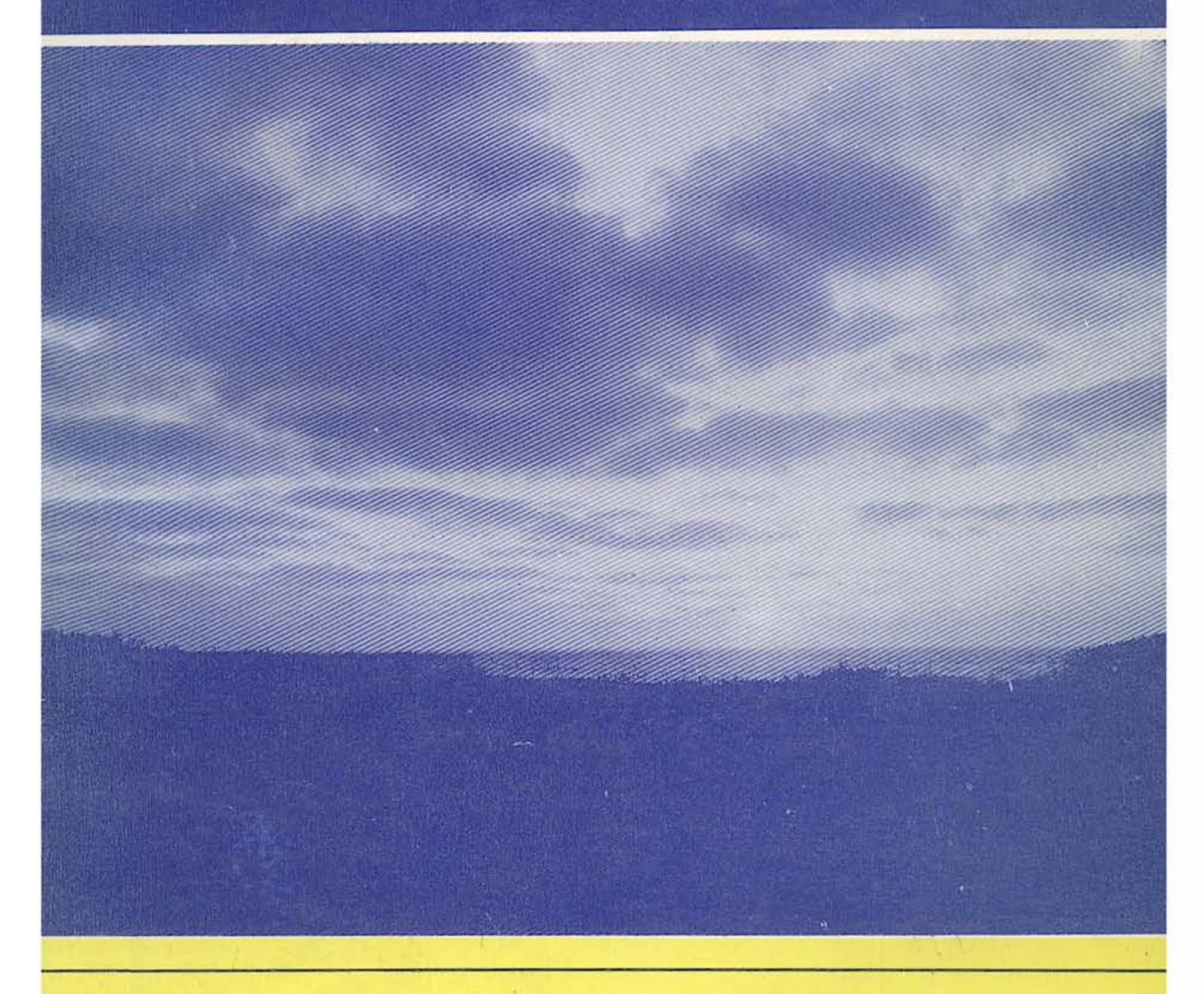
فهـــرس

مطبعة ومكتبة الأمنية ش.م
IMPRIMERIE LIBRAIRIE OMNIA s.a

Roger COINDREAU

Traduit par : Mohammed HAMMOUD

LES CORSAIRES DE SALE



Edité avec la Participation de l'Institut Universitaire de la Recherche Scientifique
UNIVERSITE MOHAMMED V